قراءة في حركات مضامين

الشّعر العربيّ الحديث

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

❊

darjundi46@gmail.com

(قراءة في حركات مضامين الشعر العربيّ الحديث)

(مشهور الحبّازي)

الطبعة الأولى (2019).

❊

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

قراءة في حركات مضامين الشّعر العربيّ الحديث

تأليف

أ. د. مشهور الحبّازي

الطبعة الأولى

2019م

الفهرس

قصّة الكتاب5 13
المقدّمة14 17
تمهيد24 31

الفصل الأول

عوامل نهضة الأدب العربي ومناقشتها.32

أوّلًا-عوامل نهضة الأدب العربيّ (تغريبه).33 41
ثانيًا-مناقشة بعض عوامل نهضة الأدب العربيّ (تغريبه).37 44
أ.استخدام الدواوين لتنفيذ أوامر الاحتلال، وتمكينه من مصر38 47
ب.إثارة الفتنة الدّينية في مصر41 50
ج.إذلال المسلمين، وهدم مقدّساتهم، وتدنيسها49 61
د.قتل ثُمن مواطني مصر52 64
ه.نهب ثروات مصر، وإفقار أهلها53 66
و.إشاعة الفساد الأخلاقي، والفجور في مصر57 71
ز.ادّعاء تملّك مصر، وفرنستها61 76
ح.إنشاء مجمّع علمي، واصطحاب بعثة علميّة62 77
ط.تحالف نابليون مع المورانة واليهود64 79
ي.حركة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسيّ.64 80
أفكار رسالة السلطان77 94
أسلوب الرّسالة77 95
رابعًا-المدارس84 104
-المدارس الأجنبية85 104
-المدارس التابعة للطوائف غير المسلمة في الدولة العثمانيّة85 104
-المدارس الأهلية التابعة لأفراد أو جمعيات محلية.85 104
-لويس شيخو86 106
-أنور الجندي87 107
من الآثار السلبية للمدارس والصحف90 111
-أمين شميل93 116

-شبلي شميل94 116
-فرح أنطون94 116
-يعقوب صروف94 116

الفصل الثاني

المذاهب (المدارس) الأدبيّة العربيّة95

تقديم97 121
أوّلًا-المذهب العربيّ الأصيل99 123
مبادئ المذهب العربي الأصيل102 126
من أعلام المذهب العربيّ الأصيل107 131
- محمود سامي بن حسن حسني البارودي107 132
شاعريّة البارودي109 134
مفهومه للشعر109 135
صفات الشعر الجيد111 136
وظيفة الشعر111 136
العوامل المؤثرة في شاعريته112 137
مميزات شعره112 137
آثاره113 138
-أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي115 141
شاعريته121 148
مفهومه للشعر123 149
موقفه من الدعوة إلى الأدب المصريّ123 150
صفات شعره124 151
موضوعات الشعر عند أحمد شوقي125 152
موقفه من دُعاة التّغريب125 152
التجديد في شعره125 153
آثاره126 154
الشعر المنثور عند أحمد شوقي129 156
نماذج من شعره129 157
- إبراهيم عبد الفتاح آغا طوقان143 172
ثقافته145 173

وظائف إبراهيم طوقان146..... 174
شاعريته148 176
وفاته149 176
آثاره149..... 178
نماذج من شعره150 178
ثانيًا-المذهب الرومانسيّ163 195
نشأة الرومانسيّة164 196
العوامل التي أسهمت في نشوء الرومانسيّة166..... 198
مقارنة بين المذهب العربيّ الأصيل (الكلاسيكيّة) والرومانسيّة167 200
-جبران خليل جبران ميخائيل170 203
دعوته إلى التغريب (التجديد)171..... 205
آثاره172..... 205
نموذج من شعره173 207
-خليل عبده مطران174..... 209
شاعريته178 214
مفهومه للشعر179 215
العوامل المؤثرة في شاعريّته180..... 216
دعوته إلى تغريب (تجديد) الشعر العربيّ181 217
أثر خليل مطران في حركات تغريب (تجديد) الشعر العربيّ181..... 218
آثاره182..... 219
ثالثًا-مدرسة الدّيوان183 220
تأسيس المدرسة183 220
مشاركة عباس محمود العقاد184 221
مشاركة إبراهيم عبد القادر المازني184..... 222
انقسام مدرسة الدّيوان (الرومانسيّة)185..... 223
عباس محمود العقاد ومدرسة الدّيوان186..... 224
مفهوم الشعر عند مدرسة الدّيوان187 225
مصادر الشّعر عند مؤسّسي مدرسة الدّيوان187..... 225
خصائص مدرسة الدّيوان الشعرية188 226
مؤسّسو مدرسة الدّيوان189 228
1. عبد الرحمن محمد شكري عيّاد189..... 228

شعر عبد الرحمن شكري190 229
مؤلفاته190 229
-إبراهيم عبد القادر المازني191 230
العوامل المؤثرة في تشكيل فكر المازني وأدبه191 230
شعره191 231
مؤلفاته192 231
3. عباس محمود العقاد193 232
شعره193 233
نماذج من شعر العقاد195 235
نماذج من ديوانه "هدية الكَرَوان"195 235
النموذج الأول بعنوان "الكروانيات"195 235
النموذج الثاني بعنوان: "الكروان"195 235
النموذج الثالث بعنوان "الكروان المُجدّد"197 337
الخلاصة199 240
رابعًا-جماعة أبولّو199 240
معنى أبولّو199 240
المؤسّس200 241
عضوية الجماعة200 241
مجلّة الجماعة201 242
العوامل التي ساعدت على تشكيل جماعة أبولّو202 244
نقد جماعة أبولّو204 246
أهداف جماعة أبولّو204 246
خصائص جماعة أبولّو204 247
الثاني- بناء القصيدة206 248
من أعلام جماعة أبولّو206 248
-أحمد زكي أبو شادي206 248
شاعريته206 249
مؤلفاته208 250
تشكيل شاعرية أبي شادي208 250
نماذج من شعره: اخترت خمسة نماذج من شعره، وهي209 252
خامسًا- مدرسة شعراء المهجر 212 255

1-أسباب الهجرة إلى أمريكا213 257
2-بدايات الهجرة 221 266
3-العوامل الّتي أسهمت في ظهور مدرسة شعراء المهجر224 271
4-النّدوات، والنوادي، والرّوابط، والجمعيّات الأدبيّة في المهجر229 277
أوّلًا- النّدوات229 278
1- رواق المعرّي229 278
2- ندوة الأدب العربيّ230 278
ثانيًا: النوادي الأدبيّة230 279
1- **النادي الحمصي**230 279
2- **النادي العربي**231 280
ثالثًا-الرّوابط والجمعيات الأدبيّة231 280
-رابطة منيرفا 231 280
-الرابطة الأدبيّة232 281
-جامعة القلم 233 282
أهداف جامعة القلم233 283
شروط العضوية في الجامعة234 284
-الرابطة القلميّة234 284
تأسيس الرابطة236 286
لسان الرابطة236 286
مفهوم الرابطة للأدب والشعر237 287
أهداف الرّابطة وغاياتها237 288
ميزات أدب الرابطة239 289
أثر شعراء الرابطة في الشعر العربيّ الحديث240 291
شعار الرابطة250 303
انفراط عقد الرابطة251 304
5- العصبة الأندلسيّة251 304
ظروف النشأة251 304
تأسيس العصبة252 305
لسان العصبة252 306
سبب التّسمية253 307
دستور العصبة255 308

أهداف العصبة255..... 308
نشاط العصبة256 309
ميّزات شعر شعراء العصبة الأندلسيّة256 310
الفرق بين شعر شعراء الرابطة القلميّة، والعصبة الأندلسيّة261 310
ميّزات مدرسة شعراء المهجر262..... 318
أوّلًا-الشكل263 318
ثانيًا-المضمون والمحتوى264..... 320
الخاتمة280 341
أولًا-النتائج281 341
ثانيا-التوصية283 344
المصادر والمراجع284..... 345
أولا-المصادر284..... 345
ثانيًا-المراجع288..... 350

قصّة الكتاب

في سنة (2015/1436) أسند إليّ الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور ياسين كتاني، المدير الأكاديميّ لأكاديميّة القاسمي التربوية – مشكورًا- تدريس مساق "الشعر العربي الحديث"، فبدأت البحث عن مادة علمية تصلح لذلك، وكانت المفاجأة، أنّ معظم الكتب الموضوعة في الشعر العربيّ الحديث تتّفق مع آراء المستشرقين، في إسقاط أكثر من ستمائة سنة من تاريخنا العربيّ الإسلاميّ، وربط النهضة العربيّة بالاحتلال الفرنسيّ لمصر.

أعادني ذلك إلى أربعة عقود ماضية عندما كنت طالبًا في كلية الآداب بالجامعة الأردنيّة حيث كان أساتذة الأدب الحديث يُعلّموننا أن الأدب العربيّ توقف في (القرن الثالث الهجريّ/ التاسع الميلاديّ)، وأنّ ما ظهر على أيدي المتنبي، وأبي العلاء المعرّيّ، والشّريف الرّضيّ وغيرهم لم يكن إلّا طفرة، كما علّمونا أنّ مدارس الإرساليات التبشيريّة، ومدارس الطوائف المسيحيّة، والمطابع، والصحف كانت من عوامل النّهضة الشاملة.

لم يكن من الممكن النقاش في ذلك لسببين: الأول، الخوف من معارضة الأستاذ، وبخاصة أنّه يحتمي بمظلّته التقدّميّة، فضلًا عن السلطة التي كان يمتلكها، فهو مَلك في مادته وطلابه. والثاني، العبء الدّراسي الذي كان ثقيلًا، ومطلوبًا النجاح فيه بتفوّق، علمًا أنّ التعليم في ذلك الوقت كان سليمًا مائة بالمائة إن لم يكن أكثر. وهو لو يطبق هذه الأيام لتراجعت أعداد طلبة الجامعات إلى ما لا يقل عن النصف.

كان ذلك يُثير فيَّ سؤالًا مُهمًّا وهو: هل يُعقل أن نربط نهضتنا باحتلال؟! وكان يزيد من حدّة وقع السؤال: الحديث السّريع عن هزيمة نابليون أمام أسوار عكا، لكن ما كان يُخفّف من وقع السؤال هو إرجاع النّصر على نابليون إلى أحمد باشا الجزّار، ثم يعود السؤال ثانية إلى طبيعته الأولى عند الحديث عن المساعدة البريطانيّة للدولة العثمانيّة الإسلاميّة مُمثّلة في أحمد باشا الجزار لتحقيق ذلك النّصر.

في مُقابل ذلك كُنّا درسنا مساقًا بعنوان "الأدب في مصر والشام"، وهذا المساق يتحدّث عن الأدب في مُواجهة الحروب الإفرنجيّة (الصليبيّة)، ودوره في استنهاض قوى الأمّة المهزومة، وحثّها على الدفاع عن نفسها، وعدم الاستسلام، ثم تحريضها على الجهاد من أجل دحر الاحتلال، واسترداد المقدّسات، وحماية العرض، والممتلكات، والأرض.

كان لهذا المساق بفضل مدرّسه الأستاذ الدّكتور عبد الجليل عبد المهديّ، أمدّ الله في عمره، وأحسن خاتمته، ومدرّسه الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم، يرحمه الله

تعالى، أثر إيجابي كبير في نفوس كثير من الطلبة، وبخاصة أنّ الحقبة كانت تمتاز بصعود تيار الجهاد ضد الاحتلال الإسرائيليّ لفلسطين، وبعض الأراضي العربيّة في: سوريا، ولبنان، والأردن، ومصر.

في أواخر ربيع سنة (2017/1438) شاركت في مناقشة رسالة ماجستير في الأدب الفلسطينيّ الحديث، فكانت الصدمة الكبرى أنّ بعض النقاش دار حول أيّ المصطلحين يجب اعتماده هل هو: "وعد بلفور" أم "تصريح بلفور". وحول ضرورة التمييز بين الاحتلال والانتداب البريطانيّ.

سبب الخلاف هو عدم وجود مُنطلقات ثابتة للثقافة العربيّة الإسلاميّة منذ احتلال نابليون مصر: إذ كلّ دارس مُفتٍ في مجاله، ولذلك يكاد لا يوجد اتفاق أغلبية في وطننا الكبير على أيّ شيء، وحتى على أسّس ثقافتنا.

لقد سادت عندنا عبادة الفرد، فكلّما جاء فرد صنعنا منه زعيمًا، وعندما يذهب نلعنه، وننسى أنّنا نلعن أنفسنا. وقد قال أحمد شوقي في "أسواق الذّهب": "هلكت أمّة تحيا بفرد، وتموت بفرد".

أما الفرق بين الاحتلال والانتداب البريطانيّ والفرنسيّ على حدّ سواء، فهو ليس إلّا تجميل من المُحْتَل لفعلته؛ فأول سنوات الاحتلال كان حكمًا عسكريًا كاملًا، ثم أرادت الدوّل المنتصرة في الحرب العالميّة الأولى، والتي شكلت "عصبة الأمم" وبخاصة فرنسا وبريطانيا، تحسين صورتيهما، وتنفيذ سياستيهما بسهولة، وبغطاء قانون هما وضعتاه وسمّتاه دوليًّا، فأوجدتا ما أسمتاه نظام الانتداب، وهو في حقيقته احتلال عسكريّ بكل معنى الكلمة. لا بل هو تحقير للشعوب الواقع عليها؛ إذ يعني ببساطة أن المُنْتَدَبْ هو المرشد المؤقت ريثما يُصبح الشعب الخاضع للانتداب (أي القاصر) قادرًا على حكم نفسه. كما أنّ نصوص صك الانتداب على فلسطين تنصُّ بوضوح أنّ بريطانيا مُكلّفة من عصبة الأمم بتنفيذ إقامة وطن قوميّ لليهود، فقد جاء في البند الثاني من صك الانتداب البريطانيّ على فلسطين: " تكون الدّولة المُنْتَدَبة مسؤولة عن جعل البلاد في حالة سياسيّة وإداريّة واقتصاديّة، تكفل إنشاء الوطن القوميّ اليهوديّ، كما جاء في ديباجة هذا الصك"[1]. وديباجة الصك تضمّنت: "ولمّا كانت دول الحلفاء الرئيسة قد وافقت – أيضًا-على أن تكون الدّولة المُنْتَدبة مسؤولة عن تنفيذ التّصريح، الذي صرّحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في ([18محرّم 1336ه] 2 تشرين الثاني 1917)، وصادقت عليه الدول المذكورة بأن ينشأ في فلسطين وطن قوميّ للشّعب اليهوديّ ... ولمّا كان ذلك اعترافًا بالصلة التاريخيّة التي تصل

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 252/3.

الشعب اليهوديّ بفلسطين، والبواعث التي تبعث على إنشاء وطنهم القوميّ في تلك الدّيار"[1].

ثم ما الفرق بين الحكم العسكريّ الإسرائيليّ للضفة الغربيّة الذي استمرّ أربعة عشر عامًا من شهر(صفر 1387 الموافق لشهر حزيران 1967 وحتى ذي القعدة 1401 الموافق لشهر أيلول 1981)، و ما أسمته إسرائيل الإدارة المدنية التي أسّستها بعد انتهاء الحكم العسكري مباشرة ؟!.

الحقيقة هي أنّه لا يوجد فرق إلّا في الاسم، الذي أوجدته إسرائيل لتجميل صورتها البشعة، وتغطية جرائمها ضد الشعب الفلسطينيّ. وها قد مضى على تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينيّة-في الضفة الغربيّة وقطاع غزة-أكثر من عقدين، وما زالت الإدارة المدنية الإسرائيليّة للضفة الغربيّة (تُسميها إسرائيل منطقة "يهودا والسامرة") هي الحاكم الفعلي للضفة الغربية (دولة فلسطين كما أعلنها الرئيس محمود عباس يوم16 محرّم 1434 الموافق 2012/11/29 أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة).

إنّ القوّة هي الحاكمة في العالم كلّه، ولا شيء غيرها، منذ هبوط آدم، عليه السّلام، على هذه الأرض، وحتى يرثُ الله، جلّت قدرته، الأرض وما عليها. وقوة إسرائيل مُستندة إلى وعد بلفور، وصك الانتداب الصادران عن بريطانيا، وعصبة الأمم. والأولى هي التي هدمت دولة الإسلام، وتُصرّ على موقفها من الوعد، فتحتفل مع الدولة التي أنشأتها بالذكرى المئوية له، ضاربة عرض الحائط بكلّ صِياح عربيّ وإسلاميّ، مهما بلغ مداه، لا يتبعه فعل قادر على تغيير الواقع المعيش.

إنّ ما سبق وغيره أنضج فكرة تأليف هذا الكتاب الذي سبق ظهوره ما كان يجب أن يظهر من مؤلفات؛ لتوضيح حقيقة واقع الأدب العربيّ في العصرين التركيّ والجركسيّ (المُسمّى ظُلمًا المملوكيّ)، والعثمانيّ (المُسمّى ظلمًا –أيضًا– عصر الانحدار، والجمود، والانحطاط، والجفاف الفكريّ وغيرها من المُسمّيات).

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 251/3.

المقدّمة

اعتـاد كثيـر مـن دارسـي الأدب العربـيّ علـى اعتمـاد المـنهج المدرسـيّ فـي دراساتهم تطوّره عبر التـاريخ. وهو منهج يقوم على ربط حركـة الأدب بـالتحوّلات السياسيّة التي مرّ بهـا التـاريخ العربـيّ الإسلاميّ. وبنـاء علـى ذلك أطلقوا اسم الأدب العربي الحديث، أو الحديث والمعاصر، أو المعاصر – مع اختلاف في فهم الحداثة والمعاصرة، وتحديد الحقبـة الزمنيّة لكلّ من اللفظتين-علـى الأدب العربـيّ الذي يبدأ زمنيا باحتلال (حملة) نابليون مصر الذي استمرّ ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع مـا بين (1213/1798 و1216/ 1801)، ولـم يحـدّدوا نهايـة زمنيـة لهـذا الأدب، إذ مـازال هـذا الاسم شـائعًا عند أغلب دارسـي الأدب العربـيّ الحديث (المعاصـر)، حتـى يومنـا هذا (أي سنة 1439/2018).

ثم عندما أخذوا بدراسة النتاج الأدبي للشّعراء والكتاب العرب اعتمدوا مناهج عديدة، وضـحها أستاذي المرحوم ،بـإذن الله تعـالى، شكري فيصـل فـي كتابـه القيّم " مناهج الدّراسة الأدبيّة في الأدب العربـيّ: عرض، ونقد، واقتـراح "، وهـي: النظريـة المدرسيّة، ونظريّة الفنون الأدبيّة، ونظرية الجنس (العرق الـذي ينتمـي إليـه الأديـب)، ونظريّة الثقافات (الثقافة التي يستمدّ الأديب منها معرفتـه)، ونظريّـة المـذاهب الفنّيّـة، والنظريّة الإقليميّة (المكان والبيئة التي نشأ فيها الأديـب)، ثـمّ انتهـى إلـى أنّـه لا يُمكن اعتماد منهج واحد فـي دراسـة الأدب، إنّمـا - غالبًـا– مـا يحتـاج إلـى أكثـر مـن مـنهج، وذلك هو ما أسماه "المنهج التركيبي" (وقد شاع عند كثيرين باسم التّكامليّ)، وهو فـي رأيي يُمكن أن نُطلقه على ثلاثة مناهج، فأكثر[1].

بناء على تلك المناهج تمّ دراسة الأدب العربيّ وفق العصور التّاريخيّة، التـي مرّت بها حضارة العرب والمسلمين، وقد اختلف الدّارسون في تقسيم تلك العصـور، وبالتـالي اختلفـت عصـور الأدب العربـيّ، وأرى أنّ مـن المفيـد تقسيم عصـور الأدب وفق الآتي:

1 – العصر الجاهلي، ويمتدّ مائة وخمسون إلـى مـائتي سنة قبل بعثـة الرسـول، صلّى الله عليه وسلّم، وكانت بعثته، صلّى الله عليه وسلّم، سنة (610م).

2 – عصر صدر الإسلام، ويمتدّ ثلاث وخمسون سنة، ويشمل دعوة الرسـول، صلّى الله عليه وسلّم، ومدّتها ثلاث وعشرون سنة، وحقبـة الخلفـاء الرّاشـدين، ومـدّتها ثلاثـون سـنة، أي مـن سـنة (610-632م) ثـمّ مـن سـنة (11/632-

(1) انظر: شكري فيصل، مناهج الدراسة الأدبيّة، ص11-239.

661/41)، حيث تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم، فسُمّي ذلك العام عام الجماعة.

3 – عصر الخلافة الأمويّة، ويمتدّ من سنة (41/661-132/749).

4 – عصر الخلافة العباسيّة، ويمتدُّ من سنة (132/661-923/1517)، وقد اختلف دراسو الأدب العربيّ حول قسمة الأدب في هذه الحقبة الطويلة، وأكثرهم قسّمه إلى ثلاثة عصور، هي: الأول، ويُغطي السنوات(132/749-232/846)، والثاني، ويُغطي السنوات(232/846-333/944)، والثالث، وسمّاه بعض الدّارسين باسم عصر الدّول والإمارات، أو عصر الدّول المتتابعة، ويُغطي السنوات(334/945-656/1258)، ثمّ تحدّثوا عمّا أسموه عصر المماليك، الذي هو ضمن العصر العباسيّ، وقسموه إلى قسمين برجيّة وبحريّة، ثم العصر العثماني، فالعصر الحديث. والحقيقة أنّني أرى غير ذلك؛ لأنّ الدولة العباسيّة ظهرت فيها إمارات، وممالك، ودول، منذ بداية القرن الثالث الهجريّ، كما أنّ الأدب كان يزدهر ويخفت في القرون كلّها، ولذلك أرى أن يكون الحديث عن عصر الخلافة العباسيّة من بدايتها إلى نهايتها، وأن تُذكر أسماء بعض الإمارات، والممالك، والدّول، والسّلطنات، التي ظهرت فيها لعلّ ذلك يدفع الباحثين إلى دراسة الأدب والثقافة التي ظهرت فيها، وهي غنيّة-غالبًا-، وما زال كثير جدّا من نتاجها مخطوطًا، وعليه يمكن الحديث عن العصر العباسيّ الذي امتدّ قرابة ثمانية قرون على النحو التالي:

أوّلًا: الدول التي ظهرت في الشرق الإسلاميّ

ظهرت دول كثيرة في شرق دولة الخلافة العباسيّة(المقصود بالشرق هو من مصر إلى الصين حيث انتشر الإسلام)، بعضها عمّر عقودًا عديدة، وبعضها الآخر عمّر قرونًا عديدة، ومن تلك الدول:

1-الدولة الطولونيّة في مصر وغيرها(254/868-292/905)

2-الدولة الإخشيديّة في مصر وغيرها(323/935-358/969).

3-الدولة الحمدانيّة في الموصل وحلب، وغيرهما(317/929-394/1004).

5-الدولة المرداسيّة في حلب وغيرها(414/1023-472/1080).

6-دولة بني عقيل في الموصل وغيرها(386/996-489/1096).

7-دولة بني مروان في ديار بكر وغيرها(380/990-489/1096).

8-دولة بني مزيد في الحلّة وغيرها(403/1012-545/1150).

9-دولة بني دلف في بلاد الكرج والبرج (ما بين همذان وأصفهان) وغيرهما(210/825-285/898).

10-دولة بني طاهر في خراسان وغيرها (205/821-259/873).

11-الدولة الصفّريّة في هراة وفارس وغيرهما(254/868-296/908).

12-الدولة السّامانيّة في سمرقند وفرغانة وغيرهما(261/887-389/999).

13-دولة بني حسنويه في همذان ونهاوند وغيرهما(348/959-406/1015).

14-الدولة البويهيّة في الكرج ثم في كرمان ثم في بغداد وغيرها (320/932-447/1055).

15-الدولة الإسماعيليّة الباطنيّة(الحشّاشون) في قلعة ألموت (عش النسر) في جبال الديلم جنوب بحر قزوين وغيرها(483/1090-654/1256).

16-الدولة السّلجوقيّة، وقد ظهرت خمس دول لها، وهي: سلاجقة خراسان، وكرمان، والشام، والعراق، والأناضول، وحمكت قريبًا من ثلاثة قرون (432/1040-708/1308).

17-الدولة الدانشمنديّة، وظهرت في ثلاث مناطق بتركيا، وهي: قبادوقيا، وسيواس، وملطية، ما بين (464/1071-573/1177).

18-الدولة الأتابكيّة (وأتابك كلمة تركية مكوّنة من مقطعين وتعني مربي ابن السلطان)، وقد نشأت في ظل الدولة السلجوقيّة، وأشهرها الدولة الزنكيّة التي أسّسها آق سنقر، وابنه عماد الدّين زنكي، ثم حفيده نور الدّين محمود زنكيّ، ثم إسماعيل بن نور الدّين زنكيّ، وحمكت ما بين (487/1094-624/1227).

19-الإمارات الأرتقيّة، وتنتمي إلى أرتق بن أكسك أحد قادة الجيش السلجوقي، وقد استطاعوا تأسيس ثلاث إمارات مهمة في حصن كيفا، وحصن آمد، وخرتبرت، وماردين، وهي اليوم جميعها تقع ضمن تركيا، وحكم هؤلاء قريبًا من ثلاثة قرون(495/1101-811/1408). وقد ظهرت دول كثيرة في ما يُعرف اليوم بتركيا، وأذربيجان، وأرمينيا، والدول الإسلاميّة التي استقلت اسميًّا عن الاتحاد السوفياتي بعد انهياره.

20-الدولة الغزنوية في أفغانستان والبنجاب (531/962-579/1183).

21-الدولة الغوريّة في أفغانستان والهند (543/1148-621/1215).

22-دولة سلاطين دهلي في الهند (602/1206-962/1555).

23-الدولة المغوليّة (بادشاهات هندستان) في الهند (932/1526-1275/1858).

24-الدولة الأيوبيّة، وقد أسّسها صلاح الدّين يوسف بن أيوب، وكان والده وعمّه من قادة جيوش نور الدّين زنكي، وحمكت مناطق واسعة من البلاد الإسلاميّة باسم الخلافة العباسيّة، إذ شملت دولتهم مصر والجزيرة العربيّة، وبلاد الشام، وأجزاء واسعة من تركيا اليوم وغيرها، وحكمت مابين(569/1174و930/1524) حيث انتهت آخر دولة لهم كانت في حصن كيفا بتركيا في عهد السلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ.

25-الدولة التركيّة الجركسيّة (المُسماة ظلمًا الدولة المملوكيّة)، وكان مركزها في القاهرة، وهي وريثة الدولة الأيوبيّة، وهي قسمان:

أ-الدولة التركيّة، وتسمّى البحريّة؛ لأنّ مؤسّسوها كانوا جندًا للملك الصالح نجم الدّين أيوب، وكان يُسكنهم في جزيرة الروضة بالنيل، ولمّا كان أهل مصر يُطلقون على النيل اسم بحر، فقد عرفوا بالبحريّة، وحكموا (648/1250-784/1290).

ب-الدولة الجركسيّة أو الشركسيّة، وتسمّى البرجيّة؛ لأنّ مؤسّسوها كانوا جندًا للملك الصالح نجم الدّين أيوب، وكان يُسكنهم في قلعة القاهرة، وحكموا (784/1382-923/1517).

26-دول شبه الجزيرة العربيّة، ظهرت في شبه الجزيرة العربيّة دول عديدة، وأهمها:

أ-الدول التي ظهرت في اليمن، ظهر في اليمن اثنتا عشرة دولة، وهي:

1-دولة بني زياد في مدينة زبيد (204/819-409/1018).

2-دولة بني يعفر في صنعاء وجند (247/861-378/997).

3-دولة بني نجاح في زبيد (512/1021-544/1159).

4-دولة بني صليح في صنعاء (429/1037-492/1098).

5-دولة بني همدان في صنعاء (492/1098-569/1173).

6-دولة بني المهدي في زبيد (554/1159-569/1173).

7-دولة بني زريع في عدن (476/1083-569/1173).

8-دولة بني رسول في اليمن (626/1229-858/1454).

9-دولة بني طاهر في اليمن (855/1451-923/1571).

10-دولة بني رسى أو بني طباطبا في صعدة (280/893-700/1300). وهي دولة شيعيّة.

11-الدولة الإماميّة في صنعاء وغيرها (1000/1591-1343/1925). وهي امتداد لدولة بني رسى السابقة، وقد دخلت في أوقات كثيرة في طاعة السلاطين العثمانيين منذ بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مع تنازع مع الدول الاستعماريّة الأوروبيّة.

ب-الدول التي ظهرت في الحجاز، ومنها:

1-دولة بني الأخيضر في مكّة المكرّمة واليمامة (251/865-350/961).

2-دولة بني موسى في مكّة المكرّمة (350/961-453/1061).

3-دولة بني هاشم أو بني فليتة في مكّة المكرّمة، وخضعت للدولة العبيديّة، ثم للدّولة الأيوبيّة، (460/1067-598/1201).

4-دولة بني قتادة الهاشميّة في مكّة المكرّمة، وخضعت للدولة التركية والجركسيّة، ثم للدولة العثمانيّة، وآخر من حكم منهم هو الشريف حسين بن علي، الذي تحالف مع بريطانيا ضد دولة الخلافة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى، وحكمت (598/1201-1342/1924).

ج-الدول التي ظهرت في عمان، وكانت عاصمتهم مدينة نزوى لمدة تزيد على ألف سنة، ثم مدينة رستاق حوالي ثمانين سنة، وفي بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي مدينة مسقط، ومنها:

1-دولة بني نبهان (549/1154-809/1406).

2-دولة بني يعرب (1034/1624-1154/1741).

3-دولة أبي سعيد (1154/1741-1332/1913). ومن هذه العائلة سلطان سلطنة عمّان الحالي، السلطان قابوس بن سعيد.

ثانيًا: الدول التي ظهرت في الغرب الإسلاميّ

ظهرت دول كثيرة في غرب دولة الخلافة العباسيّة (المقصود بالغرب هو من مصر إلى الأندلس وباقي البلدان الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام، وجزر البحر

الأبيض المتوسط)، بعضها عمّر عقودًا عديدة، وبعضها الآخر عمّر قرونًا عديدة، ومن تلك الدول:

1-الدولة الإسلاميّة في الأندلس، أقام المسلمون دولة في بلاد الأندلس عاشت أكثر من ثمانية قرون (92/711-897/1492). وقد ظهر في هذه الدّولة نظم حكم عديدة، أهمها:

أ-الإمارة الأمويّة، حيث تمكّن الأمير الأمويّ عبد الرحمن الداخل(الأول)، وهو حفيد الخليفة الأمويّ العاشر هشام بن يزيد من دخول الأندلس، وإقامة إمارة لبني أميّة، واستمرّت الإمارة ما بين (138/756و317/929).

ب-الخلافة الأمويّة، في بداية القرن الرّابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ، بلغت الحضارة الإسلاميّة مستوى عاليًا من التقدّم، فيما ضعفت الخلافة العباسيّة سياسيًّا حتى وصل الأمر إلى أن أقام الشيعة العبيديّون خلافة لهم على أجزاء واسعة من أراضي الخلافة العباسيّة، فلجأ الأمير الأمويّ عبد الرحمن الثالث إلى إعلان نفسه خليفة، وتلقّب بلقب أمير المؤمنين، واستمرّت الخلافة ما بين (317/929و422/1031). وكان آخر خلفائهم هو هشام الثالث الملقّب بالمعتدّ بالله.

ج-ملوك الأندلس، بعد انتهاء الخلافة الأمويّة، استقل في مدن الأندلس الكبيرة حكامها، وأطلق عليهم أغلب الدارسين اسم" ملوك الطوائف"، والحقيقة أنهم لا ينتمون إلى طوائف دينيّة عديدة، بل هم كلّهم مسلمون على المذهب المالكيّ، وقد ظهرت في أنحاء الأندلس أربع عشرة مملكة، وامتد حكم هؤلاء الملوك ما بين (400/1009و484/1091)، وذلك مع تفاوت في مدّة حكم تلك الممالك، كما أنّ بعضها استمرّ في الحكم بعد قيام دولة المرابطين، مثل ملوك بني هود في سرقسطة، الذين حكموا حتى سنة (536/1141).

د-دولة المرابطين، والمرابطون هم مجاهدون ضد نصارى الأندلس من قبائل لمتونة فرع صنهاجة البربريّة، بنوا مدينة مراكش في المغرب، واتخذوها عاصمة لهم، وقد أصبحت الأندلس تابعة للمغرب الإسلامي (484/1091-545/1150). وكانوا يعترفون بالخلافة العباسيّة، ولقب سلاطينهم بلقب" أمير المسلمين".

ه-دولة الموحّدين، وهم من قبائل مصمودة البربريّة، قامت بهدف جهاد النصارى، وحماية الإسلام والمسلمين، واتخذت مراكش عاصمة لها (524/1130-668/1269). ولمّا ضعفت قامت على أثرها ثلاث دول، هي:

1-الدولة الحفصيّة في تونس، وكانوا تابعين للموحدين، ثم استقلوا (625/1228-981/1574)، وقد تلقب بعضهم بلقب الخليفة بعد سقوط بغداد بيد المغول. ومنذ منتصف القرن العاشر الهجريّ/ السادس عشر الميلاديّ، حاول العثمانيون فتحها لحمايتها من النصرانيّة الإسبانيّة، والنمساويّة، والإيطاليّة، حيث دخلها خير الدين باربروسا سنة (941/1534)، ثم في سنة(982/1574) قضي على الدولة الحفصيّة، وأصبحت جزءًا من الدولة الإسلامية العثمانيّة حتى سنة (1298/1881)، حيث خضعت للاحتلال الفرنسي، حتى استقلت سنة (1375/1956).

2-الدولة الزيانيّة، في الجزائر (المغرب الأوسط)، وعاصمتهم مدينة تلمسان بالجزائر، وكانوا تابعين للموحّدين، ثم استقلوا (637/1239-962/1554)، ثم فتحها العثمانيون تدريجيًّا منذ بداية القرن العاشر الهجريّ/ السادس عشر الميلاديّ، وأصبحت جزءًا من الدولة الإسلاميّة العثمانيّة (924/1518-1245/1830)، حيث خضعت للاحتلال الفرنسيّ، حتى استقلت سنة (1381/1962).

3-الدولة المرينيّة، في مراكش (668/1269-875/1470)، ثم ظهرت الدولة الوطّاسيّة (875/1470-975/1550)، ثم دولة الأشراف السعدية والفلالية، وهم قسمان: دولة الأشراف السّعديّة، وهم ينتسبون إلى السيدة حليمة السعديّة، مُرضعة الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وحكمت ما بين (916/1511-1069/1659). ودولة الأشراف الفلالية في مدينة سجلماسة، وينتسبون إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وحكمت ما بين (1050/1640-1330/1912)، حيث خضعت أغلب بلاد المغرب للاحتلال الفرنسي، حتى استقلت سنة (1375/1956). علمًا أن أجزاء من بلاد المغرب كانت تخضع للاحتلال الإسباني (ومازال قائما في سبتة ومليلة حتى يومنا هذا)، والاحتلال البريطانيّ.

و-دولة بني الأحمر أو بني نصر، وعاصمتها مدينة غرناطة (629/1232-898/1492). وبها انتهى الوجود الإسلاميّ في بلاد الأندلس، التي قام على أنقاضها دولتان نصرانيتان هما: إسبانيا والبرتغال.

2-دولة الأدارسة في المغرب، وعاصمتها مدينة فاس (1172/788-364/974). وهي تنتمي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

3-دولة الأغالبة، في تونس (184/800-292/909). وقد أسّسها إبراهيم بن الأغلب التميميّ، الذي عيّنه الخليفة هارون الرشيد واليًا على تونس، لكنه أقام

دولة حمكها أبناؤه من بعده أكثر من قرن من الزمن، وتلقب بلقب "الأمير"، واستطاع أن ينشر الإسلام في سواحل إيطاليا، وفرنسا، وجزيرتي كورسيكا، وسردينيا، وفتح صقلية سنة (827/212)، فأصبحت جزءًا من بلاد الإسلام، وقد ظلت دولة الأدارسة تابعة للخلافة العباسيّة حتى قضى عليها الشيعة العبيديون.

4-الدولة العبيديّة الشيعيّة، وعاصمتها المهدية على الساحل التونسي، ثم القاهرة بمصر (1172/567-909/296). وهي دولة شيعية إسماعيليّة باطنيّة، أسّسها عبيد الله بن ميمون القداح، الذي ادّعى أنّه من نسل الأئمة الاثنا عشريّة المكتومين، وهو ليس كذلك، واستطاعت هذه الدولة احتلال أجزاء واسعة من الأراضي التي كانت تحت حكم الخلافة العباسيّة، وتلقّب حكامها بلقب الخليفة. وقضى عليها السلطان الناصر صلاح الدّين الأيوبيّ، بعدما ثبت تعاملها مع الفرنجة ضد المسلمين.

وفي العصر الحديث تمّ تقسيم الدّراسات في الأدب العربيّ إلى عناوين عديدة منفصلة بعضها عن بعض، وأهمها: الدّراسات في الشعر، والدّراسات في القصة بأنواعها، والدّراسات في الرّواية، والدّراسات في النقد، والدراسات في المسرح وغيرها.

وقد اهتمّ دارسو الأدب العربي الحديث، وبخاصة أساتذة المعاهد العليا والجامعات بدراسة فن الشعر أكثر من غيره من فنون الأدب الأخرى لأسباب عديدة، وفي دراساتهم للشعر ظهرت عناوين ومسمّيات كثيرة منها: حركات الشعر في العصر الحديث، وحركات التجديد في الشعر الحديث، والشعر العربي الحديث، والشعر العربي المعاصر، والشعر العربي الحديث والمعاصر، ومدارس الشعر العربي الحديث، وقضايا الشعر الحديث، وظواهر الشعر العربي الحديث وغيرها كثير، وهذا أدّى إلى تعقيد الدّراسات الأدبيّة في الوطن العربيّ.

على الرّغم من تشابه كثير من العناوين السّابقة إلّا أنّه توجد –أحيانًا- اختلافات كبيرة في مضامينها. وقد توافق معظم دارسي الأدب العربيّ على دراسة الشعر العربي الحديث من خلال: المذاهب، أو المدارس، أو الحركات، أو الاتجاهات، أو الظواهر التي ظهرت في هذا الشعر، ومع شديد الأسف ركّز هؤلاء

على الشعر في أربع مناطق جغرافية هي: مصر، والشام، والعراق، والمهجر، أما المغرب العربي، وشبه الجزيرة العربية، والسّودان، فدراسة الأدب فيها ما زالت غير كافية، وذلك على الرّغم من ظهور دراسات جادة للأدب في بعض تلك الأقاليم من قبل أساتذة الجامعات فيها، وبعض المهتمّين من خارجها.

هذه الدّراسة " قراءة في حركات الشّعر العربيّ الحديث" لن تخرج كثيرًا عن الطريق الذي رسمه السلف، لكنّها تثبت أنّ ما مرّ فيه الشّعر العربيّ خلال ما يزيد على مائتي سنة ليس أكثر من محاولات لإخراج الشعر العربيّ عن طريقه العربيّ الأصيل الطويل، وتوجيهه إلى طريق التغريب (التجديد) في كلّ شيء، وأنّ تلك المحاولات قد فشلت؛ إذ اختفت المذاهب الأدبيّة الثلاثة (الرومانسيّة ممثّلة في: الديوان، وأبولّو، والمهجر)، كما أنّ غيرها من المذاهب توشك على اللحاق بها. كما تكاد تختفي كلّ حركات التغريب (التّجديد) في أوزان الشعر العربيّ، ولم يثبت إلّا الشعر الموزون، والمقفّى، بغض النظر عن طريقة نظمه، وتدوينه، وتسميته.

وعليه فقد قامت هذه الدّراسة على أساس أنّ الشعر العربي، تعرّض لمؤثرات أدبية غربيّة، هدفت إلى الإسهام في إحداث التغريب (التغيير) الشامل الذي خطّط له المبشّرون والمستشرقون، وقام على تنفيذه الجمعيات والإرساليات التبشيريّة، والسياسيّون بوسائل مختلفة؛ تراوحت ما بين التعليم في المدارس، والغزو الاستعماريّ العسكريّ، والثقافيّ.

وقد اعترف كثير من دعاة التغريب (التغيير) في الشعر العربي بتأثّرهم بالأدباء والشعراء الإنجليز، والفرنسيين، والأمريكيين، والرّوس، واتّخاذهم إيّاهم قدوة لهم في: أساليب الكتابة، والأوزان، والمضامين، ومعايير تقييم الشعر.

انقرضت –أو تكاد– حركات التغريب (التغيير) في الشّعر العربيّ؛ لأنّها غريبة عن المواطن العربيّ في: مضامينها، وأساليبها، فأرادت أن تُلغي طريقة نظم الشعر العربيّ، وتستبدلها بالطريقة الغربيّة، وأن تلغي الفكر العربيّ الإسلاميّ، وتستبدله بالفكر والثقافة الغربيّة المسيحيّة. ولأنّها خرجت على الذّوق الموسيقيّ للمواطن العربيّ. ولأنّها استبدلت التراث العربيّ الإسلاميّ القائم على: الوضوح، والإيمان، والتوحيد بالتراث الوثنيّ، والمسيحيّ، واليهوديّ القائم على: الإبهام، والأساطير، والخرافات، والرّمز، وتعدّد الآلهة، والشّرك. ولأنّها حاولت أن تُقدّم للمواطن العربي أبطال ثقافة غريبة مسيحيّة غازية كنماذج في البطولة بدلًا من أبطال ثقافته وحضارته العربيّة الإسلاميّة، لا بل حاولت تقديم أبطال الأمّة، وحضارتها بصورة مُشوّهة، ومُنفّرة، وباعثه لليأس، فعند هؤلاء: الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أول باعث للقوميّة والعصبيّة. والحجّاج بن يوسف الثقفيّ، رضي الله عنه،

قاتل مأجور. ويزيد بن معاوية، رضي الله عنه، مخمور. وهارون الرّشيد، وسليمان القانوني، رضي الله عنهما، لا همّ لهما إلّا الجواري واللّهو، وهكذا فعلوا في كلّ ما استطاعوا من مواطن الفخر والعزّ في التاريخ العربيّ الإسلاميّ.

وقد اعتمدتُ في بناء هذه الدّراسة على المنهج التكامليّ؛ فأفدتُ من المنهج التاريخيّ في تتبع دراسات الشعر، ومضامينها. والمنهج الوصفي في التعريف بحركات التّغريب (التغيير). والمنهج الاستقصائيّ، والتحليليّ في الموازنة بين حركات التغريب (التغيير)، وآراء الدّارسين، واختيار المناسب منها.

وجاءت هذه الدراسة "قراءة في حركات الشّعر العربيّ الحديث"، في: قصّة الكتاب، ومقدّمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للمحتويات.

تمهيد

لا شك في أنَّ الصدام بين الحضارتين المسيحيّة والإسلاميّة قديم، فبعض الدّارسين يُعيده إلى الرّسائل التي أرسلها الرّسول، صلى الله عليه وسلم، إلى هرقل إمبراطور الرّوم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس ملك مصر، والنجاشيّ ملك الحبشة، وما تلا ذلك من فتوح إسلاميّة، وانتشار للإسلام، الذي بلغ -في وقت قصير نسبيًّا– الأندلس في الطرف الجنوبيّ الغربيّ من أوروبا، فتحوّل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلاميّة، وإلى تركستان الشرقيّة على حدود الصين[1]، فضلا عن محاولات عديدة لفتح القسطنطينيّة تيمّنًا بالحديث النبويّ الشّريف، الذي روته أمُّ حرام ، "عن أمّ حرام أنّها سمعت النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، يقول:" أول جيش من أُمّتي يغزون البحرَ قد أوجبوا[أي فعلوا]. قالت أُمّ حرام: قلتُ يا رسول الله: أنا فيهم، قال: أنتِ فيهم". ثمّ قال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم:" أول جيش من أُمّتي يغزون مدينة قيصر[أي القسطنطينيّة] مغفور لهم"، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله، قال: لا"[2]. والحديث الذي رواه عبد الله بن بشر الخثعميّ عن أبيه، أنّه سمعَ النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، يقول:" لتُفْتَحنّ القسطنطينيّة، فلنعمَ الأميرُ أميرُها، ولنعمَ الجيشُ ذلك الجيش. قال: فدعاني مَسلمةُ بن عبد الملك، فسألني، فحدّثتُهُ، فغزا القسطنطينية "[3].

وبعضهم يعيدها إلى حروب الفرنجة (الصليبيّة) (نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)، حيث غزت جيوش أوروبا المسيحيّة بتحريض من بابا الفاتيكان "أوربان الثاني" المشرق الإسلاميّ-كانت بدأت حربًا صليبية قُبيل ذلك في الأندلس-واستمّرت هذه الحرب الوحشيّة والرهيبة مدّة قرنين من الزمن. وقد واجه المسلمون هذا الغزو المتوحّش بعقيدة جهاديّة قويّة، وكان للأدب دور مهم في

---

(1) تركستان: منطقة واسعة في آسيا الوسطى، قسمتها سلسلة جبال إلى شرقية وغربية، ومساحتها تزيد عن(2,600000كم2). وهي كلمة فارسية مكوّنة من مقطعين: ترك وستان: وتعني أرض الترك، فتحها القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (98هـ). احتلت الصين الشيوعية سنة (1948) القسم الشرقي منها، وغيّرت اسمها إلى (شينج يانج)، وقامت بإجراءات كثيرة لصهر سكانها في المجتمع الصيني، وتحويلهم إلى الشيوعية منها: القتل، والتهجير، والاستيطان، وفرض اللغة الصينية، وهدم المساجد، ومنع أهلها من تسمية أبنائهم بأسماء إسلامية وعربية. تزيد مساحتها عن مليون و(664) ألف كم2، وعدد السكان الحالي عن (21) مليون نسمة أكثرهم من المسلمين، أما تركستان الغربية فتضم خمس جمهوريات إسلامية استقلت عن الاتحاد السوفياتي بعد انهياره، لكنها ما زالت مرتبطة بروسيا بشكل أو آخر. انظر: موسوعة الموارد العربيّة، 308/1.

(2) البخاري، الصحيح، حديث رقم(2721)..

(3) ابن حنبل، المسند، حديث رقم (18189).

إذكائها؛ فتمكن عماد الدّين زنكي سنة (539 / 1144) من تدمير أول مملكة صليبية في المشرق الإسلاميّ عندما حرّر مدينة الرّها (أورفا اليوم وهي مدينة كبيرة في تركيا)، إحدى أقدس المدن الستة لدى النصارى، ثم وحّد نور الدّين زنكي مصر والشام سنة (564 / 1168)، ما مهّد الطريق لفتح بيت المقدس على يد صلاح الدّين الأيوبيّ سنة (583 / 1187)، فانتقل مركز مُلك النّصارى إلى عكا، وعرفوا قيمة مصر في معادلة صراعهم مع الإسلام، فأصبحت وجهة حملاتهم، حتى تم طردهم من الشام نهائيًّا على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة (690 / 1291).

وبعضهم يرى غير ذلك، ولكنّ الأرجح أنّ هذه الحرب بدأت – بغض النظر عن تاريخ بدايتها - وهي لم تنته بعد؛ لأنّ النصارى يريدون إلغاء الإسلام بكلّ السبل الممكنة، وهم في كلّ حرب شنّوها على المسلمين كانت تُفتضح غايتهم، وفي كلّ نصر حققوه على المسلمين كانوا يُعلنون ذلك بوضوح، ومن ذلك: أنّهم عندما شنّوا سنة (1914/1332) الحرب على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، وأنزلوا جيوشهم في شبه جزيرة "غاليبولي"، وخاضوا حربًا استمرّت (261) يومًا في المعركة التي سمّاها المسلمون "جناق قلعة"، وسمّاها النصارى "الدّردنيل"، كانوا أعلموا قيصر روسيا أنّهم عندما يحتلون القسطنطينية (إستانبول) عاصمة دولة الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة، سيقدّمونها هديّة له مُقابل تعهده بعدم الانسحاب من الحرب العالميّة الأولى.

وبعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، وهزيمة الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، اقتسمّت بريطانيا وفرنسا ممتلكاتها، وتنكرتا لوعودهما للشريف حسين بن علي، شريف مكّة المكرّمة بمنح الولايات العربيّة الاستقلال، وتمكينه من إقامة دولة عربية واحدة يكون هو فيها الخليفة العربيّ للمسلمين. وعندما احتلت بريطانيا القدس أعلن الجنرال إدموند أللنبي:"الآن انتصرت الحرب الصليبيّة، وأصبحت القدس لنا أبديّة "[1]، كما أنّ الكنائس المسيحيّة كلّها؛ شرقيّة وغربيّة، وحتى الكنائس التابعة لألمانيا التي هُزمت في الحرب، قرعت أجراسها عند احتلال المدينة من الجيش البريطاني؛ فرحًا وابتهاجًا. قال واصف جوهرية-وكان شاهد عيان-: " وفي ذلك اليوم أذكرُ أنّ جميع الطوائف المسيحيّة، في كنائسها دقّت الأجراس، والنّواقيس ابتهالًا بهذه المناسبة السّعيدة، وأقامت الصّلوات في الكنائس"[2]. وأكّد ذلك محمد كرد علي، مشيرًا إلى أنّ الاحتفاء شمل حتى الكنائس الألمانية، قال: "وقيل: سقطت بيت المقدس ... في أيدي الفرنج بعد أن خرجوا منها في الحروب الصليبيّة منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة، وقُرعت أجراس الكنائس فرحًا بسقوط القدس، ومن جملتها الكنائس الألمانية؛ كأنّ ما

(1) نجيب الأحمد، فلسطين، ص126؛ وانظر: واصف جوهرية، القدس الانتدابية، ص280؛ عارف العارف، تاريخ القدس، ص136.
(2) واصف جوهرية، القدس الانتدابيّة، ص277.

خسرته ألمانيا سياسيًّا، فهذا السّقوط يُعزّيها بعودة الأرض المقدّسة دينيًّا إلى أيدي المسيحيين"[1].

وعندما احتل الجيش الفرنسي مدينة دمشق سنة (1920/1338)، توجّه قائد الجيش الفرنسي "هنري جوزيف غورو"(ت1944/1366) إلى قبر السلطان صلاح الدّين الأيوبي قرب المسجد الأمويّ، وقال بعدما ركله بقدمه: " ها قد عُدنا يا صلاح الدّين"[2]، وفي رواية: "قم يا صلاح الدّين، ها قد عُدنا".

وكان "غورو" حاقدًا على الإسلام، والمسلمين؛ إذ شارك في حروب كثيرة ضد المسلمين، كان من أهمها معركة "جناق قلعة" حيث كان قائد الجيش الرابع الفرنسي، فأصيب بشظيّة أفقدته ذراعه، وقد جاءته الشظية من المدفعية العثمانيّة الإسلاميّة، التي كان يقودها القائد العربيّ المسلم يوسف بك العظمة من ولاية سوريّا، وهو الذي قاد معركة ميسلون ضد جيش "غورو" واستشهد فيها. وكان أهل الشام يُعلّقون على "غورو"، فيقولون: "غورو نصفه خشبة".

وحديثًا أعلن أكثر من رئيس أوروبي وأمريكي عن أنّ ما يقوم به ضد هذا البلد العربيّ، أو الإسلاميّ أو ذاك إنّما هو حرب صليبية. وعندما سقط الاتحاد السوفياتي عام (1991/1412) اعتبر ذلك نهاية للحرب العالميّة الثالثة، على اعتبار أنّ الحرب التي كانت قائمة بين حلفي الأطلسيّ ووارسو، هي حرب باردة، وهي الحرب العالمية الثالثة، ونهايتها كانت لصالح حلف الأطلسي، وأنّ على الغرب الاستعداد لمواجهة الإسلام والمسلمين.

وقد أصرّ الغرب المسيحيّ على الإبقاء على حلف الأطلسيّ، وزيادة قوته لمواجهة ما أسماه الخطر الإسلاميّ، وأكد ذلك رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر، وغيرها. وعندما أعلن جورج بوش الأب الحرب على العراق قال في خطاب إعلان الحرب: إنّها حرب صليبية. وقال في لقاء له مع نبيل شعث عضو اللجنة المركزية لحركة فتح: إنّ المسيح يأتي إليه في النوم، ويقول له: افعل كذا.

كما أنّ "توني بلير" قال في لندن-عندما كان رئيسًا لوزراء بريطاني-إنّ الإسلام يشكل خطرًا على المجتمعات والدول الأوروبية، وعلى استقرار العالم كلّه؛ لذلك دعا أوروبا وأمريكا إلى حلّ مشاكلهم مع روسيا والصين للتفرّغ لمواجهة الإسلام.

---

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 146/3.
(2) انظر: جلال العالم، قادة الغرب، ص26.

وفي كل الأحوال فإنّ هذا الصدام كان يؤدي إلى تمازج بشكل، أو بآخر بين الحضارتين الإسلاميّة والمسيحيّة، وبين شعوبهما.

والمهم هو ما تكون عليه نتائج هذا التمازج، وآثاره، فالغرب أفاد من خسارته في نهاية الحروب الصليبيّة إفادة كبيرة، تمثّلت في ضرورة أن يَتْبعَ العمل العسكري عمل في مجالات الحياة كلّها، وبخاصة: الدّينيّ، والفكريّ، والتربويّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والسياسيّ؛ لأن ما يتمّ عمله في هذه المجالات يؤدي إلى تثبيت نتائج العمل العسكريّ من دون خسائر بشرية، أو مادية تُذكر.

تلك السياسة بدأ الغرب والاتحاد السوفياتي (ثم خليفته روسيا) بتطبيقها تدريجيًّا منذ بدأت الامتيازات الأجنبيّة، التي بدأها السلطان سليمان القانونيّ لأهل البندقية سنة (928 / 1521)، ثم تبعتها امتيازات أخرى حتى أصبحت قرحة في جسم الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، لا بل دخل الخنزير الأوروبيّ الخيمة العثمانيّة، وأخذ يتوالد حتى تكاد تضيق الخيمة بالخنازير[1]، وزادت وتيرتها قوة بعد الاحتلال الفرنسيّ لمصر وبعض الشام، فيما سُمّي "حملة نابليون بونابرت" على مصر، ثم في مرحلة الاحتلال الغربيّ العسكري للوطن العربيّ والإسلاميّ، الذي استمرّ حتى(العقد التاسع من القرن الرابع عشر الهجريّ/ السابع من القرن العشرين)، بحيث غادرت الجيوش الغربية كثيرًا من المواقع، كقوّات احتلال، وسلّمت صنائعها-غالبًا- في البلدان العربيّة والإسلاميّة مقاليد الحكم، فأخذوا يُغَرّبون المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، أو يجعلونها شيوعيّة، وكلّ ذلك بهدف مُحاربة الإسلام، ومنع إقامة خلافة إسلاميّة، أو أي رابطة، أو جامعة إسلامية يلتقي العرب والمسلمون في ظلّها لقاء حقيقيًّا لا اسميًّا، وتكون عامل وحدة، وصهر، وقوّة وعزّة للإسلام والمسلمين، لا عامل ضعف، وشقاق، ونزاع كما هو الحال في الجامعة العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلاميّ التي تحوّلت حديثا إلى منظمة التعاون الإسلاميّ.

إنّ ذلك بالضبط هو ما دعا إليه المبشّر صموئيل زويمر في مؤتمر المبشرين الذي عقد في جبل الزيتون بالقدس الشّريف سنة (1935/1354) برعاية الاحتلال البريطانيّ وتأييده، حيث قال مخاطبا مئات المبشّرين:" أيُّها الإخوان الأبطال والزملاء، ممّن كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحيّة واستعمارها لبلاد الإسلام، فأحاطتهم عناية الرّب بالتوفيق الجليل المقدس.

لقد أدّيتُم الرّسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء، ووُفّقتُم لها أسمى التوفيق، وإن كان يُخيّل إليّ أنّه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية

(1) علّق المستشرق فيليب حتّي على الامتيازات بقوله: "وبذلك دخل رأس الجمل الأوروبي الخيمة التركية". انظر: فيليب حتّي، تاريخ سوريا، 313/2.

الأساسيّة منه، إنّي أُقرّكم على أنّ الّذين أُدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحيّة، لم يكونوا مُسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قُلتم أحد ثلاثة – إمّا صغير لم يكُن له من أهله مَنْ يُعرّفه ما هو الإسلام، وإمّا رجل مُستخفٌّ بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته – وقد اشتدّ به الفقر وعزّت عليه لقمة العيش–، وإمّا آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشّخصيّة.

ولكن مُهمّة التبشير التي نَدَبتكُم دول المسيحيّة للقيام بها في البلاد المُحمّديّة، ليست هي إدخال المُسلمين في المسيحيّة، فإنّ هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنّما مُهمّتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام، لِيُصبحَ مَخلوقًا لا صِلة له بالله، وبالتالي لا صِلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماريّ في الممالك الإسلامية، وهذا ما قُمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أُهنئكم عليه، وتُهنئكم دول المسيحيّة والمسيحيون جميعًا من أجله كلّ التهنئة.

لقد قبضنا أيّها الإخوان في هذه الحقبة من الدّهر، من [النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجريّ] ثلث القرن التّاسع عشر إلى يومنا هذا [أي سنة 1935/1354] على جميع برامج التّعليم في الممالك الإسلاميّة المُستقلّة، أو التي تَخضع للنّفوذ المسيحيّ، أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا. ونشرنا في تلك الرُّبوع مكامن التبشير المسيحيّ، والكنائس، والجمعيات، وفي المدارس الكثيرة، التي تُهيمن عليها الدول الأوروبيّة والأمريكيّة، وفي مراكز كثيرة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولًا، وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلّها.

إنّكم أعْدَدْتُم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلاميّة إلى قبول السّير في الطريق الذي مَهّدتُم له كلّ التّمهيد [إخراج المسلم من الإسلام].

إنّكم أعْددتُم نشأً لا يعرف الصّلة بالله، ولا يُريد أن يعرفها، وأخرجتُم المسلم من الإسلام، ولم تُدخلوه في المسيحيّة، وبالتالي جاء النشء الإسلاميّ طبقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم، ويُحبُّ الرّاحة والكسل، فإذا تعلّم، فللشّهوات، وإذا جمع فللشّهوات، وإنْ تبوَّأ أسمى المراكز، ففي سبيل الشّهوات يَجود بكلّ شيء.

إنّ مُهمّتكم تتمُّ على أكمل الوجوه، وقد انتهيتُم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحيّة، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمرُّوا في أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الله"[1].

كان الأدب؛ شعرًا ونثرًا، من المجالات التي اهتمّ بها الغرب وروسيا في الوطن العربي، لِما له من أثر في تربية الأجيال الناشئة، ولذلك دعوا عبر المستشرقين، والمبشرين الذين عمل أغلبهم في التعليم بالوطن العربيّ، أو تعليم العرب في معاهد أُوروبا، وجامعاتها، فضلًا عن عمل بعضهم في تحقيق كتب التراث ونشرها، والتأليف في فروع اللغة والأدب العربيّ المختلفة -إلى ما أسموه التجديد، والتنوير، والنهضة (هو في الحقيقة تغريب) من خلال الاحتذاء بما هو قائم في الآداب الغربية والروسيّة.

وسار على أثر المستشرقين والمبشّرين كثير من تلاميذهم العرب، فسادت في الآداب واللغة العربية مناهج الغرب وروسيا، ومذاهبهم الأدبية والنقدية، واعتبروا أكثر ما أوجده العرب والمسلمون طوال تسعة قرون تقريبًا (من نهاية العصر العباسي الثالث مع بعض الاستثناءات وحتى احتلال نابليون مصر) انحطاطًا وجمودًا، وتخلُّفًا، وبالتالي لا قيمة له، بنما اعتبروا ما أبدعه بعض الشعراء والكتاب والمفكرين منذ الاحتلال الفرنسيّ لمصر في حملة نابليون: تقليدًا، واتباعًا، وإحياء، وبعثًا للأساليب الأدبية العربيّة في العصور الإسلاميّة قبل عصور الانحطاط والجمود، ثم سمّوه "كلاسيكيًّا" جريًا على التقليد الأعمى للغرب، وهي مُسمّيات لا شيء فيها من الحقيقة، فالأدب العربي واللغة العربية استطاعا أن يواكبا كلّ العصور بنجاح، فاللغة العربيّة مكّنت العربيّ من استخدامها في كلّ شؤونه عندما كان العربي أهلًا لها، وأنتج أدبًا لاقى إقبال أهل الأدب واللغة كلّهم؛ لأنّه عالج همومهم، وقضاياهم، واستشرف آفاق مستقبلهم.

أمّا وقد ابتعد الأدباء عن لغتهم، وأهلها، وراحوا يكتبون للكتابة (الفن للفن) وغيره من المذاهب الغربيّة والشرقيّة الغريبة عن اللغة العربيّة وأهلها، وثقافتهم، فقد حصل اغتراب في العلاقة بين المبدع والمتلقي، ويظهر ذلك الاغتراب لكلّ ذي عقل وبصيرة؛ فالأدباء في وطننا العربيّ اليوم كُثر، ونتاجهم ضخم، ولكنّ تأثيرهم وتأثيره في المجتمع قليل وقليل، وهذا من نتاج السير على خطى الغرب والشّرق في غير هدى وتميّز، وخصوصيّة، وابتعادهم عن مصادر الثقافة العربيّة الإسلاميّة.

---

(1) عبد الله التل، جذور البلاء، ص275. هذا نصُّ الخطاب الذي ألقاه صموئيل زويمر، رئيس جمعيات التبشير المسيحية، في مؤتمر التبشير المسيحيّ بالقدس الشريف، ودعا فيه المبشرين إلى إخراج المسلمين من الإسلام، وتركهم بلا دين، بل دينهم هو: شهواتهم.

الفصل الأول

عوامل نهضة الأدب العربيّ ومناقشتها.

أوّلًا : عوامل نهضة الأدب العربيّ(تغريبه).

ثانيًا : مناقشة بعض عوامل نهضة الأدب العربيّ.

الفصل الأول

عوامل نهضة الأدب العربيّ ومناقشتها.

أوّلًا: عوامل نهضة الأدب العربيّ (تغريبه).

يُطلق عصر النهضة على الحقبة المُمتدة من حملة "نابليون بونابورت" سنة(1798/1212) على مصر والشام حتى وقتنا الحاضر (أي سنة 2018/1439)، وذلك باعتبار أنّ الحقبة بعد العصر العباسي الثاني هي حقبة ظلام وفساد، وانحطاط وانحدار في كلّ شيء. وقد رأى كثير من دارسي الأدب العربيّ الحديث أنّ الأدب بدأ نهضته (سيره في ركاب الآداب الغربيّة والشرقيّة، وتقليده الأعمى لها) بتأثير عوامل عديدة، هي:

1- احتلال نابليون بونابرت مصر وبعض الشام ما بين (1212/1798 و1216/1801).

يرى كثير من دارسي الأدب العربيّ الحديث أن حملة نابليون(احتلال) بذرت في مصر بذور النهضة الأوروبيّة، من خلال ما جلبته معها من مظاهر تلك الحضارة "فأنشأت مدرستين، وجريدتين، ومسرحًا للتمثيل، ومجمعًا علميًّا، ومكتبة، ومطبعة، كما أنشأت معامل كيميائية، ومراصد فلكيّة، وغير ذلك من وسائل النهضة العلميّة"[1].

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص14.

2- الإرساليات التبشيريّة المسيحيّة

مكّنت التنظيمات العثمانيّة التي أصدرها السلاطين العثمانيون بضغوط عدد من الدول الأوروبيّة وروسيا القيصريّة، تلك الدول من غزو ولايات الدولة العثمانيّة الإسلاميّة بعامة، والعربيّة منها بخاصة ثقافيًّا ودينيًّا-تمهيدًا للغزو العسكريّ- وذلك عبر ما سُمي الإرساليات التبشيريّة المسيحيّة الكاثوليكيّة، واليسوعيّة، والبروتستانتيّة، والأمريكيّة، والروسيّة التي غزت بلاد الشام، وتنافست فيما بينها على إنشاء المدارس، والمعاهد، والجامعات، والأديرة، والكنائس من أجل نشر مذاهبها الدينية، ولغات وثقافة البلدان التي تتبعها، وتوفّر لها المال اللازم لعملها. وقد كان مدراء تلك المؤسسات، وأكثر العاملين فيها، وبخاصة المدرّسين من بلدان تلك المؤسّسات. وهم الذين تُوكل لهم مهمة اختيار الطلبة الذين يتم ابتعاثهم لإكمال دراساتهم في معاهد وجامعات بلدان تلك الإرساليات، ووفق قواعد وأُسس هم يُحدّدونها.

3- انتشار المطابع، وكثرة الصحف والمجلات

أدى انتشار المطابع في مصر وبلاد الشام إلى تأسيس كثير من الصحف والمجلات-وذلك حسب كثير من دارسي الأدب العربيّ الحديث-كما أدّت المطابع إلى كثرة المطبوعات الأدبية من التراث العربيّ الإسلاميّ، ومن الأدب الغربي المترجم، فزاد اطّلاع الأدباء على صنوف الأدب العربيّ، والغربيّ، كما أنّ الأدباء وجدوا مكانًا؛ في الصحف والمجلّات لنشر نتاجهم، وفي المطابع لطباعة كتبهم ومؤلفاتهم، ونشرها؛ فزاد تلاقح أفكارهم، ما أسهم في زياد التعليم والوعي، وبالتالي أسهم في نهضة الأدب العربيّ وغيره من ألوان الثقافة.

4- ظهور بعض المصلحين في الوطن العربي:

ظهر عدد ممّن أطلق عليهم لقب مصلح ديني واجتماعي في الولايات العربية-وذلك تقليدًا لما كان قائمًا في الغرب-ومنهم: جمال الدّين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمدّ عبد الوهاب، وغيرهم ممّن دعا إلى إجراء إصلاحات في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، ونظام الحكم، وغيرها من القضايا التي تهمّ المواطن العربي والمسلم، فكان ذلك عاملًا من عوامل النهضة.

5- عودة كثير من الطلبة المبتعثين في أوروبا وروسيا القيصريّة

لجأت كثير من الإرساليات والمدارس المسيحيّة إلى اختيار بعض الطلبة الدّارسين فيها، وابتعاثهم لإكمال دراساتهم في المعاهد والجامعات التي تختارها

بهدف اكسابهم ثقافة تلك البلدان، ومذاهبها في الحياة، وقد فعل نابليون الفعل نفسه، وكان هدفه اكثر وضوحا في الرسالة التي أرسلها إلى نائبه في مصر "كليبر" ، ولمّا جاء محمد علي باشا لحكم مصر فعل الشيء نفسه ولكن بهدف الرّقي بمصر، والسير بها في طريق نهضة شاملة لكن الغرب وقف عائقًا أمام نقل كثير من العلوم إلى الطلبة الذين ابتعثهم محمد علي، ومَنْ خلفه في الحكم، فظهر تنافس بين الدّول الغربية والجهات العربية حول ما يجب أن يكون عليه المبتعثون، وقد عاد عدد كبير من الطلبة المبتعثين إلى بلدانهم في الوطن العربي، وبخاصة بلاد الشام، والعراق، ومصر. وقد حمل أكثرهم ثقافة البلد الذي درس فيه، وفكره، وأنماط حياته الاجتماعيّة، كما قاموا بترجمة كثير من نماذج الأدب في البلدان التي عادوا منها، فكانوا رسلًا للبلدان التي تعلّموا بها، أكثر ممّا كانوا روافع للثّقافة والفكر في أوطانهم، وكانت ترجماتهم سببًا مُباشرًا في ظهور حركات الشعر العربيّ سواء أكان ذلك في المضمون أم الشكل.

6- هجرة عدد من المثقفين النصارى الشاميين إلى مصر

أسهم الوضع الخاص الذي كانت تعيشه مصر تحت حكم سلالة محمد علي باشا، ثم قيام بريطانيا باحتلالها عام(1882/1299)، في هجرة عدد غير قليل من نصارى بلاد الشام بعامة، ولبنان بخاصة -الذين تعلّموا في أوروبا أو روسيا، أو في المدارس والمعاهد التي أقامتها الإرساليات التبشيرية -إلى مصر، حيث أسهموا في تسريع حركة النهضة فيها، وأصبحت مصر ملجأ لكثير ممّن عارضوا الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة؛ فشاركوا في النهضة الأدبيّة والفكريّة من خلال الكتابة في الصحف والمجلّات التي كانت تصل إلى بلدانهم، وإن كان ذلك بشكل محدود، فأسهمت بدورها في تفعيل النهضة في باقي البلاد العربيّة.

7- مُبادرة الدولة العثمانيّة الإسلاميّة إلى تطوير الولايات العربيّة

بادرت الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إلى على تطوير الولايات العربيّة، فأدخلت المطابع، وأقامت المدارس، والمعاهد العالية، وأنشأت الصحف والمجلّات، ونشرت كثيرًا من المؤلّفات الأدبية، والإسلامية التراثية ما أدى إلى تسهيل اطّلاع العامة من العرب والمسلمين على تراثهم العربيّ والاسلاميّ، ممّا جعلهم يفخرون بتراثهم، ويتّصلون به، فيعيدونه حيًّا في الأجيال الناشئة.

ذلك ما تعلّمناه، وما يتعلّمه أكثر طلبة العلم في العالمين العربيّ والإسلاميّ منذ أكثر من قرن من الزمان، وما زال أكثر طلبة العلم يتعلّمونه على مقاعد الدّراسة

حتى يومنا هذا (2018/1439)، فيما الحقيقة غير ذلك تمامًا. وهذه الحقيقة لا بدَّ من إظهارها، لعلّ في ذلك تنبيه للباحثين عن الحقيقة من دارسي الأدب العربيّ الحديث؛ فيعيدون النّظر فيما تعلّموه، ويعلّمونه لطلبتهم، ويبدأون بدراسة الأدب في الحقبة المسمّاة "عصر الانحطاط والانحدار" دراسة موضوعيّة، ومن مصادره العربيّة والإسلاميّة؛ المطبوعة والمخطوطة على حدٍّ سواء.

ثانيًا: مناقشة بعض عوامل نهضة الأدب العربيّ(تغريبه).

العوامل السابقة للنهضة الأدبيّة، والعلميّة في الوطن العربيّ، والستة الأولى منها بخاصة، اعتاد أكثر دارسي الأدب والتاريخ العربي، على التسليم بها، والتفاخر بآثارها الايجابيّة على مظاهر الحياة العربيّة في كلّ المجالات، لكن من دون التفكير في ماهية النهضة التي حصلت، وطبيعتها؛ فبعد أكثر من قرن من الزمن لا أرى أنّنا نعيش أيّة نهضة، فقد جرّبنا كلّ شيء من أجل الوحدة، ونظام حكم عادل، يضمن الحرية، والمساواة، وحقوق الإنسان، ولم نُفلح في ذلك لأنّنا بقينا تبعًا لغيرنا، يستخدمنا المستعمر لمحاربة ذاتنا في كلّ شيء، وهو ما زال يُصنّفنا كما يشاء، وأفضل صفة يصفنا بها هي" الدول النامية" فيما هو يقصد ضدّ تلك الصفة، ويُعاملنا على ذلك الأساس.

أما العامل الأخير من عوامل النهضة فلا أحد يذكره، مع أنّه كان هو البداية للنهضة، فلمّا انتهت الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، فقدنا كلّ شيء؛ فقدنا خصوصيتنا كأمّة عربيّة إسلاميّة، خير أُمّة أُخرجت للناس، وصرنا-غالبًا- كما رسم لنا المخطط المبشر صموئيل زويمر. وعليه رأيت من الضروري توضيح عوامل النهضة تلك للناشئة، لعلّهم يستفيدون، ويبحثون عن العوامل الحقيقية لنهضة أيّة أمّة من الأمم، ومنها أمّتنا العربيّة الإسلاميّة، وذلك على النحو الآتي:

1- حملة نابليون

إنّ ما أشاعه أكثر دارسي الأدب العربيّ حول حملة نابليون، وأثرها الايجابيّ في المجالات: الثقافيّ، والعلميّ، والاجتماعيّ، والسياسيّ، واعتبارها بداية النهضة العربيّة في مجالات الحياة كلّها، لا يقف أمام الحقائق التي ذكرها أهم معاصري تلك الحملة، وشاهد العيان على مجرياتها، وهو الأديب والمؤرّخ المصريّ العربيّ المسلم، عبد الرحمن الجبرتي (ت 1241/ 1825)، ذلك أنّ هؤلاء الذين أشادوا بالحملة، اعتمدوا أقوال المستشرقين وتلاميذهم، ولم يتحرّوا الحقيقة الماثلة في مؤلفات "الجبرتي"، وبخاصة كتابيه "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس"، و"عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، وبذلك شوّشوا عقول أجيال القرن الماضي،

وأضـلّوهم الطريـق المسـتقيم، ومـا زالـت مؤلفـاتهم تفعـل فعلهـا، ويتناقلهـا الكتـاب والمعلّمـون، وأسـاتذة الجامعـات فـي مؤلفـاتهم، ومنـاهج التعلـيم التـي يشـتركون فـي وضعها على أنّها حقائق، وهي ليست كذلك. وقد قال ربّ العزّة في محكم التنزيل ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[1]. وعليـه أُورد هـذه التعليقـات المسـتندة إلـى الحقـائق التاريخيّـة الثابتـة التـي لا يمكن إلغاؤها مهمـا حـاول المضـلّلون والمشوّشون وغيرهم فعل ذلك.

حملـة نـابليون لـم تكـن لبنًـا وعسـلًا علـى أهـل مصـر وأرضـهم، وثقـافتهم، وعقيـدتهم، ومقدّسـاتهم، بـل كانـت مـن أبشـع أنـواع الاسـتعمار، الـذي حـاول نـابليون تجميل صـورته القبيحـة بالكذب الصّريح الهـادف إلـى الخداع والتضـليل. وذلك علـى الرّغم من أنّ هذه الحملة التدميريّـة تمّت بعد تسـع سنوات فقط من الثورة الفرنسيّة، التي ألغت عهدًا، وفتحت عهدًا جديدًا في فرنسا، ادّعت أنّـه يقوم علـى ثلاثـة مبـادئ هـي: الحريـة، والمسـاواة، والإخـاء. وإعـلان حقوق الإنسـان والمـواطن، وبعد اثنتين وثلاثين سنة قامت بأبشع احتلال في العالم الحديث، حين احتلت الجزائر، وحاولت طوال أكثر من قرن وثلث القرن فرنستها.

الاحتلال الفرنسي لمصر سنة (1798/1212) باختصار شديد خلّفَ أكثر من (300) ألـف شـهيد مسـلم مصـريّ، عنـدما كـان عـدد سـكان مصـر لا يزيـد عـن (2،460000) مليونين وأربعمائـة وستين ألـف مـواطن، ونهـب ثـروات مصـر، فـأفقر الشـعب المصـري بالضـرائب والمصـادرات الظالمـة، وسـرق كثيـرًا مـن المكتبـات والآثار المصرية التي لم تُحص بعد، ومـا زالـت موجودة فـي متـاحف فرنسـا، وأفسد الحياة الاجتماعيّة، والدينيّة في مصر من خلال إثـارة الأقليّـة المسيحيّة، ودفعهـا إلـى ارتكـاب الجـرائم بحـق المسـلمين، ودمّـر كثيـرًا مـن المسـاجد، ودَنّـس أخـرى، وشـكّل جماعات من العملاء له في مصر وغيرها عبر البعثـات الثقافيـة، والزيـارات المجانيّـة لفرنسا، ودعا إلى إقامـة وطـن قومي لليهود فـي فلسطين قبل قرن من عقد المؤتمر الصـهيونيّ في مدينـة "بازل" بسويسرا، وأجهض الحركة العلميّة الإسلاميّة في مصر، وغيرها كثير، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

أ. استخدام الدواوين لتنفيذ أوامر الاحتلال، وتمكينه من مصر

روّج المستشرقون وتلاميذهم للاحتلال الفرنسيّ بما ادّعوه له من آثار إيجابية فـي الحيـاة السياسـية بمصـر، مـن خـلال إنشـاء الـدوّاوين، وبخاصـة ديـوان الحكـم (البرلمان)، وديوان القضاء، والديوان الخصوصي والدائم، وديوان الحرف وغيرها.

(1) يونس، 26/10.

الحقيقة أنّ نابليون، وقادة جيوشه كانوا يُغيّرون أسماء الدواوين وأعضاءها وفق حاجتهم، بل إنّ نابليون أبطل ديوانه الأول بعد شهرين من إنشائه. وقد أكّد ذلك عبد الرحمن الجبرتي، الذي عيّنه قائد الحملة الأخير عبد الله جاك منوا عضوًا في ديوان الحكم (البرلمان) [1]، فقال إنّ هذه الدّواوين كانت تُعقد بأمر من قادة جيش الاحتلال الفرنسي، فكلّما أرادوا إصدار أمر لصالح تثبيت الاحتلال من خلال تنفيذ أوامره العسكرية يتمّ الدّعوة لعقدها، كما أنّ رئيس كلّ ديوان كان باستمرار فرنسيًّا، والأغلبية فيها كانت للنصارى، ما جعل هؤلاء يتطاولون على المسلمين، ويعملون ما بوسعهم من أجل إذلالهم بحماية الاحتلال الفرنسيّ. وكان أعضاء الدّواوين يستندون في أحكامهم، وقوانينهم إلى قوانين فرنسا الكافرة، والخارجة عن قواعد الأحكام الشرعيّة الإسلاميّة، ومن ذلك:

1- في يوم الخميس (الثالث عشر من صفر سنة 1213الموافق 26/7/ 1798) شكّل نابليون ديوان الحكم (البرلمان)، وعيّن أعضاءه من المشايخ الذين كان يعرف أنّه من دونهم لن يتمكن من تثبيت سلطته، لذلك تقرّب منهم، لكنّه لمّا وجد أنّهم لن يُساعدوه على شعبهم أهانهم، وسجنهم، وأخذ بعضهم رهائن لمدد محدّدة، وفي إحدى المرات أُهين كبار أعيان مصر وعلمائها بأن تمّ احتجازهم في مقرّ الحاكم الفرنسيّ حتى بال بعضهم على نفسه، أو من شبابيك المقرّ، وكان نابليون جعل من أُسس تعيين أعضاء الدّيوان: حسن استقبال جيش الاحتلال[2].

2- كان من أهم القضايا المُناطة بالدّيوان، هو الاجتماعات من أجل تنفيذ قوانين الاحتلال، وأهمها فرض الضرائب، ومحاولة ترويض الشعب المصريّ، وتضليل السلطان العثمانيّ، والمسلمين في البلدان المجاورة، وبخاصة بلاد الحجاز التي تضمّ أقدس المقدسات الإسلاميّة في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.

قال الجبرتي: "وفيه [شهر ربيع الثاني سنة1213 الموافق لشهر أيلول 1798] شرعوا في ترتيب ديوان آخر، وسمّوه محكمة القضايا، وكتبوا في شأن ذلك طومارًا[3]، وشرطوا فيه شروطًا بألفاظ يَعافُها الطبع، ويمجُّها السّمع، ورتّبوا به ستة من القبط، وستة من تجار المسلمين، وقاضيه الكبير "ملطي القبطي" ... وفوّضوا إليه القضايا في أُمور التجار والعامة، والمواريث

(1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص233.
(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص84، 87، 102-103، 112-113، 132 وغيرها كثير.
(3) الطومار: الصحيفة. اللسان: مادة طمر.

والدّعاوى، وجعلوا لذلك الدّيوان قواعد من الخبث، وأساسًا من الكفر، ودعائم من الظلم، وأركانًا من البدع السيئة ... مُحصّلها التّحيُّل على سلب أموال الناس، ونزع ما بأيديهم من: مال، وعقار، وميراث، وغير ذلك"[1].

3- كان الفرنسيون يمنعون الناس من الحديث في شؤون جيش الاحتلال الفرنسيّ، أو السخرية منه، أو الحديث في العلاقة مع الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، وبريطانيا تحت طائلة العقوبة بقطع اللسان، أو دفع غرامة مالية عالية. وكثيرًا ما كانت الشرطة تُنادي في الأسواق بحظر بذلك، كما بثّ الفرنسيون الجواسيس بين العامة لنقل الأخبار لهم؛ وذلك باعتبار السياسة وشؤونها من الأمور التي لا يحقّ للمصريين الحديث فيها.

ومن ذلك أنّه عندما حصل اشتباك مسلح بين سفن فرنسيّه وبريطانيّة في الإسكندرية في (شهر ربيع الأول سنة 1213 الموافق لشهر آب 1798)، وتحدّث الناس في الخبر، قال الجبرتي: "واتفقوا أنّ بعض النصارى نقل عن رجل شريف يُقال له السيّد أحمد الزرو– من تجار وكالة الصّابون بخط الجمالية -أنّه تحدّث بذلك، فأمروا بإحضاره، وذكروا له ذلك، فأنكر، وقال: إنّني سمعت من فلان نصرانيّ، فأحضروه– أيضًا-وأمروا بقطع لسان الإثنين، أو يدفع كلّ واحد مائة ريال فرانسه... فانكفَّ النّاس عن التكلّم في شأن ذلك"[2].

وفي شهر ربيع الثاني الموافق لشهر أيلول من السنة ذاتها، لمّا عاد الناس للحديث في السياسة، والهزء من جنود الاحتلال، قامت الشرطة بتحذير الناس، قال: "وفيه نادى أصحاب الدّرك على العامة بترك الفضول والكلام في أمور الدّولة، وإذا مرّ عليهم جماعة من العسكر مجروحين، أو مُنهزمين لا يصرخون بهم، ولا يُصفّقون عليهم كما هي عادتهم"[3].

وكذلك فعلت الشرطة في (شهر شوّال من السنة ذاتها الموافق لشهر آذار 1799)، قال: "شقّ جماعة من أتباع الشرطة في الأسواق، والحمّامات، والقهاوي، ونبّهوا على النّاس بترك الفضول، والكلام، والتّلفظ في حقّ الفرنسيس، ويقولون لهم: مَنْ كان يؤمن بالله وبرسوله، [صلّى الله عليه وسلّم]، فلينته، ويترك الكلام في ذلك، فإنّ ذلك ممّا يُهيّج العداوة، وعرّفوهم

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص102-103.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص93.
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص104.

أنّه إن بلغ الحاكم من المتجسِّسين عن أحد تكلّم في ذلك عُوقب أو قُتل، فلم ينتهوا، وربّما قَبضوا على البعض، وعاقبوه بالضرب والتغريم"[1].

4- كان الفرنسيون يُجبرون المشايخ المسلمين في الدّيوان على كتابة رسائل تضليل إلى: السلطان العثمانيّ، وشريف مكّة المكرّمة، وعامة أهل مصر مُفادها أنّ الفرنسيين يُؤيدون السّلطان، ويقيمون شعائر الإسلام، وأنّهم مسلمون، ويحترمون القرآن، والنبي محمد، صلّى الله عليه وسلّم. قال: "وفيه [شهر ربيع الثاني سنة1213 الموافق لشهر أيلول1798] كتبوا من المشايخ كتابًا ليرسلوه إلى السلطان، وآخر إلى شريف مكّة، ثم إنّهم بصموا منه عدّة نسخ، ورموه بالطّرق والأزقة، وصورته ملخّصًا بعد الصدر [المقدّمة]... وذكر فيه أنّه من أخصّاء السّلطان وأعداء أعدائه، وأنّ السّكّة [النقود]، والخطبة باسمه، وشعائر الإسلام مُقامة على ما هي عليه. وباقي الكلام المُموّه الذي ذكروه بمعنى الكلام السابق من كذبهم، وقولهم إنّهم مسلمون، ويحترمون النّبيّ، والقرآن، وإنّهم أوصلوا الحجّاج المشتّتين، وأكرموهم، وأركبوا الماشي، وأطعموا الجائع، وسقوا العطشان، وأنفقوا أموالًا برسم الصدقة على الفقراء"[2].

ب. إثارة الفتنة الدّينية في مصر

أثارت حملة نابليون الفتنة الدينيّة والعرقيّة بين النصارى والمسلمين في مصر والشرق العربي، بتخطيط حاقد من نابليون نفسه، وما زالت الفتنة ثائرة حتى يومنا هذا (1439 / 2018)، تخبو حينًا، وتنشط حينًا، وتشتدُّ فتعصف بالمنطقة حينا آخر، كما هو الحال في المشرق الإسلاميّ، منذ أكثر من خمسة عشرة عامًا، وذلك بتحريض مباشر وغير مباشر من الدول المسيحيّة؛ الغربية والشرقية.

لقد أعلن "نابليون" وهو في طريقه لاحتلال مصر نيّته تشكيل جيش عميل من الأقليات في الشرق، مكوّن من عشرين ألف جندي؛ ليكون قبضته الضاربة، ومواطئ أقدام للاحتلال الفرنسيّ، وما أن وصل مصر حتى بدأ تنفيذ مخطّطه، فاستعان بأراذل النصارى من: القبط، والروّم، والشام، ومنحهم صلاحيات الفتك بالمسلمين، ومصادرة ممتلكاتهم، وتدنيس مقدّساتهم وهدمها، فنقض هؤلاء الأراذل عهد ذمتهم مع المسلمين، وعاثوا فسادًا في مصر وغيرها، وقد منح الفرنسيون عددًا من النّصارى صلاحيات مكّنتهم من الإفساد في الأرض، ومنهم:

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص153.
(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص106، 125-126.

1- في شهر (صفر سنة1213الموافق لشهر تموز1798) منحوا المدعو "برطلمين"-الذي سمّته عامة أهل مصر باسم "فرط الرّمان" لتسهيل نطق اسمه-منصب نائب محافظ القاهرة، فيما كان هو من عامة الناس، فجعل نفسه من كبار القوم، وأفسد إفسادًا لا يصدقه عقل، فشكّل فرقة عسكرية لحمايته، وتنفيذ أوامره، وطرائقه الجهنّميّة لجمع الضرائب والأموال وفق هواه. وفرقة ثانية للتجسّس على الناس، فكان يعتقل، ويصادر، ويُعذّب، ويسجن، ويقتل، لمصالحه ومصالح الفرنسيين.

قال الجبرتي: " وفيه[1] قلّدوا برطلمين العسكريّ النّصرانيّ الروميّ - وهو الذي تسميه العامة فَرْط الرّمان - جعلوه كتخدا مستحفظان[2]، والمذكور من أسافل النصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر، وكان طوبجيًّا[3] عند محمد بيك الألفي، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة، فلما قلّدوه المنصب، نزل بموكب من بيت بونابارته، وأمامه عدَّة وافرة من طوائف الأجناد البطّالين مُشاة بين يديه، وعلى رأسه خشيشة من الحرير، ولابس فروة، وبين يديه الخدم بالحراب المفضّضة. وسكن اللعين المذكور ببيت يحيى الكاشف الكبير[4]، بحارة عابدين، واحتوى عليه بما فيه من الفرش والمتاع والجواري وغير ذلك"[5].

وقال الجبرتي يصف جواسيس فرط الرّمان: "وانتدب برطلمين الكافر العسَ، على مَنْ حمل السلاح واختلس، وبَثّ أعوانه في الجهات يتجسّسون في الطرقات، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم، فيحكم فيهم بمراده، ويعمل برأيه واجتهاده، ويأخذ منهم الكثير، ويركب في موكبه ويسير، وهم موثوقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنّكال، فَيُودعونهم في السجونات ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقرّرونهم بالعقاب والضرب، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب، ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم أيضًا القبض"[6].

---

(1) أي في (شهر صفر سنة 1213 الموافق لشهر تموز 1798).
(2) كتخدا: نائب، أو قائم بالأعمال. مستحفظان: محافظ، أي نائب محافظ القاهرة. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص188، 208.
(3) الطوبجي:عامل المدفع. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص148.
(4) كان يحيى الكاشف من أمراء مصر، وصاحب ذوق وعلم، فبنى هذا القصر وبه مكتبة ورسومات لكنه لم يتمتع به، (ت 1215/1800). انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص85، حاشية (3).
(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص85-86.
(6) الجبرتي، مظهر التقديس، ص119.

2- عيّن نابليون المدعو يعقوب القبطي -وقد لقبّه الجبرتي باللعين، فعُرف في مصر ب "يعقوب اللعين"-قائدًا لفيلق قبطي، شكّله بمعرفته، وضمّ ألفي جندي قبطي، ودبّر أمور الحملة الفرنسيّة على صعيد مصر، التي قادها الجنرال الفرنسي "ديزيه"، فعاث في الصعيد فسادًا، وتدرّج في الرُّتب العسكرية، فمنحه " كليبر" نائب نابليون رتبة كولونيل. ومنحه عبد الله جاك منوا خليفة " كليبر" رتبة جنرال. وكان قراره القول الفصل عند الفرنسيين، حتى منحه"كليبر" حرّية التصرّف بالمسلمين في مصر يفعل بهم ما يشاء، وبناء عليه عمل لنفسه ديوانًا في بيت عائلة البارودي، عُرف بالديوان الكبير، فأوقع بأهل مصر مصيبة لم يعرفوا لها مثيلًا من قبل، ثم شكل جيشًا خاصًا به، وبنى لنفسه في القاهرة على أنقاض بيوت المسلمين ومساجدهم قلعة لها أسوار، وعليها حراسة[1].

قال الجبرتي: "وفي خامس عشره [أي شهر ربيع الأول سنة1213الموافق لشهر أيلول1798] سافر عدّة من الإفرنج إلى جهة الصعيد، وعليهم صاري عسكر المتولي على الصعيد اسمه دزه[2] وبصحبتهم يعقوب القبطي[3] ليدبّر لهم الأمور، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع، ويُطلعهم على الخبايا، ويصنع لهم الحيل، فمنها: أنّه كان يُرسل الجماعة من الإفرنج لقبض الأموال، وطلب الكُلف، ويُلبس البعض منهم لبس العثمنلي[4]، ويكتب لهم التحذير من المخالفة، ويذكر لهم أنّ هذا أمر سلطانيّ، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد، ويمتثلون الأوامر"[5].

وقال الجبرتي يذكر تفويض "كليبر" نائب نابليون ليعقوب اللعين أمر المسلمين بعد أن ذكر مكانته عنده: "وفوّض أمر ذلك ليعقوب القبطي يفعل في

---

(1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص94-95، 210-213، 251، وغيرها.

(2) دزه: اسمه بالفرنسية "ديزيه" وهو قائد الجيش الفرنسي الذي احتل صعيد مصر. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص94، حاشية (4).

(3) يعقوب القبطي هو: يعقوب حنا القبطي، عاش ما بين (1158/ 1745و1216/1801) عميل الاحتلال الفرنسي، الذي منحه حق التصرّف بالمسلمين في مصر، فعاث فسادًا فيهم وفي مصر، حتى ضرب المثل بعمالته فقيل: "تلميذ المعلم يعقوب". وقد ألف فيه أحمد حسين الصاوي كتابا بعنوان "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة"، ط2، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة، 2009. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص94، حاشية (5)، وكتاب الصاوي ففيه ما يكفي.

(4) العثمنلي أو العثملي: هم جنود دولة الخلافة العثمانية الإسلاميّة. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 95، حاشية (1).

(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص94-95.

المسلمين ما يشاء"[1]. وتحدّث عن ديوان يعقوب القبطي اللعين فقال: "ثمَّ إنّ يعقوب اللعين عمل ديوانًا لخاصة نفسه، ورتّبه ببيت البارودي، وأحضر المباشرين، ومشايخ الحرف والأخطاط [الأحياء]، وكتب القوائم، وقرّر على الأماكن والعقارات، والأوقاف أُجرة سنة. وألزم كلّ كبير في خطّه بتحصيل ما تقرّر على جهته، وأعطوهم عسكرًا من الفرنسيس يستعينون بهم في التحصيل، وعمل كلّ كبير في جهة له ديوانًا، واجتمع عنده كتبة مختصة به: قبطة، ومسلمون، وأعوان، وبعض من عسكر الفرنسيس، فطلبوا من الناس ضعف ما قرّره يعقوب ليكتسبوه لأنفسهم، وبثّوا أعوانهم من القوّاسة، وعسكر الفرنسيس"[2].

3- كان النصارى في مصر ثلاثة أقسام هي: القبط، والروم، وأهل الشام. وهؤلاء – في أغلبهم-أظهروا فرحًا وسرورًا بالاحتلال الفرنسي، وشاركوا الفرنسيين أعيادهم، وأعمالهم، وفجورهم، فمنحهم الفرنسيون مناصب كثيرة في جيش الاحتلال، والوظائف المدنية، وقلبوا ظهر المجنّ للمسلمين، فباعوا الخمور، وعملوا جواسيس، ووشاة، وسرقوا وهدموا، وقتلوا وعذّبوا، واعتقلوا، وجاهروا بالمنكرات، وارتكاب الفواحش، ودنّسوا مقدّسات المسلمين، وبخاصة مشهد الإمام الحسين، والجامع الأزهر، وتطاولوا على المسلمين والإسلام، واستولوا على نظارة الأوقاف، فقطعوا رواتب فئات كثيرة من المسلمين، ومن ذلك:

أ. في نهاية سنة (1214 / 1799) بدأ الاحتلال الفرنسي بحملة إفساد، ونهب، وسلب، وتدمير في بلدات مصر، وقراها خارج القاهرة، وقد تولّى النصارى القبط مهمة إرشاد جنود الاحتلال إلى مُبتغاهم، وبخاصة أنهم تسلّموا المناصب المهمة، وتقاسموا أقاليم مصر، والتزموا جمع الأموال من المسلمين، وجعل كلّ واحد منهم من نفسه أميرًا، قال الجبرتي: "وكلُّ ذلك بإرشاد النصارى القبطة؛ لأنّهم هم الذين تقلّدوا المناصب الجليلة، وتقاسموا الأقاليم، والتزموا لهم بجمع الأموال، ونزل كلّ كبير منهم إلى إقليم، وأقام أبهة نفسه، وتمثّل في صورة أمير كبير، ومعه عدّة من العساكر الفرنساوية، وصحبته: الكتبة، والصيارف، والأتباع، والأجناد من الغز البطّالة، وغيرهم. والخيام، والخدم، والفرّاشون، والطباخون، والحُجّاب. وتُقاد بين يديه البغال والخيل المسوّمة، والمقدّمون وبأيديهم الحراب المفضّضة والمذهّبة، والأسلحة الكاملة. ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوفين من القبط – أيضًا- بمنزلة الكشاف، ومعهم العسكر من

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص210.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص210.

الفرنسيس والطوائف، والجاويشيّة[1]، والصيارف، والمقدّمون على الشّرح المارِّ، فينزلون على البلاد والقرى، ويطلبون المال والكُلف الشاقة بالعسف، ويضربون لهم أجلًا بالساعات، فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حلَّ بهم ما حلَّ من: الحرق، والنّهب، والسّلب، والسبي، وخصوصًا إذا فرّ مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم، وإلّا قبضوا عليهم، وضربوهم بالمقارع والكسّارات على مفاصلهم وركبهم، وسحبوهم معهم في الحبال، وأذاقوهم العذاب والنكال، وخاف الباقون فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل[2] والرشوات. وانضم إليهم الأسافل من القبط والأراذل من المنافقين، وتقرّبوا إليهم بما يستميلون به قلوبهم، وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم، وأجهدوا أنفسهم في التّشفي من بعضهم، وما يُوجبه الحقد، والتّحاسد الكامن في قلوبهم"[3].

ب. إشهار بيع الخمور، قال الجبرتيّ:" وفتح نصارى الأروام عدّة دكاكين لبيع المسكرات، وعدّة خمامير [حانات، أماكن بيع الخمور]، وقهاوي، وطافت جماعة من النّصارى تبيع العرق كسُقاة الماء، وصاروا يُنادون فيه بالأسواق بلغتهم، وفَحُشَ ذلك جدًّا"[4].

ج. في يوم السبت (الحادي عشر من ربيع الثاني سنة 1213الموافق لشهر أيلول 1798) أقام الفرنسيون احتفالًا كبيرًا دعوا إليه المشايخ وأعيان المسلمين، ونصارى القبط، والشّوام، وكان الاحتفال في بيت نابليون بونابرت، فتطاول النّصارى على المسلمين، قال الجبرتي: "ولبس النّصارى من القبط والشّوام ملابس الافتخار، وتعمّموا بعمائم كشمير، وركبوا بغال القاهرة، وأظهروا البُشرى، والسّرور في ذلك اليوم إلى الغابة"[5].

د. شكوى بعض فئات المسلمين قطع رواتبهم؛ لأنّ النصارى استولوا على نظارة الأوقاف، قال: "فإنّ جميع الأوقاف تعطّل إيرادها، وانقطع راتبها،

(1) الجاويش: الضابط. انظر: حسين المصري، معجم الدولة، ص44.
(2) البرطيل: الرشوة. انظر: إبراهيم مصطفى، معجم الوسيط، 118/1.
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص218-219.
(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص78.
(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص101.

واستولى على نظارة الأوقاف النصارى القبط والشوام، وجعلوا ذلك مغنمًا لهم"[1].

ه. في شهر(شعبان سنة1214 الموافق لشهر كانون الأول 1800) تطاول على المسلمين والإسلام حتى أراذل النصارى وأسافلهم، قال الجبرتي: "ومنها ترقُّع أسافل النصارى من: القبط، والشوام، والأورام، واليهود، وركوبهم الخيول، وتقلّدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيسن، ومشيهم بالخيل، وتلفظهم بفاحش القول، واستذلالهم للمسلمين، وعدم اعتبارهم للدّين إلى غير ذلك ممّا لا يُحيط به الحساب، ولا يُسَطّر في كتاب، كلُّ ذلك جزاء ما كسبت أيديهم، وما (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)[2]، والحالُ الحالُّ، والمركوز في الطبع مازال، والبعض استهوته الشياطين ومَرَقَ – والعياذ بالله - من خلل الدّين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم"[3].

و. عندما بدأ نابليون يستعدُّ للخروج من مصر إلى بلاد الشام لاحتلالها، أرسل بعض النّصارى-يوم الثلاثاء (السابع من شهر رمضان سنة 1213 الموافق 1799/2/11)-للتّجسس على المسلمين، قال الجبرتي: "انتدب للنّميمة ثلاثة من النصارى، وعرّفوهم أنّ المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس في يوم الخميس تاسعه، فأرسل قائمقام خلف المهدي، والأغا، فأحضروهم، وذكر لهم ذلك، فقالوا لهم: هذا كذب، لا أصل له، وإنّما هذه نميمة من النّصارى كراهةً منهم في المسلمين، ففحص عمّن اختلق ذلك، فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشّوام"[4].

ز. في الخامس والعشرين من شهر رمضان أذاع الاحتلال الفرنسي أنّ جيشه احتل قلعة العريش، فحزن المسلمون، وفرح النصارى وأقاموا الولائم والمراقص، قال: "فحزن المسلمون لذلك، وانقبضت نفوسهم، وصاروا بين مُصدِّق ومُكذِّب، وتزايد الوسواس، وأظهرُ النّصارى الفرح والسُّرور في الأسواق والدور، وأوْلموا في بيوتهم الولائم، وغيَّروا الملابس والعمائم، وتجمّعوا للّهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة"[5].

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص112.
(2) فصلت، 46/41.
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص144.
(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص147.
(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص148.

ح. عندما عمل يعقوب اللعين ديوانًا خاصًّا له، منع المسلمين في مصر كلّها من ركوب البغال إلّا خمسة سمح لهم، أما النّصارى فكلّهم لا حرج عليهم، فتطاولت النصارى على المسلمين بالشتائم والسّخرية، والضّرب، والطّعن في الإسلام، والهزء بنبيّه محمد، صلّى الله عليه وسلّم، قال الجبرتي: "وتطاولت النصارى البلدية على المسلمين: بالسبّ، والضّرب، والاستهزاء، والسُّخرية. ونالوا منهم أغراضهم، وطعنوا في دين الإسلام، وصرّحوا بانقضائه، وإذا ضربوا مسلمًا وتألم واستغاث، يقولون له: وأين محمَّدكم الذي تزعمون أنَّه يشفع لكم؟، وأمثال هذا الكلام الذي يقشعر القلب من سماعه"[1].

طلب يعقوب اللعين من كلّ زعيم حي، أو قرية، أو بلدة، أن يعمل ديوانًا خاصًا لتحصيل الأموال المطلوبة من العامة، وزوّده بعسكر فرنسي لمساعدته، وقد استغل هؤلاء مناصبهم للإثراء الشخصي، قال الجبرتي: "فطلبوا من الناس ضعف ما قرّرَهُ يعقوب؛ ليكتسبوه لأنفسهم، وبثّوا أعوانهم من القواسة وعسكر الفرنسيس في طلب الناس، وحبسهم، وضربهم، وعقابهم. والمرجع في ذلك كلّه إلى الدّيوان الكبير، وهو ديوان يعقوب، فدُهي النّاس بهذه الدّاهية التي لم يُصابوا بمثلها، ولا ما يُقاربها. ومضى عيد النّحر، ولم يشعر به أحد، ونزل بهم من البلاء والذّل مالا يُوصف، فإنّ الواحد من النّاس غنيًّا كان أو فقيرًا لا بدّ وأن يكون من ذوي الصنائع، أو الحرف، فيلْزَمَهُ شقص[2] ما، وُزّع عليه في حرفته، أو حرفتيه، وأجرة داره – أيضًا-، وحانوته سنة مُعجّلة، فكان يأتي على الشخص الواحد غرامتان أو ثلاث أو أكثر؛ إذ يتّجرُ الإنسان في بضائع مُتعدّدة"[3].

وعن الفرقة العسكرية التي شكّلها يعقوب اللعين، والقلعة التي بناها على أنقاض أملاك المسلمين، قال الجبرتي: "ومنها أنّ يعقوب القبطي اللعين لمّا تظاهر مع الفرنساوية، وقلّدوه صاري عسكر القَبَطة، جمعَ شبّان القبط، وحلق لحاهم، وزيّاهم بزيّ مُشابه لعسكر الفرنساوية، مُميّزًا عنهم بقبّعات يلبسونها على رؤوسهم، مشابهة لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة، مع ما يُضاف إليها من قُبح صورهم، وسواد أجسامهم، وزفارة أبدانهم، وجَعَلَهُم عسكرَهُ، وعِزْوتهِ، وجمعهم من أقصى الصّعيد.

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص213.
(2) الشقص: السهم، أو النصيب. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص212، حاشية(1).
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص212.

وهدم الأماكن المجاورة لحارة النّصارى، التي هو ساكن بها، خلف الجامع الأحمر، وبنى له قلعة، وسوّرها بسور عظيم، وأبراج، وباب كبير يحيط به بدنات عظام.

وكذلك بنى أبراجًا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكيّة، وفي جميع السور المحيط، والأبراج طيقان للمدافع، وبنادق الرّصاص على هيئة سور مصر، الذي رمّه الفرنساوية، ورتّب على باب القلعة الخارج والدّاخل عدّة من العسكر الملازمين للوقوف ليلًا ونهارًا، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية"[1].

لكن بعد كلّ هذا الإفساد، كانت نهاية يعقوب اللعين، ومَن شابهه الفرار في ظلّ أسياده، فما أن هُزمت فرنسا، وخرجت من مصر باتفاق مع الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة، حتى سارع هو وكثير من أعوانه الذين أفسدوا في أرض مصر، إلى حمل ما خفّ وزنه، وغلا ثمنه، ورحل إلى بلاد أسياده، لكنّه مات على السفينة قبل أن يصل فرنسا، وذلك بعد أن استحكم في قلعته خوفًا من عقاب الشعب إلى أن وقّع القائد الفرنسي "بليار" اتفاق الصلح مع الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، ونصّ الاتفاق على رحيله هو، ومَنْ يرغب من العملاء[2].

ط. في شهر(صفر سنة 1215الموافق لشهر تموز 1800) فرض الاحتلال الفرنسي غرامة (ضريبة) على أهل مصر مقدارها أربعة ملايين بالعملة المتداولة في مصر(كان المليون منها يساوي 186ألف فرانسة)، ولمّا اشتدّت حاجتهم للأموال، عينوا في شهر ربيع الثاني شكر الله القبطيّ لجمع المال من المسلمين، وزوّدوه بالجنود الفرنسيين، فأذاق المسلمين ألوانًا من العذاب لم يعرفوها من قبل، ثمّ هدم ونهب ما شاء. قال الجبرتي: "فيه [ربيع الثاني/ آب] اشتدَّ أمر المطالبة بالمال، وعُيّن لذلك رجل نصرانيّ قبطي يُسمى شكر الله، فظهر منه للنّاس ما لا يُوصف، فكان يَدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال، وصحبته العساكر من الفرنسيس، وبأيديهم آلات الهدم، فيأمرهم بهدم الدّار، إن لم يدفعوا له المقرّر وقت تاريخه من غير تأخير، وخصوصًا

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص251.
(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص193؛ أحمد الصاوي، المعلم يعقوب، ص46-47.

ما فعله ببولاق[1]، فإنّه كان يحبس الرّجال مع النساء، ويُدَخِّن عليهم بالقطن والمشاق، ويُنوّع عليهم العذاب، ثمّ رجع إلى مصر يفعل ذلك"[2].

ي. في شهر (ذي الحجّة سنة1215 الموافق لشهر نيسان 1801)، عُيّن نقولا النّصرانيّ مسؤولًا عن مراكب الحطب، وصُنّاعها، فجعل من نفسه أميرًا، وأفسد في مصر، قال: "بنى له دارًا عظيمة بالجيزة ومصر، وله عِزْوة من نصارى الأروام المرتّبين عسكرًا، وكان نقولا المذكور يركب الخيل، ويلبس الملابس الفاخرة، ويمشي في شوارع مصر راكبًا، وأمامَهُ، وخلفه قوّاسة يُوسِّعون له الطّريق على هيئة ركوب الأمراء، كلُّ ذلك خطرات من وساوسه لا يُدرى لأيِّ شيء هذا الاهتمام، ولأيِّ حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطائه لنصارى الأروام"[3].

ك. في شهر (محرم سنة 1216الموافق لشهر أيار 1801)، وقبيل الهزيمة النهائية لحملة نابليون عَيَّن يعقوب اللعين رجلًا قبطيًّا يدعى عبد الله لمساعدته في إذلال المسلمين، قال الجبرتي: "وفي محرّم، عشرينه، توكّل رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب، يجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس، فتعدّى حتى على بعض الأعيان، وأنزلهم من على دوابهم، وعسف، وضرب بعضهم على وجهه حتى أسال دمه"[4].

ج. إذلال المسلمين، وهدم مقدّساتهم، وتدنيسها

عامل المحتلّون الفرنسيّون المسلمين في مصر معاملة قاسية، وبشعة؛ فقتلوا، واعتقلوا، وسلبوا أموالهم وممتلكاتهم، وأذاقوهم ألوان الذلِّ والعذاب، ودنّسوا كثيرًا من مقدّساتهم، وهدموا عددًا من مساجدهم، وحوّلوا بعضها إلى خمّارات، ومنعوا الحج سنتين، ولم يُرسلوا الكسوة للكعبة المشرّفة، والصّرة النقديّة السنوية لأهل مكّة المكرّمة، وعلمائها وقت الحج. ومن الأمثلة على سوء المعاملة:

---

(1) بولاق: أو أبو العلا، أو بلاق، وهو اسمها القديم، أحد أحياء القاهرة القديمة، على ضفة النيل الشرقية، ومعناها: الميناء. وكانت أعظم حصون القاهرة، وهي جزيرة تقرب من الجنادل، وتنتهي إليها سفن النوبة وأسوان، وهي مقابل جزيرة الزمالك. انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار،1/558.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص229.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص257.

(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص262.

1- إهانة كبار المشايخ في ديوان " كليبر"، فبعد فرض الضرائب والوليمة، جعلوا القبطي "فرط الرّمان" يتحكّم بالمشايخ، حيث أوحى للعسكر في مقرّ "كليبر" باحتجازهم، وأبقى منهم خمسة عشر شخصًا رهائن، ولطول مدّة احتجازهم بالوا على أنفسهم، قال الجبرتي: "ولم يزالوا في هذه الحيرة، والتداخل على القبطة إلى قبيل العصر، حتى بال أكثرهم على ثيابه، وبعضهم شرشر [بال] من الشبابيك المطلة على البركة"[1].

وفي أواخر حكم الاحتلال ذاق العامة والخاصة الذل ألوانًا، قال: "ونزل بالرّعية الذلّ والهوان، وتطاولت عليهم الفرنسيس بالإهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام إليهم عند مرورهم، ثمّ شدّدوا في ذلك ... وقبضوا عليه، وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة، وضربوه تأديبًا وزجرًا"[2].

2- اقتحام جيش الاحتلال الفرنسي بخيلهم المسجد الأزهر الشريف، والمرابطة فيه، وهدم كثير من المساجد، وتحويل بعضها إلى خمّارات. قال: " فترجّوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر... وأبقوا منهم نحو السبعين، ثم أسكنوهم بالخُطّة كالضابطين ليكونوا للأمور مُراصدين، وبالأحكام منفّذين"[3].

كما سمحوا لبعض العوام بتدنيس المساجد وتحويل بعضها إلى مكان للقاذورات، قال: "وتحلّقهم بالمسجد للحديث، والهذيان وكثرة اللغط، والحكايات والأضاحيك، والتّلفت إلى حسان الغلمان ... ورمي قشور اللّب، والمكسرات، والمأكولات في المسجد ... فيصير الجامع بما اجتمع فيه من هذه القاذورات ملتحفًا بالأوراق الممتهنة"[4].

وقال: "وأخربوا –أيضًا-جامع أزبك العظيم، وجعلوه سوقًا لبيع أقلام المكوس، وأخربوا –أيضًا-جامع الرويعي، وجعلوه خمّارة، وجامع عثمان كَتْخُدا القزدغلي، وجامع خير بك حديد، وجامع البنهاوي، والطرطوشي، والعدوي، وجامع عبد الرحمن كَتْخُدا المقابل لباب الفتوح هدموه حتى لم يبق له أثر ألبتة"[5].

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص209.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص228.
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص120.
(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص138.
(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص248. وانظر: ص128 حيث هدموا جامع أبي هريرة بالجيزة، وص129 حيث حولوا جامع الظاهر بيبرس إلى قلعة، وهدموا منارته، ثم حوّلوه إلى ثكنة عسكرية.

أما الحجّ وكسوة الكعبة الشريفة، وصُرّة الحجاز، فقد تعطّلت لسنتن هما (1214/1800و1215/1801)، قال: "من أعظمها [أي المصائب] امتناع سفر الحج من مصر، ولم يُرسلوا الكسوة، ولا الصّرّة، وذلك من أشنع الحوادث التي لم يتّفق نظيرها في دولة آل عثمان أبدًا، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم"[1].

3- عندما احتل جيش الاحتلال الفرنسيّ قلعة القاهرة، قام بطرد سكانها، وهدم كثيرًا من أبنيتها، وحوّلها إلى مكان سكن لقادته، وثكنة عسكرية. وكان ممّا هدموه معالم السلاطين المسلمين الذين حكموا مصر، ومنها قصر صلاح الدّين الأيوبي، وما به من: المساجد، والزوايا، والمشاهد. ومسجد السلطان محمد بن قلاوون، كما نهبوا ما فيها من أدوات حرب، وأثاث وكتب. قال: "وفيه [شهر ربيع الثاني سنة 1213 الموافق لشهر أيلول 1798] أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم إلى المدينة ليسكنوا بها، فنزلوا، وأطلعوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدّة مواضع، وهدموا أبنية كثيرة، وشرعوا في بناء: حيطان، وكرانك، وأسوار. وهدموا أبنية عالية، وغيرّوا معالمها، وأبدلوا محاسنها، ومحوا ما كان بها من معالم السّلاطين، وآثار الحكماء، والعظماء، وسلبوا ما كان بأبوابها العظام، وإيواناتها الفخام من الأسلحة، والدَرق، والبُلّط[2]والخوذات، والحراب الهندية، وهدموا قصر يوسف صلاح الدّين، ومحاسن الملوك السّلاطين ذوات الأركان الشاهقة، والأعمدة الباسقة. وكذلك ما بها من: المساجد، والزّوايا، والمشاهد، وشوّهوا المسجد العظيم، والجامع المشيد الفخيم، الذي أنشأه صاحب المفاخر محمد بن قلاوون، الملك الناصر؛ فقطعوا منبره، وشَعّثوا إيوانه، وأخذوا أخشابه، وزعزعوا أركانه، وأزالوا المقصورة الجديدة البديعة الإتقان، التي كان يُصلي بداخلها السلطان"[3].

4- في نهاية سنة (1215/1801) واصل الاحتلال الفرنسيّ تغيير معالم أحياء القاهرة من خلال الهدم، ونشر الخراب في كلّ مكان، وذكر الجبرتي أنّ الاحتلال هدم أحياء: الحسينية، والخروبي، وبركة الفيل بكل ما فيها من: خانات، ورباع، ودور، وحمّامات، ونهبوا ما تحتويه من: مواد بناء،

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص162.
(2) الدّرق: جمع درقة، وهي: التّرس يصنع من جلود ليس فيه خشب. البلط: جمع بَلطة: لفظة تركية وتعني نوعا من الفؤوس. انظر: الخفاجي، شفاء الغليل، ص153؛ المنجد في اللغة، ص48.
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص104-105.

ومعادن، ورخام، وأخشاب. وعن هدم المقدّسات الإسلاميّة. قال: "وما في ضمن ذلك... والمساجد، والمزارات، والزّوايا، والتكايا"[1].

د. قتل ثُمن مواطني مصر

قُدّر عدد الشهداء الذين قتلوا على يد جيش الاحتلال الفرنسيّ، وعملائه في مصر– في مدّة الاحتلال التي بلغت ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع فقط، من (يوم السبت السابع من صفر سنة 1213 الموافق 1798/7/20 إلى يوم الجمعة الحادي والعشرين من صفر سنة1216 الموافق 1801/7/2)-بأكثر من ثلاثمائة ألف مواطن مصري من أصل مليونين وأربعمائة وستين ألف مواطن هم عدد سكان مصر.

وقد كان الفرنسيون يقتلون أهل مصر المسلمين من دون سبب، كما فوّضوا عملاءهم من نصارى مصر بأن يفعلوا ما يشاؤون بالشعب المصري، وكانوا يُهاجمون بعض القرى، وأحياء المدن، والبلدات؛ فيدمّرونها، ويقتلون أكثر سكانها، ومن ذلك:

1- مهاجمة بلدة بني عدي في الصعيد، وتدميرها والإسراف في قتل أهلها ونهب ممتلكاتهم: "وضربوا عليهم بالمدافع، فأتلفوهم، وأحرقوا جُرونهم، ثم كبسوا عليهم، وأسرفوا في قتلهم ونهبهم، وأخذوا أشياء كثيرة، وأموالًا عظيمة وودائع"[2].

وحسب مذكرات رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية، فقد تحوّلت بني عدي إلى أكوام من الخرائب، وتكدّس القتلى في شوارعها، حتى أنّه لم ير مجزرة أشدّ وحشيّة ممّا حدث في بني عَديّ، وقُدّر عدد الشهداء ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف مواطن [3].

2- هاجم نحو ألف جندي من جيش الاحتلال الفرنسيّ مدينة دمنهور، وفعلوا بها كما فعلوا ببني عدي من القتل والنهب. وقيل: إنّهم قتلوا منها ما بين (1200 إلى 1500) مواطن مصريّ[4]. وقال أحد قادة جيش الاحتلال الفرنسيّ عمّا فعلوه بدمنهور: "فأحرقوا مساكنهم بالنار، وقتلوا كلّ مَنْ وجدوه من:

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص247-248.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص158. والجرن هو: موضع تخزين القمح، أو التمر، أو العنب، وقيل: البيدر. انظر: اللسان: مادة جرن.
(3) انظر: محمد كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص196.
(4) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص158؛ محمد كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص199، 202.

الشيوخ، والنساء، والأطفال بحدّ السيف، وفي اليوم التالي كانت دمنهور رُكامًا من الأحجار السوداء، اختلطت بها أشلاء الجثث، ودماء القتلى"[1].

3- كان جنود جيش الاحتلال الفرنسيّ يقطعون الأشجار المثمرة من البساتين، وأشجار النخيل في كلّ بقاع مصر؛ لسدّ حاجاتهم من الوقود، وبناء الأسوار، والعربات وغيرها. كما كانوا يُحطّمون السفن والمراكب الخاصة بأهل مصر، ولا يسمحون للمسلمين بناء غيرها، وقاموا بهدم القباب، والقبور في مقبرة القرّافة، وغيرها. قال: "ومنها قطعهم الأشجار، والنخيل من جميع البساتين والجنائن الكائنة بمصر، وبولاق، ومصر القديمة، والروّضة، بل وجميع القطر المصري كالشرقيّة، والغربيّة، والمنوفيّة، وبساتين رشيد ودمياط، كلُّ ذلك لعمل القلاع، وتحصين الأسوار في جميع الجهات، وعمل العجل، والعربات، والمتاريس، ووقود النار.

ومنها تكسير المراكب، والسفن، وأخذ أخشابها- أيضًا-مع شدّة الاحتياج إليها، وعدم إنشاء سفن جديدة لافتقار الناس، ورؤساء المراكب، وعدم الخشب، والقار والحديد، وبقية الآلات، وعدم الأمن عليها لو فُرض، حتى أنّهم حال حلولهم الدّيار المصريّة، وسكنهم بالأزبكيّة كسروا جميع القنج والأغربة[2]، التي كانت مركوزة تحت بيوت الأعيان بقصد التنزُّه، وكذلك ما كان ببركة الفيل؛ وقس على ذلك حتى أن القطر المصري –الآن- في شدّة الاحتياج لذلك، وشحّت البضائع، وغلت الأسعار، وتعطّلت الأسباب، وضاقت المعايش، وتضاعفت أجر حمل التّجارات في السفن لقلّتها، وبطلت المتاجر.

ومنها هدم القبب، والمدافن الكائنة بالقرّافة تحت القلعة خوفًا من تَتَرُّس المحاربين بها؛ فكانوا يهدمون ذاك بالبارود على طريقة اللّغم؛ فسقط المكان بجميع أجزائه من شدّة البارود وانحباسه في الأرض، فهدموا شيئًا كثيرًا على هذه الصورة؛ وكذلك أزالوا جانبًا كبيرًا من الجبل المقطّم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفًا من تمكّن الخصم منها، والرمي على القلعة"[3].

ه. نهب ثروات مصر، وإفقار أهلها

(1) محمد كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص201.
(2) القنجة: وجمعها القُنج. وهي نوع من السفن. الأغربة: جمع غراب، وهي سفينة حربية قديمة ذات أشرعة، ومجاديف. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص252 ، حاشية (1) .
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص251-252.

كان الاقتصاد عاملًا من أهم العوامل التي دفعت نابليون إلى السعي لاحتلال مصر والمشرق الإسلاميّ. وقد تركت حملة نابليون آثارًا سلبية جدًا على اقتصاد مصر، وعلى المواطنين المصريين أفرادًا، حتى أن الجيش الفرنسيّ كان ينهب ثياب بعض المواطنين، فيتركهم عرايا، كما سيطر الفرنسيون على أحياء كاملة، وهجّروا أهلها منها، وفرضوا ضرائب باهظة على فئات المجتمع كلّها، وحتى على القضاة، وأئمة المساجد، والعميان وغيرهم. وصادروا من النساء مدّخراتهن كلّها، واستولوا على نظارة الأوقاف. ولم يكتفوا بذلك، بل أطلقوا أيدي عملائهم في تحصيل ما كانوا يفرضونه من فردات (ضرائب)، فيقوم هؤلاء بمضاعفة الضرائب؛ ليأخذ كلٌّ منهم ما يريد. ويظهر تخريب اقتصاد مصر، من خلال الآتي:

1- مصادرة بيوت أمراء مصر وأثريائها، واستيطانها من قبل نابليون وقادة حملته. قال الجبرتي: " وسكن بونابرت بيت محمد بيك الألفي بالأزبكية، وكان عمَّرَهُ محمد بيك ... وزخرفه، وصرف عليه أموالًا عظيمة، وفرشه بالفرش الفاخر ... فكأنّه بناه للفرنسيين. وكذلك حصل في بيت حسن كاشف جركس بالناصرية"[1]. وهدموا بيوت كثير من المواطنين لتوسيع الأماكن التي صادروها، كما هدموا بعض المقابر، وكثير من الآثار، فضلًا عن أنّهم في مهاجمتهم للأحياء، والقرى، والبلدات كانوا يتركونها خرائب لا فائدة منها.

2- إفقار الشعب المصريّ المسلم بالضرائب، والغرامات، والنهب وفق مصالح قادة الحملة، وأعوانهم من القبط، فقد فرضوا عليهم أول احتلالهم القاهرة سلفة مقدارها نصف مليون ريال، وطلبوا من نساء الأمراء غرامات خاصة، ثم صادروا الدّواب، ونهبوا ما وجدوه في المحال التجارية، وفرضوا ضرائب على أصحاب الحرف والتجار مبالغ لم يستطيعوا دفعها. قال الجبرتيّ: "وفي يوم السبت اجتمعوا بالدّيوان، وطلبوا دراهم سلفة، وهي مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط، والشوام، وتجار الإفرنج –أيضًا-فسألوا التّخفيف، فلم يُجابوا، فأخذوا في تحصيلها... ونادوا-أيضًا-على نساء الأمراء بالأمان، أنّهن يسكن بيوتهن، وإذا كان عندهن أشياء من متاع أزواجهنّ يُظهرنه، فإن لم يكن عندهن شيء من متاع أزواجهن يُصالحن على أنفسهن، ويأمنّ في دورهنّ، فظهرت الست نفيسة زوجة مراد بيك، وصالحت على نفسها وأتباعها من نساء الأمراء، والكشاف بمائة وعشرين ألف ريال فرانسة، وأخذت في تحصيل ذلك من

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص81-82.

نفسها وغيرها، ووجهوا عليها الطلب، وكذلك بقية النساء بالوسائط، فجمعوا شيئًا كثيرًا.

وفي يوم الأحد طلبوا: الخيول، والجمال، والسلاح، فجمعوا شيئًا كثيرًا حتى الأبقار والثيران، وحصل في ذلك مثل ما حصل في المصالحات، وجمعوا من ذلك شيئًا كثيرًا، وأشاعوا التفتيش بسبب ذلك، وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره، وأخذوا ما وجدوا فيها من السلاح من غير ثمن.

هذا وفي كلّ يوم ينقلون على الجمال والحمير من: الأمتعة، والفرش، والصناديق، والسروج، وغير ذلك من البيوت ما لا يُحصى، ويستخرجون الخبايا، ويأخذون البنَّائين، والمهندسين، والخدم الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على محلات الدفائن ...؛ ولوقوع هذه الأمور داخل الناس من الفرنسيين خوف شديد"[1].

ثم فرضوا فردة (ضريبة) بمبلغ عشرة ملايين ريال فرنسي، وفوّضوا القبطي يعقوب حنا اللعين تحصيلها، وذلك قبل أن ينتهوا من تحصيل الضريبة الأولى، ولمّا اشتدت حاجتهم للمال عيّنوا قبطيًّا يُدعى شكر الله لجمع الأموال، فأفسد في البلاد، ثم في كلّ شهر يفرضون أنواعا مختلفة من الضرائب، حتى فرّضوا ضرائب على مشايخ مدن مصر، وبلداتها، وقراها بمبالغ ضخمة، ولمّا ضج المشايخ؛ لفقر بعضهم. اتفقوا على أخذها من الناس بدلًا من المشايخ مع زيادة قيمتها. ولمّا أحصى الفرنسيون أسماء البلاد المصريّة اعتمدوا على القبط، الذين اخترعوا أسماء من عندهم زيادة في التشفي بالمسلمين. واستولوا على الأوقاف ما أدى إلى إفقار فئات كثيرة من المسلمين الذين كانوا يحصلون على رواتبهم منها، وساعدهم في كلّ ذلك النصارى.

ومَنْ يُطالع ما كتبه عبد الرحمن الجبرتي يجد أنّ نابليون كان يهدف إلى إفقار مصر، ونهب ثرواتها ليس أكثر. ودليل ذلك ما فعله الاحتلال الفرنسي في بولاق، فبعد أن أفسد فيها، قام بفرض منع التجوال على أهلها واستباحها ثلاثة أيام، قال الجبرتي: " ثم بعد أن ملكوا البلد أحاطوا بها، ومنعوا مَنْ يخرج عنها، واستولوا على الخانات والوكائل. وما بها من الحواصل والطّباق، وأخذوا جميع ما فيها من الودائع التي للناس والمتاجر، وأخذوا ما في البيوت والحوانيت، وأخذوا بعض نساء مأسورات، واستولوا على جميع ما في البلد من: غلال، وسكر، وكتّان، وقطن، وأبازير، وأرز، وأدهان، وأصناف عطرية، وما لا تَسَعْهُ السّطور، وما لا يُحيط به كتاب ولا منشور، والذي وجدوه منكفئًا في داره، ولم يُقاتل، ولم يجدوا عنده سلاحًا

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص87-89.

نهبوا متاعه، وعرُّوه من ثيابه، ومضوا وتركوه حيًّا، وأصبح مَنْ بقي من ضعفاء أهل بولاق، وأعيانهم الذين لم يُقاتلوا فقراء لم يملكوا ما يستر عورتهم"[1].

وعن فرض الضريبة الثانية في (شهر صفر سنة 1215 الموافق لشهر تموز 1800)، والتي كانت بمبلغ أربعة ملايين ريال فرنسي، وما حصل للمسلمين من إذلال ونهب، يقول الجبرتي واصفًا ما فعلوه في(شهري ربيع الثاني وجمادى الأولى الموافق لشهري آب وأيلول): "فيه اشتدّ أمر المطالبة بالمال، وعُيّن لذلك رجل نصرانيّ قبطي يُسمّى شكر الله، فظهر منه للناس ما لا يُوصف، فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال، وصحبته العساكر من الفرنسيس، وبأيديهم آلات الهدم، فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المُقرّر وقت تاريخه من غير تأخير، وخصوصًا ما فعله ببولاق، فإنّه كان يحبس الرجال مع النساء، ويُدَخِّن عليهم بالقطن والمشاق، ويُنَوّع عليهم العذاب ثم رجع إلى مصر يفعل ذلك.

وفيه أغلقوا جميع الوكايل والخانات على حين غفلة في يوم واحد، وختموا على جميعها، ثم كانوا يفتحونها، وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة، والعطري، والدّخان، واللبن وغير ذلك، خانًا بعد خان، فإذا فتحوا حاصلًا من الحواصل قَدّموا [أي قَدَّروا ثمنه] ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان، وحسبوا غرامته، فإن بقي لهم شيء أخذوه من حاصل آخر جاره، وإن زاد له شيء أحالوه على جاره كذلك، وهكذا حتى أخلوا جميع الوكايل والخانات من سائر البضائع على الرجال، والجمال، والحمير، والبغال. وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطّع حسرةً على نهب أموالهم، وإذا فتحوا حاصلًا ومخزنًا دخله أمناؤهم، ووكلاؤهم، فيأخذون ما يجدونه من الودائع الخفيفة، وصُرر الدّراهم، والدنانير ويُخفونها، وصاحب المحل لا يقدر على الدُّنو منه، ولا يتكلّم بل ربما هرب أو كان غائبًا.

وفيه حرّروا دفاتر العشور، وأحصوا جميع الأشياء الجليلة والحقيرة، ورتّبوها بدفاتر، وجعلوها أقلامًا مُفردة يتقلّدها مَنْ يقوم بدفع مالها المحرّر، وجعلوا جامع أزبك الذي بالأزبكية سوقًا لمزاد ذلك بكيفيّة يطول شرحها، وأقاموا على ذلك أيامًا كثيرة يجتمعون لذلك في كلّ يوم، ويشترك الاثنان، فأكثر في القلم الواحد، وفي أقلام متعدّدة.

وفيه كثر الهدم في الدور وخصوصًا في دور الأمراء ومَنْ فرّ من الناس. واستهل شهر جمادى الأول سنة1215[الموافق لشهر أيلول 1800]، والأمور من أنواع ما ذكر تتضاعف، والظّلمات تتكاثف، وشرعوا في هدم أخطاط [أحياء] الحسينية، وخارج باب الفتوح، وباب النّصر من: الحارات، والدور، والبيوت،

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص202.

والمساكن، والمساجد، والحمّامات، والحوانيت، والأضرحة، فكانوا إذا دهموا دارًا، وركّبوها للهدم، لا يمكّنون أهلها من نقل متاعهم، ولا أخذ شيء من أنقاض دارهم، فينهبونها، ويهدمونها، وينقلون الأنقاض النافعة من الأخشاب والبلاط إلى حيث عماراتهم، وأبنيتهم، وما يقع يبيعون منه ما أحبّوا بأبخس الأثمان، ولوقود النيران، وما بقي من كسارات الخشب يجعله الفَعَلة حِزمًا، ويبيعونه على الناس بأغلى الأثمان لعدم [وجود] حطب الوقود.

فانهدم للناس من الأملاك والعقار ما لا يُقدّر قدره، وذلك مع مطالبتهم بما تقرّر على أملاكهم، ودورهم من الفَرْدة [أي الغرامة أو الضريبة] فيجتمع على الشّخص النّهب، والهدم، والمطالبة في آن واحد، وبعد أن يدفع ما على داره، وما صدَّقَ أنه غَلّق [أي أنهى] ما عليه، دهموه بالهدم، فيستغيث فلا يُغاث، فترى الناس حَيارى وسكارى.

ثم بعد ذلك كلّه يُطالب بالمنكسر من الفردة، وذلك أنَّهم لمَّا قسموا الأخطاط كما تقدّم، وتولّى ذلك أمير الخطة، وشيخ الحارة، والكتبة، والأعوان، وزّعوا ذلك برأيهم، ومُقتضى أغراضهم، فأول ما يجتمعون بديوانهم يشرع الكتبة في كتابة التنابيه، وهي أوراق صغار باسم الشخص، والقدر المقرّر عليه، وعلى عقاره بحسب اجتهادهم ورأيهم، وفي هامشها حقّ طريق المعين، ويُعطون لكلّ واحد من أولئك القوّاسة عدّة من تلك الأوراق، فقبل أن يفتح الإنسان عينيه لا يشعر إلّا والمعين واقف على بابه، وبيده ذلك التنبيه، فيوعده حتى يسعى على حاله، فلا يجدُ بدًّا من دفع حق الطريق، فما هو إلّا أن يُفارقه حتى يأتيه آخر بتنبيهٍ مثله، فيفعل معه مثل الأول، وهكذا على عدد الساعات، فإن لم يجد المعيّن المطلوب وقف ذلك القوّاس على داره، ورفع سوطه، وتطاول على حريمه أو خادمه بالسّبّ والشتم... وما يظنّ أنّه خلّص إلّا والطلب لاحقه – أيضًا- بمعين وتنبيه، فيقول: ما هذا ؟! فيُقال له: إنّ الفردة لم تكمل، وبقي منها كذا وكذا ... فكانت هذه الكسورات من أعظم الدّواهي"[1].

و. إشاعة الفساد الأخلاقي، والفجور في مصر

كان من خطط نابليون، العمل على تغيير الشعب المصري المسلم في: دينه، ولغته، وعاداته، وأخلاقه؛ ليتمكن من جعل مصر جزءًا من فرنسا، وقد عمل هو، وقادة جيشه وبمساعدة كثير من نصارى مصر على تنفيذ هذه الخطّة منذ اللحظات الأولى للاحتلال؛ فأحضر معه البغايا، والرّاقصات، والمغنّيات، ومكنّهن من المجتمع بفتح دور الدعارة، والمشاركة في الاحتفالات الماجنة، والتمثيل في المسرح الذي أنشأه، والتجوال في الشوارع بطرق ماجنة، وغير ذلك، كما أشاع بيع الخمور، وكلّ

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص229-232.

أنواع المسكرات، وحوّل بعض المساجد إلى أماكن بيع للخمور، وطاف بعض النصارى يبيعون الخمور في الشوارع العامة. ويمكن توضيح ذلك بالآتي:

1- فتح بيوت دعارة للعامة، قال الجبرتي: "أحدثوا بغيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النّساء والرّجال للّهو والخلاعة في أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل مَنْ يدخل إليها قدرًا مخصوصًا يدفعه، أو يكون مأذونًا، وبيده ورقة"[1]. وقال: "وتجمّعوا بدار الخلاعة نساءً ورجالًا، وتراقصوا، وتسابقوا، وأوقدوا سُرجًا وشموعًا وغير ذلك، وأظهر النصارى القبطة، والشوام، الفرح والسُّرور"[2].

2- إشاعة الفواحش بمساعدة النصارى في كلّ مناسبة بهدف تخريب أخلاق نساء مصر المسلمات، قال الجبرتي: "وخرج النصارى البلدية من: القبط، والشوام، والأورام، وتأهّبوا للخلاعة، والقصف، والتفرّج، واللّهو ... وصحبتهم الآلات والمغاني، وخرجوا في تلك الليلة عن أطوارهم، ورفضوا الحشمة، ... وصحبتهم نساؤهم، وقِحابهم، وشرابهم، وخمورهم، وتجاهروا بكلّ قبح من الضحك، والسُّخرية، والكفريات، ومحاكاة المسلمين، وبعضهم تسلّح، وتزيّا بزيّ نساء مصر على سبيل الاستهزاء، وتشبّه بهم، وحاكى ألفاظهم ... وقد وقع في تلك الليلة بالبحر [نهر النيل] وسواحله من الفواحش، والتّجاهر بالمعاصي ما لا يكيَّف ولا يُوصف. وسلك بعض غوغاء العامة، وأسافل العالم، ورعاعهم مسالك مُتَسفل الخلاعة، ورذالة الرقاعة [الحمق] بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم"[3].

3- فتح الخمارات، وبيع الخمور في الطرق العامة. قال: "وفتح نصارى الأروام عدّة دكاكين لبيع المسكرات، وعدّة خمامير وقهاوي، وطافت جماعة من النّصارى في الأسواق تبيع العرق، كسُقاة الماء، وصاروا يُنادون فيه بالأسواق بلغتهم، وفَحُشَ ذلك جدًا"[4].

4- نشر الزنا بين الفرنسيين، واهتمام نابليون وقادته بكل ما يؤدي إلى ذلك، حتى فشا في بعض الفئات من نساء مصر، ولمّا انتشر الطاعون منعوا الزنا، وجعلوا عقوبته الموت، وشاع بين العامة اسم "المشهورات" للنساء

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص128.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص153.
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص169.
(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص87، 248، وفيه أنهم حوّلوا جامع الرويعي إلى خمارة.

الزّانيات. ومن ذلك أنّ نابليون أقام احتفالًا في أول سنة (1799/1214) في داره بالأزبكية، ودعا إليه كلّ السفلة والزناة والمفسدين: "تجمّع هناك أرباب الملاهي، والبطالات، ورعاع العالم من: الحرافيش، وأكلة الحشيش، ومُلاعبي القرود، والحواة، والنساء الرّاقصات، وأمثال ذلك"[1].

ولمّا انتشر الطاعون جعلوا عقوبة التعامل مع الزانيات الموت للزانية والزاني، قال الجبرتي: "ومنعنا لمدّة ثلاثين يومًا من تاريخ أعلاه [شهر ذي القعدة سنة1213 الموافق لشهر نيسان 1799] لجميع الناس، إن كان فرنساويًّا، أو مسلمًا، ونصرانيًا، أو يهوديًا من أي ملّة كان، كلّ مَنْ أدخل إلى مصر، أو بولاق، أو مصر القديمة من النساء المشهورات؛ إن كان في بيوت العساكر، أو كلّ مَنْ كان داخل المدينة، فيكون قصاصه بالموت، كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعكس إن دخلوا من أنفسهن –أيضًا-يقاصّوا بالموت"[2].

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص164.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص157.

5- إنشاء المسرح في الأزبكية، وإرسال فرقة مسرحية.

قال الجبرتي: "وفيه [شهر شعبان سنة 1215 الموافق لشهر كانون الأول 1800] كمل المكان الذي أنشأوه بالأزكبيّة عند المكان المعروف بباب الهوى، وذلك المكان الذي أنشأوه يُسمى في لغتهم بالكُمُدي، وهو: عبارة عن محل يجتمعون به كلّ عشر ليالٍ ليلةً يتفرجون به على ملاعيب يعملونها قدر أربع ساعات من الليل، وذلك بلغتهم، ولا يدخل أحد إليه إلّا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة"[1].

وكان" كليبر" يطلب من نابليون باستمرار إرسال فرقة تمثيل من فرنسا إلى مصر، وقد كتب نابليون إليه جوابًا، جاء فيها: "كُنْتَ قد طلبتَ مِرارًا جوقةً تمثيليّة، وسأهتمُّ اهتمامًا خاصًا بإرسالها لكَ؛ لأنّها ضروريّة للجيش، وللبدء في تغيير تقاليد البلد"[2].

ما سبق وغيره كثير من الأعمال الهادفة إلى إفساد أهل مصر، أدى إلى إشاعة الفجور إلى درجة جعلت الجبرتي يتحدّث عنه كثيرًا، ثم يُفرد له في "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" عنوانًا خاصًّا هو "الفجور الحادث بقدوم الفرنسيس". وذلك في (شهر ذي الحجة الحرام سنة 1215 الموافق لشهر نيسان 1801)، أي قبيل الجلاء، ما يدلّ على أنّ الاحتلال الفرنسيّ استطاع أنّ يبذر الفساد الذي خطّط له في مصر، قال الجبرتي:"ومنها تبرّج النّساء، وخروج غالبهن عن الحشمة، والحياء، وهو أنّه لمّا حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشّوارع مع نسائهم، وهُنَّ حاسرات الوجوه، لابسات الفساتين، والمناديل الحرير الملوّنة، ويُسدلن على مناكبهن الطّرح الكشميريّ، والمُزَرْكشات المصنوعة، ويركبن الخيول والحمير، ويَسُقْنها سوقًا عنيفًا مع الضّحك والقهقهة، ومُداعبة المكارية[مؤجري الحيوانات] معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش؛ فتداخلن مع الفرنسيس لخضوعهم للنّساء، وبذل الأموال لهن.

وكان ذلك التداخل أولًا مع بعض احتشام، وخشية عار، ومبالغة في إخفائه؛ فلمّا وقعت الفتنة الأخيرة بمصر، وحاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات؛ وصِرْنَ مأسورات عندهم، فزينوهنَّ بزي نسائهم، وأجْروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، حتى كثرت الفواحش من النساء؛ مع ما حلَ بالمسلمين من: الذّل، والهوان، وسلب

(1) الجبرتي، مظهر المقدس، ص237.
(2) محمود شاكر، رسالة في الطريق، ص108.

الأموال، واجتماع خيرات الدُّنيا في حوز الفرنسيس، وشدّة رغبتهم في النساء، وخضوعهم لهن، ومُوافقة مُرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمنه أو ضربنه بتاسومقها[1] على قفاه، ولو كانت هي في غاية القبح؛ فطرحن الحشمة، والوقار، والمبالاة، والاعتبار، واستملن نظراءهن، واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصًا عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم، فيُظهر حالة العقد الإسلام، وينطق الشّهادتين؛ لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها.

وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات مُتزيّيات بزيّهم، ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية، والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها، أو معها بعض أترابها، وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القوّاسة والخدم، وبأيديهم العصي يفرجون لهنَّ الناس، ويُوسِّعون من أجل مُرورهن الطّرقات مثل ما يمرُّ الحاكم، ويأمرنَ وينهينَ في الأحكام.

ولمّا وفَى النّيل، ودخل الماء في الخليج وجرت فيه السفن، وقع عند ذلك من تبرّج النّساء، واختلاطهن بالفرنسيس، ومصاحبتهم لهنَّ في: المراكب، والرقص، والغناء، والشّرب في النهار والليل؛ في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهنَّ الملابس الفاخرة والحُلي، والجواهر المرصّعة، وصحبتهم آلات الطرب. وخَدَمةُ السفن يُكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصّوت في تحريك المقاذيف بسخائف موضوعاتهم، وكثائف مطبوعاتهم، وخصوصًا إذا دبَّت الحشيشة في رؤوسهم، وتحكّمت في عقولهم، فيصرخون، ويطبّلون ويرقصون، ويزمّرون، ويتجاوبون بمُحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم، وتقليد كلامهم شيء كثير.

وأمّا الجواري السّود فإنّهن لمّا علمن رغبة القوم في مطلق الأُنثى ذهبن إليهم أفواجًا؛ فرادى وأزواجًا، فنطط الحيطان، وتسلّقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن، وخبايا أموالهم، ومتاعهم وغير ذلك"[2].

ز. ادّعاء تملّك مصر، وفرنستها

كان من أهداف نابليون الرئيسة في احتلاله مصر هو تملّك مصر، وجعلها بلادًا فرنسيّة، وقد أظهر ذلك في أكثر من مناسبة، ومن ذلك:

---

(1) تاسموقها: أي بمداسها، والعياذ بالله من هذا الذل بدعوى التقدم. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص249، حاشية (1).

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص248-250.

1- في شهر (ذي الحجّة سنة1215 الموافق لشهر نيسان 1801) عندما هُزم الجيش الفرنسي في ثغر رشيد، حاول أستوف الخازندار وجرجس الجوهري القبطي وغيرهما تضليل أعيان مصر، بأشياء كثيرة، وادّعى أستوف أن الفرنسيين لا يكذبون، ثم إن أستوف حذّر أهل مصر، وطلب منهم جمع نصف الضريبة المفروضة عليهم، قال الجبرتي يذكر ما قاله أستوف الخازندار عن تمسك الفرنسيين بمصر: " ثم قال الخازندار: إنْ وقع من أهل مصر فشل، أو فساد عوقبوا أكثر من عام أول، واعلموا أنّ الفرنساوية لا يتركون الدّيار المصرية، ولا يخرجون منها أبدًا؛ لأنّها صارت بلادهم، وداخلة في حكمهم. وعلى الفرض والتقدير إذا غُلبوا على مصر، فإنّهم يخرجون منها إلى الصعيد، ثم يرجعون إليها ثانيًا. ولا يخطر في بالكم قلّة عساكرهم، فإنّهم على قلب رجل واحد، وإذا اجتمعوا كانوا كثيرًا. وطال الكلام في مثل هذه التمويهات، والأكاذيب والخرافات ... ثم قال الخازندار: القصد منكم مُعاونة الفرنساوية ومساعدتهم، وغلاقة نصف المليون"[1].

2- في شهر (محرّم سنة1216 الموافق لشهر أيار 1801)، وبعد أن اقترب جيش الدولة العثمانيّة الإسلاميّة من القاهرة بقيادة الصدر الأعظم، جمع أستوف الخازندار بعض المواطنين المصريين، ونصحهم بعدم الثورة على الفرنسيين، ثم أعاد تأكيد تملُّك فرنسا لمصر، فقال: "اعلموا أنّ أرض مصر استقرّ مُلكها للفرنسيين، فلازم من اعتقادكم لذلك، ورُكوزه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله، تعالى، ولا يغرَّنكم هؤلاء القادمون وقربهم، فإنّهم لا يخرج من أيديهم شيء أبدًا. وهؤلاء الإنكليز ناس خوارج حرامية، وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن، والعثمنلي [أي الجيش العثماني] مغترٌّ بهم، فإنّ الفرنساوية كانت من الأحباب الخاص للعثمنلي، فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشّرور، وإنّ بلادهم ضيّقة وجزيرتهم صغيرة، ولو كان بينهم وبين الفرنساوية طريق سالك من البر لانمحى أثرهم، ونُسي ذكرهم من زمان مديد"[2].

ح. إنشاء مجمّع علمي، واصطحاب بعثة علميّة

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص246-247.
(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص264.

المجمع العلمي المصريّ، الذي ادّعى المستشرقون وتلاميذهم أنّ نابليون أنشأه في مصر، وكذلك البعثة العلميّة التي ادّعوا أنّه اصطحبها معه هما كذبة لا أساس لهما من الصّحة، وذلك يتّضح من خلال الآتي:

1- لم ينشئ نابليون في مصر أيّ مجمّع علميّ، بل اصطحب معه مجموعة من العلماء. والمجمع العلمي المصريّ هو مجمع وطني، أسّسه الخديوي سعيد سنة (1859/1275) لخدمة الثقافة والعلم في مصر، ونشرهما فيها، وفي باقي البلدان العربيّة؛ إذ كانت مصر منهل طلبة العلم العرب، ولا تزال[1].

2- اصطحب نابليون معه بعثة علمية فرنسيّة مكونة من (122) عالمًا، كانت مهمّتهم دراسة جوانب الحياة المختلفة في مصر، حتى يستطيع السيطرة عليها، ثم إنَّ هؤلاء العلماء انسحبوا مع بقايا الحملة سنة (1216 / 1801). وقد واصلوا دراسة أحوال مصر في فرنسا خدمة للاستعمار الفرنسيّ.

3- البعثة العلميّة التي رافقت حملة نابليون كانت جزءًا من الحملة، وسلاحًا من أسلحتها، فعلماؤها هم الذين صمّموا القلاع، والثكنات العسكرية، وأقاموا مصانع القنابل، وآلات إطفاء الحرائق، وأشرفوا على تحصيل الضرائب، وإدارة شؤون الحملة التموينيّة. وبحثوا عن الآثار التاريخيّة، والكتب والمخطوطات، والوثائق المصريّة وسرقوها، وعن كنوز المسلمين ومجوهراتهم، ومدّخراتهم الثّمينة، وصادروها.

4- استوطنت البعثة العلميّة حارة الناصريّة في القاهرة، بعد أن طردت أهلها منها. وقد ذكر المؤرّخ عبد الرحمن الجبرتيّ بعض الأعمال التي كان المهندسون المرافقون للحملة يقومون بها من مثل: تقدير الضرائب على العقارات والمصانع، ومُرافقة كبار قادة جيش الاحتلال، فعندما قُتل "كليبر"، كان برفقته كبير المهندسين، وهو الذي استدعى جنود الحملة لملاحقة الشهيد سليمان الحلبي[2].

5- أشرف عدد غير قليل من أعضاء البعثة العلميّة، الذين رافقوا حملة نابليون، على نهب التراث الثقافي في مصر، وبخاصة المكتبات سواء أكانت عامة أم خاصة، كما نهبوا الآثار المصرية، فضلًا عن التراث الشعبي المصريّ من مثل: المزخرفات، والمُنمنمات، والأثاث، والأسلحة التاريخيّة، والرُّسومات، والثياب، وأدوات البناء، والزراعة وغيرها. وقد ذكر الجبرتي ذلك عَرَضًا في تاريخه، وكتاب مظهر التقديس، فعمليات الهدم التي كان يُنفذها جنود

(1) انظر: محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد(1297)، ص27.
(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص113، 130، 213، 220.

الحملة كان يُشرف عليها علماء من البعثة العلميّة، كلّ واحد منهم في مجاله الذي يهتم به[1]. ومن أدلة ذلك الكثيرة: أنَّ جريدة "المصري اليوم" نشرت يوم الجمعة (22رجب 1434 الموافق 2013/5/13) خبرًا بعنوان "شيخ الأزهر يطلب وقف مزاد على مخطوطة نادرة من القرآن سرقتها الحملة الفرنسيّة"[2].

ط. تحالف نابليون مع المورانة واليهود

سار نابليون على خطى أسلافه من حكام فرنسا، الذين كانوا يسعون إلى التحالف مع الأقليات الدينيّة غير المسلمة في المجتمع الإسلاميّ، وتجنيدهم لخدمة فرنسا في حربها ضد الإسلام والمسلمين، فالملك لويس التاسع-الذي مُنح لقب قديس؛ لكثرة حروبه ضد المسلمين-عندما قابل جماعة من الموارنة في بلاد الشام دعاهم إلى التحالف معه. وقال لهم: "نحن مقتنعون بأنّ هذه الأمة [جعل الطائفة المارونية أُمّة ليضخّمها ويُغريها بالتحالف] التي تُعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسيّة"[3].

عندما حاصر نابليون مدينة عكا سنة (1799/1213)، دعا اليهود للتحالف معه، والمشاركة في إقامة الإمبراطوريّة الفرنسيّة في المشرق الإسلاميّ مُقابل منحهم فلسطين، وطنًا لهم، وذلك قبل عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة "بازل" بسويسرا بأكثر من قرن من الزمن، فقد خاطب اليهود بقوله: "من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهوريّة الفرنسية في إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشّرعيين ... أيُّها الإسرائيليون، أيُّها الشعب الفريد ... انهضوا بقوة، أيُّها المشردون في التيه ... لا بدّ من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزي الذي شلّ إرادتكم لألفي سنة. إنّ فرنسا تُقدّم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل ... إنَّ الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به ... قد اختار القدس مقرًّا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة، التي استهانت طويلًا بمدينة داود، وأذلّتها.

يا ورثة فلسطين الشّرعيين: إنّ الأمة الفرنسيّة ... تدعوكم إلى إرثكم بضمانها، وتأييدها ضد كلّ الدخلاء"[4].

ي. حركة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسيّ.

(1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص104، 129، 248، 251-252.
(2) انظر: المصري اليوم، يوم الجمعة 2013/5/31.
(3) محمد السمّاك، الأقليات، ص74.
(4) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص25.

الحقيقة أنّ المسلمين في مصر لم يقبلوا للحظة واحدة الاحتلال الفرنسي، وقاوموه بكلّ ما لديهم من قوّة، واستمرّوا في جهادهم بكل السّبل المتاحة، فكانوا يفرحون إذا سمعوا أن خبر عن قتل الفرنسيين، أو إصابتهم بجروح يصرخون بهم، ويُهزّئونهم، كما أنّهم كانوا يقتلون كلّ مَنْ استطاعوا قتله منهم، وجمعوا التبرّعات لمساعدة بعضهم بعضًا في مواجهة الاحتلال، وكانوا يُنظّمون مظاهرات شعبية ضد الاحتلال وعملائه من النصارى ففي(شهر شوّال سنة 1214 الموافق لشهر آذار 1800) حدثت ثورة جهادية ضد الفرنسيين، فقتل المسلمون عددًا غير قليل من الفرنسيين ومن النصارى العملاء. وفي (شهر محرّم سنة 1215 الموافق لشهر حزيران 1800) تمكّن شاب مسلم ممّن تعلّموا في الأزهر الشريف، ومن مدينة حلب، وهو سليمان بن محمد أمين الحلبيّ، من الوصول إلى "كليبر"-خلف نابليون بنابورت في احتلال مصر-وقتله في دهليز بستان منزله، وذلك بعد أن أمضى واحدًا وثلاثين يومًا في ترصّده. وقد قتل الاحتلال الفرنسيّ سليمان الحلبيّ، شرّ قتلة، ثم احتفظوا بجسمه في متحف حديقة الحيواناتُ والنباتات في باريس، كما حفظوا جُمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس. واحتفظوا بالخنجر الذي قتل به "كليبر" في مدينة كركسون بفرنسا[1].

وعندما وصلت أخبار احتلال فرنسا لمصر إلى الحجاز انزعج أهلها، وقام الشيخ الكيلانيّ بحثّ الناس على الجهاد، والتبرّع بالأموال، ونصرة الدّين، وتمكّن من جمع نحو ستمائة مجاهد، سافروا إلى مصر، ولمّا وصل المجاهدون الصعيد انضم إليهم جملة من أهله، ومن أهل ينبع، وبعض الأتراك، والمغاربة، والغز، وهاجموا جيش الاحتلال الفرنسي. قال الجبرتي: "ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأنّ رجلًا مغربيًا عالمًا يقال له الشيخ الكيلانيّ، كان مجاورًا بمكّة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز، وأنّهم وصلوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجّوا بالحرم، وجرَّدوا الكعبة. وأن هذا الشيخ صار يعظُ الناس، ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرّضهم على نصرة الحق والدّين. وقرأ بالحرم كتابًا في معنى ذلك مؤلفًا، فاتّعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين، وركبوا البحر إلى القُصَير[2] مع مَنْ انضم إليهم من أهل يَنْبُع، فورد الخبر في أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممّن كان خرج مع غُزِّ مصر عند وقعة إنبابة، وركب الغزُّ معهم أيضًا، وحاربوا الفرنسيس، فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا، وثبت الحجازيون، ثم انكفوا لقتلهم،

(1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص183، 191 وغيرها؛ الزركلي، الأعلام، 133/3.
(2) القصير: ميناء بمصر على ساحل البحر الأحمر بينه وبين قوص خمسة أيام، وهي في محافظة البحر الأحمر. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 367/4.

وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا[1]، وصحبتهم حسن بين الجداوي[2]، وعثمان بيك حسن تابعه، ووقع بين الحجازيين والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع، ولم تقع نكاية في العدو بل ينفصل الفريقان بدون طايل "[3].

وفي (شهر شوال سنة 1214 الموافق لشهر آذار 1800) حدثت عدّة ثورات ضد الفرنسيين منها: ثورة المغاربة البلديين (أي ممّن ولدوا في مصر)، وجماعة من أهل الحرمين ممّن كان قدم مع المجاهد الكيلاني بقيادة رجل مغربي حيث جاهدوا الفرنسيين في منطقة البحيرة[4].

كما تبرّع العامة للمجاهدين المسلمين بكل ما يستطيعون قال الجبرتي: "وباشر السيد أحمد المحروقي وباقي التجار، ومساتير [الفقراء] الناس الكلف والنفقات والمشاكل لما في ذلك من المعونة للمجاهدين، وكذلك جميع أهل مصر، كل إنسان بنفسه وبجميع ما يملكه عن طيب قلب، وانشراح صدر، وأعان الناس بعضهم بعضًا، وفعل كلّ إنسان ما في وسعه، وطاقته من المعونة"[5].

وتمكن ثلاثمائة من عسكر الأرناؤوط من دخول مصر ومحاربة الفرنسيين، ففرح المسلمون بذلك، كما ثار أهل بولاق بقيادة الحاج مصطفى البشتيلي. قال الجبرتي: "وحضر جماعة من عسكر الأرناؤوط نحو ثلاثمائة كانوا ببعض القرى... ففرح الناس على قدومهم، وضجّت العامة لحضورهم، وتساءلوا فأخبروا أنهم حاضرون مددًا، وسيأتي جماعة بعدهم.

وأمّا بولاق، فإنّما قامت على قدم وساق، وتهوّر في ذلك وتشدّد الحاج مصطفى البشتيلي وهيّج العامة، فأخذوا الأسلحة، والعصي، والنبابيت، وذهبوا إلى وطاق الفرنسي الذي تركوه بساحل البحر وعند جماعة منهم للحرس، فقتل مَنْ أدركه أهل بولاق منهم، وفرّ مَنْ فرَّ، ونهبوا ما في الخيام والمتاع وغيره، ورجعوا إلى

---

(1) إسنا: مدينة كبيرة في محافظة الأقصر، جنوب مدينة الأقصر ب(55) كم. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 189/1.

(2) الجدّاوي هو: حسن بيك الجداوي، كان من الأمراء الشجعان، تولى إمارة جدة بالمملكة العربية السعودية فنُسب إليها، وجاهد الفرنسيين بمصر مدّة، ثم خرج للجهاد في بلاد الشام إلى أن استشهد بالطاعون سنة (1215هـ). وعثمان بيك هو أحد أمراء الجداوي. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 145 حاشية (3و4)؛ عجائب الآثار، 171/3.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص145.

(4) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص188.

(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص189.

البلد، وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنسيس، وأخذوا ما أحبّوا منها... واستعدّوا للحرب والجهاد"[1].

ما سبق، كان جزءًا من حركة الجهاد الشعبية الإسلاميّة ضد الاحتلال الفرنسيّ، أما حركة الجهاد الرسمية، فلم تتأخر؛ إذ رغم مُباغتة نابليون ولاية مصر بهذه الحرب، ونقضه المعاهدات التي كانت موقعة بين فرنسا والدولة العثمانيّة الإسلاميّة، فإنّ السلطان العثماني سليم الثالث لم يتأخّر في ردّ الفعل الجهاديّ، حيث كشف للعرب والمسلمين: كذب نابليون بادّعائه الإسلام، واحترام خليفة المسلمين، ومقدّساتهم، كما كشف أهداف حملته الحقيقيّة، وذلك في رسالة وجّهها إلى شريف مكّة المكرّمة دعاه فيها إلى حفظ الحرمين الشريفين، والتّأهب للجهاد ضد نابليون، و أعلمه أنّه باعتباره خليفة المسلمين بدأ بتجهيز جيش إسلامي لجهاد نابليون. وقد تحالف الخليفة مع عدو نابليون الأول في أوروبا المسيحيّة وهو بريطانيا.

وهذا يتضح من خلال قراءة ثلاثة نصوص مهمّة، هي: رسالة نابليون المليئة بالكذب والتضليل إلى الشعب المسلم في مصر، ورسالة السلطان سليم الثالث إلى شريف مكّة المكرّمة، ورسالة شريف مكّة المكرّمة إلى إمام اليمن.

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص191.

1- نصّ رسالة نابليون إلى الشعب المصريّ المسلم[1]

"بسم الله الرّحمن الرّحيم، لا إله إلّا الله، لا ولد له[2]، ولا شريك له في مُلكه. من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير[3] أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته[4]، أمير الجيوش الفرنساوية يُعرِّف أهالي مصر جميعهم: أنّه من زمان مديد، السّناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذلّ والاحتقار في حقّ الملّة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع البلص[5] والتّعدي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم.

وا حسرتاه، من مُدّة عصور طويلة، هذه الزُّمرة المماليك المجلوبين من بلاد الآبازا[6] والكرجستان، يُفسدون في الإقليم الأحسن، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلّها مثله، فأمّا ربّ العالمين القادر على كلّ شيء، فإنّه قد حتَّم على انقضاء دولتهم.

يا أيُّها المصريون، قد قيل لكم: إنّني ما نزلت بهذا الطرف إلّا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح، فلا تُصدقوه، وقولوا للمفترين: إنّني ما قدمت إليكم إلّا لكيما أُخلِّص حقّكم من يد الظالمين. وإنّني أكثر من المماليك أعبدُ الله، سبحانه وتعالى، وأحترمُ نبيه محمّد [صلّى الله عليه وسلّم]، والقرآن العظيم. وقولوا أيضًا لهم: إنَّ جميع الناس مُتساوون عند الله، وإنّ الشيء الذي يُفرّقهم من بعضهم بعضًا فهو: العقل، والفضائل، والعلوم فقط[7].

---

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص60-64؛ عجائب الآثار، 4/66-69 مع اختلاف في الألفاظ غير قليل، لكنه في المعاني بسيط.

(2) هذا النص وتحديدًا "لا ولد له"، اتّخذه نابليون ستارًا ليزيد تضليله للشعب المسلم في مصر، بادّعائه الإسلام. وهو لم يسلم أبدًا، بل جاء ليقضي على الإسلام.

(3) السر عسكر: أي القائد العام للجيش. وهو لقب نابليون.

(4) بونابرتية هو: نابليون بونابرت.

(5) البلص: الرّشاوي. وقيل: أخذ المال بغير حقّ، أو المال المأخوذ زيادة عن الضرائب. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ، ص38؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات، ص85.

(6) الآبازا هي: ناحية من جبل القبق كان يسكنها الكُرج. وهي اليوم جمهورية أبخازيا المسلمة، وهي تحت الاحتلال الروسيّ. والكرج: مدينة بين همذان وأصبهان، وقيل بلدة من نواحي الجبال بين همذان ونهاوند، وبلاد الكرج هي اليوم جمهورية جورجيا، وكانت تتبعها أبخازيا، وأجاريا. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص60حاشية (1)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/64؛ 4/446؛ المنجد في الأعلام، ص461.

(7) هنا يظهر نابليون مقياسًا غير مقياس الإسلام، فالله، سبحانه وتعالى، فضّل بعض الناس على بعض، كما فضّل الرُّسل بعضهم على بعض.

والمماليك، ما العقل، والفضائل، والمعرفة التي تُميزهم عن الآخرين؟! ويستوجب أنّهم يتملّكون وحدهم كلّ ما تحلو به الحياة الدنيا، حيثما يوجد أرض مخصبة، فهي مختصّة للمماليك، والجواري الأجمل، والخيل الأحسن، والمساكن الأشهى، فهذا كلّه لهم خالصًا.

إن كانت الأرض المصرية التزام المماليك، فَلْيُرونا الحجّة التي كتبها لهم ربّ العالمين؟! هو رؤوف، وعادل على البشر، تعالى.

من اليوم فصاعدًا، لا يُستثنى أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعقلاء، والفضلاء، والعلماء بينهم سَيُدبّرون الأمور، وبذلك يَصْلحُ حال الأمة كلّها.

وسابقًا في الأمور المصريّة، كانت المدن العظيمة، والخلجان الواسعة، والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كلّه إلّا الطمع وظلم المماليك[1].

أيها القضاة، والمشايخ، والأئمة، وأعيان البلد: قولوا لأمّتكم إنّ الفرنساوية هم –أيضًا-مُسلمون مُخلصون؛ وإثباتًا لذلك قد نزلوا في روميّة الكبرى، وخرَّبوا فيها كرسي البابا، الذي كان يَحُثُّ دائمًا النَّصارى على مُحاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أنّ الله، تعالى، يطلب منهم مُقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنساوية في كلّ وقت من الأوقات صاروا المُحبين الأخلصين لحضرة السلطان العُثْمّلي، وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه. وبالمقلوب المماليك امتنعوا من إطاعة السُّلطان غير مُمتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلًا إلّا لطمع أنفسهم.

طوبى ثمّ طوبى لأهالي مصر الذين يتّفقون معنا بلا تأخير؛ فيصلح أمرُهم، ويُعلى مراتبهم. طوبى –أيضًا-للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المُتحاربين، لكن الويل، ثمّ الويل للذين يَتَّحدون مع المماليك، ويُساعدونهم في الحرب علينا، فما يجدون طريق الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمرُّ بها عسكر الفرنساوي، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر وكلاء من عندها، لكيما يُعَرّفون المشار إليها أنّهم أطاعوا، وأنّهم نصبوا السنجاق الفرنساوي، الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية: كلّ قرية تقوم على العسكر الفرنساويّ تُحرق بالناس.

---

(1) هنا يُمارس نابليون أشدّ أنواع التضليل، ويضع أُسس "سياسة فرق تسد" الاستعماريّة.

المادة الثالثة: كلّ قرية التي تطيع للعسكر الفرنساويّ الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوي[1]، وأيضًا نصب سنجاق السلطان العثمنلي[2]، دام بقاه.

المادة الرابعة: المشايخ في كلِّ بلد ليختموا حالًا جميع الأرزاق، والبيوت، والأملاك التي تتبع المماليك، وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على: المشايخ، والعلماء، والقضاة، والأئمة أنَّهم يُلازمون وظائفهم. وعلى كلِّ أحد من أهل البلد أن يبقى في مسكنه مطمئنًا. وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ليشكروا فضل الله، سبحانه وتعالى، من انقراض دولة المماليك، قائلين بصوت عال: أدام الله إجلال السلطان العثمنلي. أدام الله إجلال العسكر الفرنساويّ، وأصلح حال الأمة المصريّة.

تحريرًا بمعسكر إسكندرية في 13 شهر مسيدور[3] سنة (6)، من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في (أواخر شهر محرم1213هجريّة [أي الموافق لشهر حزيران سنة 1798]. انتهى منقولًا بالحرف[4].

2- رسالة السّلطان سليم الثالث إلى شريف مكّة المكرّمة الشّريف غالب بن مساعد، يُعْلِمُه فيها بأهداف حملة نابليون، ويطلب منه المشاركة في الجهاد ضد نابليون.

قال بعد البسملة، وحمد الله، والثناء عليه، والصّلاة والسّلام على رسول الله، محمد بن عبد الله، صلّى الله عليه وسلّم[1]: "وبعد؛

---

(1) السنجق: العلم. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص136.

(2) سنجاق السلطان: أي علم الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة، وهذا الطلب هو تضليل وخداع للشعب المصريّ المسلم.

(3) مسيدور: هذا اسم شهر فرنسيّ، فقد اخترع الفرنسيون بعد ثورتهم شهورًا كان هذا منها، وهو عاشر الأشهر، ويوافق المدّة ما بين (20حزيران إلى 19 تموز) . لكن الفرنسيين ألغوا هذه الشهور سنة (1806/1221) وغادوا لاستخدام التقويم الغريغوري النصراني المعمول به حتى اليوم. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص64 حاشية(2).

(4) أوردت جُلَّ الرسالة –على ما فيها من ركاكة وغثاء-ولم أصلح منها شيئًا إلّا ما لا بد منه لفهم المكتوب. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص64 حاشية (3).

فهذا مرسومنا المبجّل الشريف، وخطابنا المُعظّم المُنيف، لا زال نافذًا بعون الله في سائر الأرجاء والأقطار، ما دام الفلك الدَّوار. أصدرناه مبنيًّا على نظيم فرائد التّحية والتسليم، ومنصوبًا على قلائد التبجيل والتكريم، مُحتويًا على قواعد صيانة الدّين، مُؤكّدًا لمعاقد حماية سُنن سيّد المرسلين، وآله، وصحبه أجمعين.

أصدرنا إلى عالي جناب الأمير، الأمجد المُبجَّل، الأجلّ الأوحد، المُقتفي آثار أسلافه الأشراف، من آبائه الغرّ، صناديد آل عبد مناف، وأجداده السعيدي السِّير، الجميلي الأوصاف، فرع الشّجرة الزّكيّة النبويّة، طراز العصابة العلويّة المُصطفويّة، قُرّة عين الزّهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الماجد حالًا، شريف مكّة المشرّفة، الشّريف غالب بن مساعد، لا زالت العناية الربّانية له ملاحظة، والكلاية الصمدانيّة عليه حافظة.

وإلى قدوة العلماء، وعمدة الفضلاء، نائب مكّة المشرّفة، وكافة السادات الأشراف الأجلاء الميامين، ومفتي المذاهب الأربعة، والعلماء، والأئمة المحترمين، ووجوه كافة المسلمين، من ساكني بلد الله الأمين، من حاضر وباد، وفقهم الله إلى سبيل الرشاد:

يُحيطون علمًا أنّ طائفة كفار الفرانسة، جعل الله ديارهم دارسة، وأعلامهم ناكسة، قد نقضُوا العهود، وخانوا مواثيق المعبود، وخرجوا من أطور الحدود، وهجموا على بدوان مصر وسكانها، على حين غفلة من أهلها، فمَلَكوا البلاد، وأفشوا الكفر والفساد، وخاضوا بحرَ الضّلال والطغيان، وتحشَّدوا تحت راية الشيطان.

---

(1) السلطان سليم هو: سليم الثالث بن مصطفى الثالث، عاش ما بين (1175/1761 و1222/1808)، عندما تولى السلطنة كانت أحوال الدولة مضطربة، إذ تحالفت روسيا والنمسا ضدها، وشنتا حربا طويلة ضد الدولة العثمانية، وقد استغلت فرنسا ضعف الدولة وانشغالها بالحرب مع روسيا والنمسا، فاحتلت مصر وحاولت احتلال الشام، وتمكن السلطان بمساعدة شريف مكة وبريطانيا من هزيمة نابليون. وقد حاول إصلاح الإنكشارية، فثارت عليه، فتنازل عن السلطة، وعُين مكانه السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد سنة (1223 / 1808)، وتوفي شهيدًا في السنة نفسها. انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، 658/4؛ خليل مردم، أعيان القرن، ص98؛ القرماني، تاريخ سلاطين، ص139؛ علي حسون، تاريخ الدولة، ص148.
والشريف غالب هو: غالب بن مساعد بن سعيد الحسني (ت1231/1816)، من أمراء مكة المكرّمة وأشرافها، وليها سنة (1202/1788) حارب الإمام سعود بن عبد العزيز ثم دخل في طاعته، استجاب لطلب السلطان سليم بمحاربة نابليون وحماية الحجاز، ثم استخدمه محمد علي باشا لقتال سعود بن عبد العزيز، ثم اعتقله، وأرسله إلى إستانبول، فنفي إلى مدينة سلانيك حيث توفي فيها. انظر: خليل مردم، أعيان القرن، ص127؛ الشوكاني، البدر الطالع، 4/2، الزركلي، الأعلام، 115/3.

وتمكَّن البغي في أحشائهم.(وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ)[1]، لا حاكمَ يردعهم، ولا دينَ واعتقادَ يجمعهم، يَعُدّون النَّهب غنيمة، والنميمة أكمل شيمة. قد اتفقت آراؤهم، وارتبطت أشوارهم[2]، على الهجوم على سائر بلدان المسلمين، وأقطار عباد الله الموحدين، بأنّ أهل الإسلام أقوياء، ولهم مزيد الصّلابة في الدّين، فإذا وصلنا أقطارهم، وحللنا ديارهم، فالضعيف منهم نُباشره: بالحرب، والضّرب، والقتل، والنهب. والقويُّ منهم ننصب له شرائك المكر، والحيل، حتى تطمئن خواطرهم، وتأمنَ ضمائرهم، إلى أن يقعوا في أشراكنا، ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا، ونُلقى بين سائر المسلمين المكائد الخفيَّة بالفساد، لإيقاع العداوة المُباينة للاتحاد، في أحوالهم وأديانهم.

ولم يعلموا، لعنهم الله، أنَّ الإسلام مغروس في قلوبنا، والإيمان ممزوج بلحمنا، ودَمِنا. أكفر بعد إيمان، أضَلال بعد هدى ؟!. كلّا وربّ الأرض والسماء،(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)[3]. وخصوصًا في طوائف العرب، لنبلغ فيهم أقصى مرام، وأعزّ مطلب، ونبذل الجهد في تخريج الرّعايا من الإسلام عن طاعة من وُلِّي عليهم من الحكام، حتى يكون لنا الصَّولة العظمى، ويصيرون الجميع[4] لنا مغنمًا، فينقطع بذلك سلك نظامهم، وينفصم عقد انتظامهم، فنملك حينئذ رقابهم وأموالهم، فإنّ العرب أسرع ما يُستولى على ديارهم؛ لتفرّقهم في أوديتهم من أقطارهم، وغفلتهم عن حزم أحوالهم، فإنّ أعظم ما يُشتّت جموع الإسلام، ويفُلّ حدَّ سنانهم عن الانتظام: هَدمُ قبلتهم، وحَرقُ مساجدهم، فإذا ظفرنا بأقطارهم، وهُدمت كعبتهم، ومَسجدُ نبيهم، وبيت مقدس عزّهم، انقطع أملهم، وتفرَّق شملهم، ومَلَكْنا ديارهم، فإنّ الأمور لا يدركها إلّا اتفاق الجمهور، فنقتُل جميع رجالهم، ومَنْ يعقل من صِبيانهم، فحينئذ نقتسم: ديارهم، وأموالهم، وأملاكهم، ونُحوّل بقيّة الناس إلى أصولنا وقواعدنا، ولِساننا، وديننا، فبه يُمحى الإسلام، وقواعده، وشرائعه، وتَنْدَرسُ رسومه، وآثاره من وجه الأرض: من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها، وعَربها، وعَجمها.

---

(1) الأنعام، 121/6.

(2) أشوارهم: مشورتهم، ويقال شاوره مُشاورة وشِوَارًا واستشارَه: طلب منه المَشُورة أي الرأي. اللسان: مادة شور.

(3) آل عمران، 8/3.

(4)هنا استخدم لغة أكلوني البراغيث، والأصل أن يُقال "يصير" من دون الواو والنون.

فهذا ما اتَّفق رأي الفرنسيس اللّعين من سوء المقاصد في المسلمين، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ﴾[1]، فلا يستطيعون صرفا ولا نصرا[2]، ونرجو الله أن يُعاملهم بعدله في قوله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[3]. فهذا حال الفرانسة في: إلحادهم، وجدالهم، وعنادهم، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[4]، فكيف لا يكون فرضًا على كلِّ أحدٍ من مسلم موحد، أن يُشمِّر عن ساعد الجد، ويبذل نفسه وماله في مرضاة الواحد الفرد، ويمتثل قول أصدق القائلين: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5]، ويكون رابحًا في بيعه عن الخسران، مُستبشرًا ببذل نفسه في سبيل الرَّحمن، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[6]. إلى غير ذلك من الآيات البيّنات، والأحاديث الصَّحيحة، المرويّة عن الثقات، مِمّا يَحُثّ على نصرة الدّين، ويلُمّ شعث الموحّدين، فالآن: يا شريفَ مكّة، ويا سادات الأشراف، وقادات العرب، وحماة الدّين، وكُماة المسلمين، وغزاة الموحدين، وأبطال الحروب، الماحين بصوارم عزمهم عن الدّين ظلام الكروب. يا رجال الغارات، ويا أركان الشريعة والعبادات، ويا حفظة الدّين والأمانات، ويا باذلين النُّفوس عند انتهاك الحرمات، ويا كافة إخواننا في الدّين، والذين هم لشريعة ربِّهم ناصرين: البدارَ، البدارَ إلى طاعة الملك الغفار؛ لمحافظة قبلتكم، ومَحْتِد نبيّكم، منشأ الإسلام، ومسجد نبيّكم عليه السّلام، ومواطن مُضاعفة

---

(1) التوبة، 98/9.
(2) هنا اقتباس من قوله تعالى:(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا)، الفرقان، 19/25.
(3) فاطر، 42/35.
(4) الصف، 8/61.
(5) آل عمران، 133/3.
(6) التوبة، 111/9.

عبادتكم من ساحة بيت الله الحرام، فالغيرةَ الغيرةَ، والحميّة الحميّة، من صولة أعداء الدّين، الذين هم عن كلِّ ملّة فارقين، ولكتب رسل الله مُكذِّبين، فشدُّوا عزائمكم للقائهم، واحفظوا جهاتِكم وسواحلكم، ومنافذ بلدانكم، وسارعوا إلى الرِّباط، إلى حدود الكفرة اللئام، ببندر جدّة، وينبع، وما والاهُما، مِمّا فيه صيانة المسلمين، وحفظ أعراض الموحدين، وكُونوا عباد الله إخوانا[1]، **(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)**[2]، وفي سبيل الله أنفقوا وتجمَّلوا، وكونوا كلمتكم واحدة، وأيديكم مُتناصرة، ولْتَكُن سيوفكم بارقة، وسهامكم راشقة، وأسنتكم في الطّعن مُتلاحقة، ومدافعكم صاعقة، ونبالكم إلى أفئدتهم مُتسابقة، ولتَقْصدوا بذلك إعلاء كلمة الدّين، والذبّ عن بيت الله، ومسجد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم.

ونرجو الله أنّكم مؤيدون بنصر الله، محفوظون بروحانية رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ولا يكون لكم تخلّف عن ذلك، ولا تراخٍ في حفظ تلك المسالك. ونحنُ في طرف السّلطنة السّنية، نَنْشُر رايتنا العليَّة. فبحول الله، وقوّته، وباهر عظمته، تَمْلكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة.

وقد سيّرنا عليهم شجعانًا لا يُبالون بالموت؛ لإعلاء كلمة الدّين، وغُزاةً يقتحمون على النّار؛ مَحبةً في دين الله، فنتعقّب بقدرة الله أدبارهم، لعلَّ الله يرزقنا هلاكهم، ودمارهم، فنجعلهم، إنْ شاء الله، **(هباءً منثورًا)**[3]، كأن لم يكونوا **(شيئًا مذكورا)**[4]. فبادروا أيُّها المسلمون إلى الرباط بجُدَّة وينبُع. ومَنْ تَخلَّف فقد عصى الله، وخالف أمرنا؛ فإنَّ ذلك أمرنا إليكم، وحتمنا عليكم. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[5]، واستجلبوا صالح الدّعوات من: عُجازكم، وصَالحيكم، وأفاضلكم عند البيت الحرام، وقد قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

---

(1) هذا جزء من حديث شريف، رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ... وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يَظلمُهُ، ولا يخذلُه...". مسلم، الصحيح، حديث رقم (4646).

(2) الأنفال، 46/8.

(3) الفرقان، 23/25.

(4) الإنسان، 1/76.

(5) آل عمران، 200/3.

وَأَنفُسِكُمْ﴾[1]. وقال عليه السلام: **"المؤمنون كالبنيان يشدُّ بعضهم بعضًا"**[2]. ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[3]، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يرُدُّوكم بعدَ إيمانكم كافرين، وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ، ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[4]، فالبدارَ البدارَ إلى ما أمرناكم من الرِّباط، والحذارَ من خلاف ذلك.

---

(1) التوبة، 41/9.

(2) هذا جزء من حديث شريف، رواه أبو موسى عن النبي، صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُه بعضًا، ثم شبّك بين أصابعه...". البخاري، الصحيح، حديث رقم (5680).

(3) المائدة، 119/5.

(4) آل عمران، 100/3-112.

هذا ما انتهى أمرُنا إليكم، لا زلتم مُوفَّقين بعون الملك المُعين، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وآله، وصحبه وسلَّم"[1].

(1) الشوكاني، البدر الطالع، 2/9-15.

أفكار رسالة السلطان

يلاحظ مَنْ يقرأ رسالة السلطان سليم الثالث، أنّها تضمّنت سبع أفكار أساسيّة، هي:

1-مقدّمة الرّسالة، وشملت، بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، ثلاثة أمور هي: تعظيم السلطان نفسه، ثم تعظيم الشريف غالب بن مُساعد، ثم مُخاطبة شرفاء مكّة المكرّمة، وعلمائها وسائر المسلمين فيها، وفي باديتها، مع إبداء الاحترام والتقدير لهم.

2-الإعلان عن حملة نابليون على مصر، والدّعاء عليهم، وهذه شملت أمرين مهمين هما: بيان سبب الحملة وهو: نقض العهود الموقّعة مع دولة الخلافة العثمانية الإسلاميّة، جراء طبيعتهم، وعدم وجود دين لهم يردعهم عن ذلك(كفرهم).

وبيان أهداف الحملة، وهي: البدء بمهاجمة أماكن الضعف في بلاد المسلمين، ومحاولة بثّ الفرقة بين المسلمين، وتحريض العرب على العثمانيين لكي ينفرط عقد قوّتهم، واستغلال تفرّق العرب في بلادهم الواسعة، وصعوبة الاتصال فيما بينهم، فيقتلون الضعيف، ويكيدون للقوي حتى ينالوا منه حاجتهم، ثمّ هدم الأماكن المقدسة للمسلمين(الكعبة المشرفة، والمسجد النبويّ، والمسجد الأقصى المبارك)، ثمّ القضاء على الإسلام والمسلمين من على هذه الأرض، وذلك بقتل الرجال، ومَنْ يعقل من الصبيان، ثم تحويل مَنْ يتبقّى إلى الدّين المسيحيّ، واللغة الفرنسيّة.

3-دعوة العرب في شبه الجزيرة العربيّة إلى الجهاد، بالدفاع عن الموانئ، وحماية الأماكن المقدّسة، ومُساندة جيوش الدولة العثمانيّة الإسلاميّة.

4-إعلان التفاؤل بالنصر، وشدّ أزر المسلمين.

5-اصدار الأمر إلى شريف مكّة المكرّمة، والأمراء جميعهم بالجهاد، وتحذيرهم من التخاذل وعواقبه.

6-الطلب من العجزة، والصّالحين، ومَنْ لا يستطيع الجهاد بالنفس، الجهاد بالدّعاء عند البيت الحرام.

7-ختم الرسالة بالدّعاء للمسلمين بالتوفيق والنّصر، والصلاة على النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم.

أسلوب الرّسالة

تمتاز رسالة السلطان سليم بمميزات عديدة، أهمها: سهولة الألفاظ، ووضوح المعاني، واستخدام السجع من دون أن يؤثّر على المعاني، بل في كثير من المواضع أضفى على الأسلوب نغمة موسيقية مؤثّرة، والإكثار من الاقتباس من الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة باللفظ والمعنى، وذلك يناسب الموضوع، ويخدمه وهو الجهاد في سبيل الله، تعالى، والإكثار من استخدام أساليب علم المعاني المختلفة في مواضعها المناسبة، والإكثار من استخدام الدّعاء.

وقد استجاب شريف مكّة المكرّمة لطلب السلطان؛ فجهّز جيشًا من سبعة آلاف مُجاهد، وأرسلهم للالتحاق بالجيوش العثمانيّة الإسلاميّة للمشاركة في جهاد الفرنسيين، ثمّ أرسل رسائل إلى أمراء وحكام الجزيرة العربيّة؛ يُعلمهم فيها بما حصل في مصر، وما يطلبه السلطان سليم منهم، وكان ممّن أرسل لهم رسائل، الإمام علي بن العباس، إمام بلاد اليمن، وهذا نص إحدى رسائله؛ إذ يُعْلمه بما حدث في مصر، ويطلب منه حماية ثغور اليمن، وإعلان الجهاد على الكفرة المعتدين من الفرنجة.

3- رسالة من شريف مكّة المكرّمة، غالب بن مساعد إلى مولانا الإمام المنصور بالله، علي بن العباس[1]، حفظه الله، وفي طيِّه كتاب السُّلطان السابق ذكره. ولفظ كتاب الشريف:

"الحمد لله الذي كلّ يوم هو في شأن، والصَّلاة والسلام على سيّد ولد عدنان، وعلى آلة الطاهرين، وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين. ثم نهدى مزيد سلام نشأ من خالص الفؤاد، وأعرب عن صدق المحبّة والاتحاد، مع تحيّات طاب نشرها من المآثر العظام، وبيت الله الحرام، وزمزم، والمقام إلى الحضرة الباهرة المنصوريّة، والعقوة[2] الزاهرة الهاشميّة، والسِّدة العليّة العلويّة، ساحة الخلافة اليمنيّة، واسطة نظام السّادة الحسنيّة، الجناب العالي الكريم، والمآب الغالي الوسيم.

أخينا الأكرم، وعالي الهمم، الإمام ابن الإمام، حضرة الإمام المنصور، وفّقه الله لصلاح الجمهور. ولا زالت العناية الربَّانية له مُلاحظة، والكلاية الصمدانيّة عليه

---

(1) الإمام المنصور بالله هو: علي بن العباس بن حسين القاسم. عاش ما بين (1738/1151 و1809/1224). ولد في صنعاء، وعاش وتوفي بها، وهو حادي عشر أئمة الزيدية في اليمن بويع بالإمامة بعد وفاة أبيه سنة (1775/1189) فتولّاها لخمس وثلاثين سنة. وخلفه ابنه المتوكّل على الله= =أحمد. وللمؤرّخ لطف الله الجحاف كتاب في سيرته هو "درر نحور الحور العين لسيرة الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين". انظر ترجمته: الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 459؛ العرشي، بلوغ المرام، ص70؛ فؤاد السيد، معجم ألقاب السياسيين، ص879؛ الزركلي، الأعلام،298/4.

(2) العقوة: ساحة الدار وما حولها. اللسان: مادة عقا.

حافظة، آمين بجاه سيِّد المُرسلين، وبعد إهداء شريف السلام، وإسداء واجب التّحيّة والإكرام، فالسؤال عن حالكم كثير، لموجب ما لكم عندنا من جميل الوداد الوافر. وإن سألتم عنَّا، فنحمده، سبحانه، على جزيل فضله، وعظيم امتنانه، طيبين بخير، وعافية، ونعمة من المولى وافية.

والذى نُبديه إلى مسامعكم العلية، وأفهامكم الزَّكية، من الأمور الحادثة في الوجود، وجزيل أحكام الملك المعبود، لموجب احتياج أهل الإسلام، إلى الترفُّهات عن نهج المهام، وترك حزم الأمور، وغفلتهم عن حفظ الثغور، حتى صار ما صار من شرذمة أهل البغي والإنكار، من التهجم على بلاد: أسكندرية، ومصر القاهرة، بجنود من البحر على سفاين مُتواترة، وهم طائفة من جمهور الفرانسة، والملّة الباغية التي بفضل الله أعلامهم ناكسة، لمشاهدتهم في أحوال المسلمين، ترك الثغور عن التَّحصين، فهجموا على تلك البلاد، فلم يجدوا لِجامِحهم مُدافع ولا رادّ، فأفسدوا كافة مَنْ بجوارها من العربان، بأنواع السياسة المُوهمة بأنَّهم من طائفة السُّلطان، وأبرزوا للبوادي كتبًا مزوَّرة بألفاظ عربيَّة، بتعظيم الله، ورسوله مُصدَّرة، حتى انقادوا له بالطاعة، ظنًّا منهم بأنَّهم من جنود الدولة المُطاعة.

وليس يخفى عليكم حال البوادي الطغام، الذين لا يعقلون ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾[1]، فسلكوا بهم الطريق، وصاروا للمشركين أعظم مُساعد، وأعزَّ رفيق، فجرى قَدُر ربِّنا، سبحانه، باستدراج جند الشيطان، أرباب الخيانة، بتملّكهم للقاهرة، ودخولهم إلى مصر بحكمته الباهرة، فلا رادّ لقضائه، ولا محيص عمّا ارتضاه، فهو الملك المختار، وله المشيّة فيما يختار، فحينئذ بلغ ذلك الخبر، حضرة سلطان الإسلام، أدحض الله بصوارم سطوته جنود اللئام، فجهّز عليهم من أبطال الأجناد، ما يعجز عن حصره جموع الأعداد، وسيَّر عليهم من جيوش الإسلام، ووزرائه العظام، وجعل مُقدّمهم الوزير الشهير الجزار أحمد باشا، بلَّغه الله من الخير ما شاء، فاجتمعت عليه طوائف العربان، وتحشَّدت تحت رايته كافة أهل الإيمان، وهرع إلى جهادهم المسلمون من كلِّ مكان، حتى أقطارنا الحرميّة[أي بلاد الحرمين الشريفين]، ظهرت منّا للجهاد سبعة آلاف، يَرِدُون في طاعة الله مَوارد الموت والإتلاف، ونرجو العظيم من فضله العميم، أن يؤيِّد بالنّصر أجناد الموحدين، ويُبدِّد بالقهر شمل الكفرة المُلحدين .

والحمد الله قد وردت إلينا الأخبار بتضايق حال المشركين من الحصار؛ لتزاحف جنود أهل الإسلام، وإحاطتهم بجميع المنافذ المصريّة والمسام، فانتظم أمر

(1) الحج، 40/22.

التجهيز، وانتدب لنصرة الإسلام كلَّ ذليل وعزيز، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وفى هذا الأوان ورد إلينا هذا الفرمان، الصادر إليكم منه صورتان، المُعلن بدواعي الفلاح، والمُحرِّض لكافة المسلمين على ما يُرجى منه النجاح، من استعداد القوة للمصادمة والكفاح، كما هو مُتحتِّم على أهل الإسلام، خصوصًا في مثل هذه الأيام، ومن أعظم الشيم والمروءة، امتثال قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2]، فبذل غاية المجهود؛ لمحافظة الثغور، وتحصين الحدود، والمرابطة في بلدان السواحل، والذبّ على الأديان بسهم المرامي، وبيض الصَّواهل، أمرٌ محتوم على كافة ملوك الإسلام، وسائر القبائل، فوصلكم صورة الأمر الشَّريف، والخطاب المنيف، وما القصد من إرساله إلّا تنبيهكم لحفظ البلاد، والتَّحذير من أرباب الكفر والعناد، كما هو مُصرَّح في الفرمان السُّلطانيّ، من ذكر مكايد الكفرة في جميع المغاني.

ولا يعزب عن فهمكم الثاقب، أنَّ ملوك الروم أحس بما يبنى الكفرة أمورهم من المعاطب، فحثّوا على المرابطة جميع المسلمين، وقوّوا ثغور بلدانكم بالتحصُّن الرّصين من البنيان، وتشييد بروج المناتق[3] بذوي البأس من الفتيان، فإنَّ بحر الهند تجرى فيه سفاينهم، وقد ظهرت فيه بأحد المواسم ضرايرهم، فيجب من عزيز جنابكم كمال التَّحري؛ لدفع مَفاسدهم، والاستعانة بالله، تعالى، في إدحاض مكايدهم.

ومن آكد اللَّوازم نشر هذين الفرمانين في كافة أقطار أوامركم، وأقصى ما يُحادِد بلدانكم، ومَحاكمكم.

هذا ما عنَّ لنا به الإخبار، لا زلتم في كلاية الملك السّتّار، وإن شاء الله، عن قريب نُفيدكم بمسرَّة نصرة الإسلام. فالمرجو من جنابكم عدم إخراجنا من الضمير المنير، بأسنى صحة أخباركم، لا سيّما تفيدون بما تجدَّد وحدث، وبلغكم من الإعلام والأخبار. ودُمتم سالمين، وبعين عناية الله ملحوظين، وصلّى الله على سيِّدنا محمّد، وآله، وصحبه، وسلّم. انتهى كتاب الشريف عافاه الله"[4].

---

(1) الفرقان، 44/25.
(2) الانفال، 60/8.
(3) المناتق: النتق: الرفع. والناتق: الرافع. والمقصود العالية، والمرتفعة. اللسان: مادة نتق.
(4) الشوكاني، البدر الطالع، 15/2-18.

2- انتشار المطابع[1]

دأب كثير من الدّارسين على اعتبار المطبعة التي أدخلها نابليون بونابرت إلى مصر في حملته عاملًا من عوامل النهضة، فيما الحقيقة أنّه لم يُطبع بها إلّا الأوامر والنواهي التي أصدرها نابليون، ومَنْ خلَفَهُ من القادة العسكريين في مصر، بعد هروبه منها، وأنّه تم إعادة المطبعة إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، التي لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع. " أحضر معه مطبعة "البروباجندا" [الدعاية] من إيطاليا؛ ليطبع بها بيانات التضليل للشعب المصري، تلك التي زعم فيها أنّه مسلم أكثر من المماليك ... ثمّ خرجت هذه المطبعة من مصر بخروج الحملة الفرنسية"[2].

وهذه المطبعة لا علاقة لها بتنمية الثقافة والأدب في مصر، أو غيرها من البلدان العربية، بل المطبعة التي كان لها أثر في ذلك هي مطبعة بولاق الأميريّة، التي اشتراها محمد علي باشا بأموال مصر، وقد بدأت عملها سنة (1235/1820)[3]. كما أنَّ مطبعة نابليون لم تطبع باللّغة العربية أي كتاب في أي مجال من مجالات المعرفة، ولم يذكر أيٌّ من الدارسين الذين يذكرونها أيًّا من الكتب التي طبعتها.

كما اعتاد هؤلاء الدّارسون على اعتبار لبنان مهد الطباعة في العالم العربيّ والإسلاميّ؛ لأنّ أول مطبعة أسّسها فيه الراهب الماروني عبد الله زاخر في بلدة الشوير سنة (1145/1732) من دون ذكر ما هي طبيعة هذه المطبعة، وما قامت بطباعته. والحقيقة هي: أنّها كانت مطبعة حجريّة، ولم تطبع إلّا الكتب الدينيّة المسيحيّة، وهي خلال ستين سنة لم تطبع إلّا أربعة وثلاثين كتابًا فقط، كلّها كتب دينيّة مسيحيّة، وكذلك كانت حال بقية المطابع الطائفيّة، بل إنّ بعضها كان يطبع بغير اللغة العربية مثل مطبعة قزحيا.

كما أنّ المطابع المتطوّرة في لبنان، أنشأتها الإرساليات والرّهبنات الدينية المسيحيّة الغربيّة في العقود (الخامس والسادس والسابع من القرن الثالث عشر الهجريّ/العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر الميلادي)، وكانت أغراضها بعيدة كلّ البعد عن الاهتمام بنشر المعرفة والثقافة العربيّة الإسلاميّة، بل ركّزت أعمالها في طباعة: الكتب الدينية المسيحيّة، وتوزيع الإنجيل في الشرق العربيّ الإسلاميّ، وخدمة الثقافة الإنجليزيّة والفرنسيّة، ونشر القصص والشعر المعرّب غير المفيد، فنشأ جمهور يميل إلى الهزل واللهو لا الجد والعمل النافع، وقلّما نقلوا

(1) انظر: لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر، 706/1؛ محمد كرد علي، خطط الشام، 86/4؛ محمد خفاجي، قصة الأدب في مصر، 17/3.
(2) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص24.
(3) انظر: محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص24.

موضوعًا نافعًا عن اللغات الأجنبيّة لإفادة القرّاء العرب الذين لا يعرفون تلك اللغات في موضوعات: العلم، والصناعة، والتمدّن، والاجتماع، فضلًا عن أنّ كثيرًا ممّا طُبع كان ردئ الطباعة، ومن غير فهارس، وشروح مناسبة. ولم تَطبع كتبًا علمية حديثة باللغة العربية إلّا بعد أن أدرك القائمون عليها أنّ نشر مبادئهم غير ممكن إلّا عبر الطباعة بالعربية، كما أنّه وعلى الرّغم من وجود ثمانين مطبعة في بلاد الشام إلّا أنّها قلّما طبعت كتبًا نافعة، أو اهتمت بمصلحة عامة الناس.

الحقيقة التي يجب أن يعلمها الجيل الناشئ هي: أنَّ أول مطبعة عربيّة دخلت إستانبول سنة (1722/1135) أي قبل عقد كامل من المطبعة في الشوير، وأنّها اهتمت بطباعة كلّ ما هو مفيد من كتب التراث العربيّ الإسلاميّ، كما طبعت كثيرًا من الكتب الدينية الإسلاميّة، ما أسهم في تنشيط الحركة العلميّة في الولايات العربيّة.

3- الصحف والمجلّات

سمحت الدولة العثمانيّة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار الصحف والمجلات في كلّ الولايات التابعة لها، وبخاصة العربيّة، وبلغات أهلها، فيما أصدرت هي في كلّ ولاية عربيّة صحفًا ومجلات باللغة العربيّة، أو باللغتين العربيّة والتركيّة، وذلك لأنّ الدولة العثمانيّة كانت تُدرك أهميّة الصحافة، وقدرتها على التأثير في الرأي العام، ويؤكد ذلك أنّ البعثة العلميّة التي شكّلها أهل الشام سنة (1915/1334) لزيارة إستانبول، وإعلان تضامن أهل الشام مع الدولة العثمانيّة الإسلاميّة في معركة "جناق قلعة"، ضمّت أصحاب أربع جرائد في بلاد الشام، وعندما التقى وفد البعثة العلميّة ولي عهد السلطان محمد رشاد، سأل ولي العهد كلّ واحد من أصحاب الجرائد عن جريدته، وقال:" إنّ خدمة الجرائد جليلة جدًّا، ولها التّأثير الكبير في الممالك"[1]. وكان الصحفيون والكتاب يتمتّعون بحريّة كاملة فيما ينشرون، وإن تجاوزوا الحدود، يتمُّ تحذيرهم أوّلًا، ثم يتمّ وقف الجريدة أو المجلة عن العمل، لكن يسمح لصاحبها بإصدار صحيفة أو مجلة أخرى. قال لويس شيخو: "وكان الأدباء في ذلك الوقت حاصلين على حرّيتهم، لا يُعيقهم في نشر المطبوعات عائق المراقبة. والجرائد تروي الأخبار كما تشاء، لا يُعترض عليها إلّا إذا خرجت عن طورها، وتعدَّت حدودها"[2]. وقال عن الحرية التي كانت تتمتّع بها المطابع، والتي يتمتع بها الصحفيون في النّشر: "وكانت المطابع السّوريّة في هذه البرهة [نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ / التاسع عشر الميلاديّ] سيّارة، الآداب تجري على حرّيتها، دون أن يضغط عليها المراقبون، ويقصّوا أجنحة أطيار الأفكار، فكان

(1) محمد الباقر، البعثة العلمية، ص65.
(2) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 6/2.

الصحافيّون يُعلنون الأخبار الجارية، ويُعربون عن آرائهم في إصلاح الأمور، وتلافي الشّرور، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم"[1].

وقد هاجر عدد من صحفيي وكتاب العراق وبلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إلى أوروبا أو مصر، وساعدهم الغرب المسيحيّ، والإرساليات التبشيريّة على إصدار صحف ومجلات، ونشر المؤلفات التي تُهاجم السلطان عبد الحميد، والدولة العثمانيّة، وتُثير الفتن الدينيّة، والعرقيّة بين المواطنين في دولة الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة. ومن ذلك أنَّ عبد المسيح بن فتح الله الإنطاكي أنشأ مجلة "الشُّذور" في حلب سنة (1315/1897)، فلمّا أوقفتها السلطة العثمانيّة؛ لتجاوزها الحدود المسموحة لها، هاجر إلى مصر وأصدر جريدة باسم "الشهباء"، ثم جريدة باسم "العمران" وذلك سنة (1316 /1898). وهاجر سليم قبعين إلى مصر سنة (1315/1897)، فأصدر صحيفة "الأسبوع" سنة (1318/1900)، ثم صحيفة "عروس النيل" سنة (132/1903)، وهاجرت مجلة المقتطف التي كانت قد أُنشئت في بيروت سنة (1293/1876) من بيروت إلى القاهرة بعد توسّعها، وزيادة انتشارها، وذلك بسبب عثرات أقامها أمامها الحسّاد، ما دفع الدولة العثمانيّة إلى وقفها عن العمل. وقد ذكر يوسف داغر، ولويس شيخو، ومحمد كرد علي وغيرهم كثيرًا من الصحف والمجلات وأخبارها[2].

وقد انتقد محمد كرد علي كثرة الصحف في بلاد الشام في مقال له نشره سنة (1328/1910)، واستسهال الناس لهذه المهنة ما أدى إلى إضعاف تأثيرها في المجتمع، ورأى أنّ بلاد الشام بحاجة إلى أربع أو خمس صحف ومثلها من المجلّات، تصدُر في أكبر مدن الشام مثل: القدس، ودمشق، وحلب، وبيروت، وتكون عالية الجودة، بدلًا من وجود نحو مائة صحيفة في الشام، أكثرها لا يساوي الورق الذي يطبع عليه، أو الوقت الذي يُبذل عليه؛ لخلوّها من الفوائد، وجرأة العامة على إنشاء الصحف، فما تكاد تظهر الصّحيفة حتى تختفي، كما أنَّ كثيرين اعتبروها وسيلة للتكسّب والتدجيل لا أداة وعظ، وتعليم، وإرشاد. وقال في قلّة تعلّم أصحاب بعض الصحف: "ولكن فن الصحافة في هذه الدّيار، الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها: العلم، والتجربة والمال، قد رأينا أُناسًا من الأغمار يدّعونه بدون خشية، وأكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلّات، دع عنك تأليفها، وإصدارها"[3].

---

(1) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 67/2.

(2) انظر: لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 6/2، 67؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة، 396/2؛ محمد كرد علي، خطط الشام، 84/4؛ عادل مناع، أعلام فلسطين، ص322.

(3) محمد كرد علي، خطط الشام، 84/4.

وأشار محمد كرد علي إلى سيطرة الدول الغربيّة المسيحيّة على الصحف والمجلات من غير ذكر أسمائها، ما يُبرّر هجرة ، بل هروب نصارى الشام إلى مصر، وإصدارهم الصحف والمجلات بكثرة غير معهودة، مؤكّدًا أنّ هذه الدول تعتمد في تعاملها مع هؤلاء مبدأ المكيافيلية وهو: "الغاية تُبرّر الوسيلة"، قال: "ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الدّيار منذ نشأة الصحافة الشاميّة كيف تستفيد من هذه القوة، فكانت تحتال في أول دور أن تُشرّف صاحب الجريدة برتبة ووسام، ومَنْ خالف الصّدع بأمرها تكسر قلمَهُ، وتُشرّده، وتسجنه، وتُنْزل عليه غضبها، وقد تجلّى ذلك في الثُّلث الأخير من الدور الحميديّ ... ولمّا جاءت الحكومات المنتدبة، وهي من أعرف الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تُقصّر في اتخاذ هذه النظريّة على طريقة جمعت –أيضًا- بين الرغبة، والرهبة، والعطاء، والمنع. ولم تَخْلُ الشام في كلِّ دور من أُناس باعوا في خدمة صاحب القوّة ضمائرهم شأنُ كلّ أُمّة جديدة في الحياة السياسيّة، ولكن ظهر ذلك جليًّا في صحافتنا؛ لأنّ الدُّعاة للقوة ضعاف، حتى في فهم ما انتدبوا إليه، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أوّل يوم يُسبِّحونَ بحمدِ مَنْ اسْتَهْووهم"[1].

ولا شك في أنّ نقد محمد كرد علي للدولة العثمانيّة كان بدافع إظهار الولاء لحكومة الملك فيصل، وتبرئة نفسه من رئاسته تحرير مجلة وجريدة باسم "المقتبس" في دمشق قبيل إعلان الدستور، كما أنّه تولى تحرير جريدة "الشرق" سنة (1916/1334) التي كانت تنطق بلسان قائد الجيش الرابع العثمانيّ، وزير البحرية أحمد جمال باشا الكبير، واستمرّ فيها حتى سقوط دمشق بيد الاحتلال البريطانيّ والفرنسيّ سنة (1918/1336).

رابعًا- المدارس

تضمّنت التنظيمات العثمانيّة التي بدأت سنة (1839/1255) سلسلة من الإصلاحات في مجالات الحياة كلّها، ومنها التعليم، وقد كانت الإصلاحات التي أصدرها الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، بعد توليه الخلافة بثلاثة أيام في خط همايوني (سلطانيّ) سنة (1876/1293) من أهم تلك التنظيمات، وبخاصة القانون الأساس الذي ضمَّ مائة وتسع عشرة مادة، حيث أقرَّ حرية التعليم، وجعله إجباريا على جميع أفراد الدولة. وقانون التعليم الخاص بالطوائف غير الإسلاميّة، حيث مُنحت تلك الطوائف حريّة إنشاء المدارس الخاصة بها، فظهر من المدارس غير الرسميّة ثلاثة أصناف هي:

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 82/4.

1- **المدارس الأجنبية:** وهي المدارس التي أنشأتها الإرساليات التبشيريّة الرّوسيّة، والأوروبيّة، والأمريكيّة، وتنافست هذه الإرساليات تنافسًا شديدًا فيما بينها لخدمة أهداف الدول التي تتبعها.

2- **المدارس التابعة للطوائف غير المسلمة في الدولة العثمانيّة.** وشملت أربع طوائف أساسيّة هي: طوائف النصارى العرب، والأرمن، والسريان، واليهود.

3- **المدارس الأهلية التابعة لأفراد أو جمعيات محلية.** وهذه شملت المدارس التي أقامها أفراد من رعايا الدولة، أو جمعيات متنوّعة.

وما يهمنا هنا هو الصّنف الأول، إذ تنافست الدول فيما بينها على إنشاء المدارس من خلال الإرساليات التبشيريّة، وكانت بداية تلك المدارس قد أُسّست سنة (1848/1265)، ولم تمض ثلاثة عقود على تأسيسها، حتى امتلأت البلاد الشاميّة بالمدارس، فوصل عددها إلى (1300) مدرسة، كان منها (501) مدرسة فرنسيّة، و(202) مدرسة تابعة لروسيا القيصريّة. وبذلك اضطرت روسيا إلى إنشاء معهدين لإعداد معلمين لمدارسها، فأنشأت الأول في الناصرة لإعداد المعلمين، والثاني في بيت جالا جنوبي القدس لإعداد المعلّمات. وأنشأت الولايات المتحدة الأمريكيّة الكلية الأمريكيّة سنة (1870/1287)، ثم أنشأ الآباء اليسوعيّون بمساعدة الفاتيكان وفرنسا الكلية اليسوعية سنة (1875/1292). كما أنّ تلك الدّول لجأت إلى ابتعاث بعض الطلبة المتفوّقين في مدارسها أو معاهدها في بلاد الشام، إلى الجامعات والمعاهد العليا في بلادها؛ لإكمال دراستهم، ثم ليكونوا حزبها في دولهم.

وكان معلمو كثير من المدارس التبشيريّة التابعة لأغلب الطوائف المحلية أو المدارس الأجنبية من البلدان التي تُشرف على هذه الجمعيات والإرساليات التبشيريّة، وبعضهم كان من طائفة الرّهبان أو الرّاهبات – مع ملاحظة أنّ هذا الأمر ما زال قائمًا حتى يومنا هذا، أي سنة (2017/1439). وكانت أغلب تلك المدارس تعلّم الدّين المسيحي، وتلزم الطلبة على الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد.

كما كانت بعض المدارس تستغل أية فرصة لجذب الطلبة المسلمين إليها، فعندما بدأت سياسة التتريك على يد حكومة "جمعية الاتحاد والترقي"، التي تشكّلت بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، زادت تلك المدارس اهتمامها باللغة العربية، من خلال زيادة حصص التعليم، وتعيين معلمين ذوي سمعة علمية جيدة، وإقامة نشاطات طلابية باللغة العربيّة، وكان هدفها ليس ما أعلنته حبّ اللغة العربيّة، و الحرص على تعليم الطلبة لغتهم القوميّة، بل كان هدفها هو: زيادة الخلاف بين العرب والمسلمين

في بلاد الشام ودولة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة، وقد حقّقت هذا الهدف، فنافست المدارس الرسميّة، وأقبل عليها الطلبة المقتدرون ماليًّا، فتمكّنت تلك المدارس من زيادة دخلها، وبالتالي رفعت مكانتها، وطوّرت نفسها في مجتمع كانت هي غريبة عنه في: اللغة، والدين، والتاريخ، والثقافة، والتراث. وازدادت قدرتها على نشر مبادئ وأفكار الدول الراعية لها، والتي تمثلت في:

1. إبعاد المسلمين عن دينهم، والعرب عن لغتهم وتاريخهم.
2. تقريب المسلمين والعرب من الثقافة الغربيّة المسيحيّة، وتحفيزهم على العمل من أجل إحلالها محلّ ثقافتهم العربيّة الإسلاميّة.
3. ابتعاث الطلبة المتفوّقين للدراسة في الجامعات والمعاهد المسيحيّة ما يجعل أكثر هؤلاء الطلبة لسان الجمعيات والإرساليات التبشيريّة التي ابتعثتهم، والدّول التي تعلّموا فيها، فكانوا أحزاب تلك الدّول، ومواطئ القدم لها، كما أراد نابليون بونابرت.

وقد أكّد سعي تلك المدراس إلى تحقيق الأهداف السابقة، أكثر من أديب ومفكر، ومعلم عربي؛ مسلمًا كان أم مسيحيًّا[1]، ومن ذلك:

1. **لويس شيخو**

شكا من مضاعفة أعداد المرسلين من اللاتين والأمريكيين في سوريا ولبنان، وحملاتهم المشوّهة للمذاهب المسيحيّة السائدة في الشرق، ومنها مذهبه اليسوعيّ الكاثوليكيّ. ولا شك في أنّ تلك الحملات كانت أشدّ عنفًا ضدّ الدّين الإسلاميّ. قال مُشيرًا إلى اتّخاذهم نشر المعارف ستارًا: "ويا حبّذا لو اقتصروا على هذه الغاية الشّريفة. ولم يتّخذوا العلم وسيلة لنشر المزاعم البروتستانتيّة، ومناوأة الدّين القويم"[1].

كما أنه أشار إلى المنافسة بين الأمريكيين والفرنسيين في إنشاء المدارس والكليات في سوريا ولبنان وذلك من أجل نشر مذاهبهم المسيحيّة، فنجاح الأمريكيين في إنشاء الكلية الأمريكية (الجامعة الأمريكية لاحقًا) سنة (1287/1870)، دفع الكاثوليك إلى إنشاء كلية كاثوليكيّة (جامعة القدّيس يوسف المعروفة باسم اليسوعيّة) سنة (1292/1875)، وتقوية مدارسهم في لبنان، وذلك بمباركة الفاتيكان وفرنسا، ومساعدتهما. قال عن تأثير نجاح الكلية الأمريكيّة في حثّ الكاثوليك على العمل: " وكان النّجاح الذي فاز به أصحاب الكلّيّة الأميركيّة باعثًا للكاثوليك على مزاحمتهم

(1) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر، 4/2.

لِيَصُونوا أبناء مِلّتِهم من الأضاليل البروتستانتيّة. وكان اليسوعيّون أول مَنْ تحفّز لمناهضتهم، فعزّزوا مدارسهم الثانوية في: غزير، وبيروت، وصيدا، ثمّ جعلوا يطلبون ما هو أنجع وسيلة لبلوغ أربهم بإنشاء كلية في بيروت تُباري كلية الأميركان، وتُقدّم لأبناء الشّرق مناهل العلوم صافية من كلّ رنق [ضيق وكدر] يُكدّرها. فما لبثت بعد أربع سنوات أن تشيّدت أبنية كلّيتنا الكاثوليكيّة، ونُقلت إليها مدرسة غزير سنة (1875) [أي سنة 1292ه]"[1].

وقد باركها، الفاتيكان بمنحها حقّ منح الدارسين فيها الشهادات الدينية، كما دعمتها فرنسا باعتماد شهاداتها ومعادلتها بما تمنحه جامعاتها من شهادات.

2. أنور الجندي

تحدّث عن الصراع الطويل بين بريطانيا وفرنسا ثقافيًّا على أرض مصر، حيث استخدمت كلّ منهما المدارس التبشيريّة، والمعاهد العليا، والجامعات، والصحف، والبعثات العلميّة، والترجمة وغيرها لفرض ثقافتها على الثقافة العربيّة الإسلاميّة في مصر، وسيلة لفصل مصر عن محيطها العربيّ الإسلاميّ.

وقد بدأت فرنسا محاولة فرض ثقافتها على مصر منذ احتلال نابليون لها سنة(1798/1212)، كما بدأت بريطانيا محاولتها عندما احتلت مصر سنة(1882/1299)، وتمثّل ذلك في تعيين مستشار لها في وزارة المعارف المصريّة، الذي بدأ بما سمّاه أنور الجندي "جلنزة" التعليم في مصر من خلال استبدال الأساتذة الفرنسيين في المدارس العليا بأساتذة بريطانيين، ورسم سياسة واسعة لاعتماد اللغة الإنجليزيّة لغة لتعليم المواد الأساسيّة في المدارس الابتدائيّة، والثانويّة، والعالية في مصر كلّها، ومنها مدرسة المعلمين العليا في القاهرة، التي كانت تتولّى إعداد المعلمين للتعليم في وزارة المعارف، حيث فرض عليها استخدام اللغة الإنجليزيّة، فكان لها:" أثرها الواضح في ظهور جيل جديد من المفكّرين، والكتّاب، والصحفيين، والمثقفين من أصحاب الثقافة الإنجليزيّة، وقد برز من هؤلاء: أحمد حافظ عوض، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد الرحمن شكري ..." [2]. وأنشأت بريطانيا كليّة باسم" فكتوريا كوليدج" سنة(1902/1319) على اسم ملكتها" فكتوريا" التي كانت توفيت سنة(1901/1318) وتخليدًا لذكراها. وكان الهدف منها صهر المتخرجين فيها، وفصلهم عن ثقافاتهم ومجتمعاتهم، وتثقيفهم الثقافة الإنجليزيّة.

(1) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر، 4/2.
(2) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص66.

وحرصت الكليّة على قبول أبناء الملوك، والأمراء، والأثرياء؛ لتأهيلهم لتولي الحكم في بلدانهم، مع تركيز القبول حسب الدّين، فقبلت في سنتها الأولى تسعين طالبًا مسيحيًّا، وسبعًا وستين يهوديًّا، وتسعًا وثلاثين مسلمًا " لتخريج شباب لـه ولاء بريطانيّ، يمكن أن يتولّى الحكم في العالم العربيّ"[1].

وقد وصف المفكر الفلسطينيّ المسيحيّ إدوارد سعيد حياته التعليميّة في "كلية فكتوريا" في كتابه " خارج المكان" فقال:" اتسمت حياتنا في" فكتوريا كوليدج" بتشوّهٍ كبير، لم أدركه حينها. كانت النظرة السائدة إلى التلامذة: أنّهم أعضاء تمّموا اشتراكاتهم في نخبة "كولونياليّة" [أي استعمار يفرض هيمنته الكاملة على الشعب الذي يحتلّه] مزعومة يجري تعليمها فنونًا "إمبرياليّة"[أي فرض دولة ذات قوة عسكرية واقتصادية سيطرتها على دولة ضعيفة] بريطانيّة قَضَت نَحْبَها، مع أنّنا لم نكن نُدرك ذلك تمامًا. علّمونا عن حياة إنجلترا وآدابها، وعن النّظام الملكيّ، والبرلمان، عن الهند وأفريقيا، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر، أو في أي مكان آخر، ولمّا كان الانتماء العربيّ، وتكلُّم اللغة العربيّة يُعدّان بمثابة جُنحة يُعاقب عليها القانون في" فكتوريا كوليدج"، فلا عجب أن لا نَتَلقّى أبدًا التعليم المناسب عن: لغتنا، وتاريخنا، وثقافتنا، وجغرافيّة بلادنا. وكانوا يمتحوننا بصفتنا تلامذة إنجليزًا، نجرُّ أذيالنا مُتخلّفين سَعْيًا إلى تحقيق هدف مُبهم ... ثمّ إنّي أدركت أنّ" فكتوريا كوليدج" قطعت نهائيًّا الأواصر التي تشدّني إلى حياتي السابقة، وأنّ ادّعاء أهلي أنّي مواطن أمريكيّ قد تَهافت، فقد بِتنا نُدرك جميعًا أنّنا دُونيّون نُواجه قوّة " كولونياليّة" جَريحة وخَطِرة، بل وقابلة لأن تُؤذينا، ونحن مُجبرون على تعلّم لغتها، واستيعاب ثقافتها لكونها هي الثقافة السّائدة في مصر"[2].

كما شهدت الجامعة المصريّة (جامعة القاهرة اليوم)، ومجمع اللغة العربيّة صراعًا ثقافيًّا كبيرًا بين المستشرقين الإنجليز والفرنسيين، وأتباعهما من المصريين. وقد أنشأت الدّولتان صحفًا ناطقة باسم كلّ منهما، وأوكلت لها نشر ثقافتيهما، كما سخّرت بعض الصّحف وكتّابها للهدف ذاته، فأنشأت بريطانيا صحيفة "الجريدة" لنشر ثقافتها والترويج لها، فيما قامت جريدة "المقتطف" ثم مجلة "المقتطف" الموالية للثقافة الإنجليزيّة بالعمل ذاته فكانت" من أكبر القواعد للثقافة البريطانيّة في الشّرق العربيّ؛ في عنايتها بالمفكّرين الإنجليز، والثقافة الإنجليزيّة"[3]. وعمل عملاء الثقافتين من المصريين على إنشاء مؤسّسات مختلفة خدمة للثقافة التي حملوها؛ فالشاعر أحمد زكي أبو شادي عندما عاد من بريطانيا إلى مصر أنشأ هيئة باسم"

(1) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص69.
(2) إدوارد سعيد، خارج المكان، ص233.
(3) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص66.

الاتحاد الإنجليزي المصري" لنشر الثقافة البريطانية في مصر، وما أسماه التفاهم والتقارب بين الشعبين، وكان يرى أن عمل الهيئة يساوي في قيمته جيشًا بأسره[1].

مقابل ذلك كان محمد علي باشا قد انفتح على الثقافة الفرنسية، فأرسل البعثات العلميّة، واستقدم الأساتذة، وبعض العلماء لبثّ عوامل النهضة في مصر، كما أنّ الخديوي (الخديوي: لقب منحه السلطان العثمانيّ لأسرة محمد علي باشا، ويعني نائب السلطان) إسماعيل أعطى امتيازات كبيرة للإرساليات التبشيريّة الفرنسيّة في مصر؛ فأنشأت مدارس كثيرة لنشر الثقافة الفرنسيّة، واستخدم أنصار الثقافة الفرنسيّة صحف " حزب الأحرار" المصري لنشر ولائهم وثقافتهم الفرنسيّة.

ولمّا وقعت الحكومة البريطانيّة معاهدة سنة(1354/1936) مع الحكومة المصريّة، شعرت فرنسا بخطورة ذلك على الموالين لها؛ فاستدعت الأديب طه حسين" وأنعمت عليه بأرقى نيشان، وعدد من الشهادات، وذلك حتى تجعل منه حاميًا لثقافتها في مصر، وقد أطلقت عليه الصحف إذ ذاك سفير الثقافة الفرنسيّة في العالم العربيّ"[2]. وقد ألف طه حسين كتابه" مستقبل الثقافة في مصر" سنة(1356/1938)، وقد دعا فيه إلى ما كانت تدعو إليه فرنسا، وهو ثقافة البحر المتوسط، القائمة على ربط البلاد العربيّة المطلة على البحر المتوسط بالثقافة الفرنسيّة بخاصة والأوروبيّة بعامة، ومن ذلك قوله: "فإذا لم يكن بدّ من أنْ نلتمِس أُسرة للعقل المصريّ نُقِرُّه فيها، فهي أُسرة الشّعوب التي عاشت حول بحر الروم [البحر المتوسط]، وقد كان العقل المصريّ أكبر العقول التي نشأت في هذه الرقعة من الأرض سنًّا، وأبلغها أثرًا"[3]. ودعا إلى إقامة الدولة المصرية على أساس المنافع، لا على أساس الدّين، واللغة، والتاريخ، والعرق، وبذلك تجاهل وجود الأمّة العربية والإسلاميّة، قال: "ومن المُحقّق أنّ تطوّر الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأنّ وحدة الدّين، ووحدة اللغة لا تصلُحان أساسًا للوحدة السياسية، ولا قوامًا لتكوين الدّول"[4]. ثم دعا إلى اعتبار مصر جزءًا من الغرب لا من الشرق، قال:" حتى يثبت لنا في وضوح وجلاء أنّ من السّخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءًا من الشّرق، واعتبار العقلية المصريّة عقلية شرقيّة كعقلية الهند والصين"[5].

وقد انتقل الصراع الثقافي بين بريطانيا وفرنسا، وأنصار ثقافتيهما إلى الأدب العربيّ، فعني كلّ منهم بترجمة الروايات، والقصص، والأشعار، والكتب عن اللغة

(1) انظر: أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص70.
(2) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص71.
(3) طه حسين، مستقبل الثقافة، ص22.
(4) المصدر نفسه، ص23.
(5) المصدر نفسه، ص24.

التي يتقنها، واتّهم كلّ منهم الآخر بخدمة الدولة التي يواليها، وكانت دعوة الطرفين إلى اعتماد الأدب الوجداني، والإنساني تهدف إلى إبعاد الأدباء والشعراء العرب والمسلمين عن القيام بواجبهم تجاه شعوبهم في: استنهاض هممها، وحثّها على الصمود، والمطالبة بحريّتها، ثم تحريضها على الجهاد ضد الاستعمارين الفرنسيّ والبريطانيّ للعالم العربيّ، من أجل التحرّر والوحدة، كما فعل الأدباء والشّعراء زمن حروب الفرنجة(الصليبيّة):" وهكذا امتدّ الصراع بين المدرستين طويلًا في مجال: الكتابة، والصحافة، والتربية والتعليم، والثقافة، بل إنّ الصراع بين الشعر الحديث والقديم كان يحمل طابع الخلاف بين المدرستين الفرنسيّة والإنجليزيّة...بل إنّ هذه المدرسة الحديثة المتصلة بالأدب الإنجليزيّ، قد اتهمت بأنّها حملت لواء الدّعوة إلى لون من الشعر يرتبط بالنفس الإنسانيّة، والطبيعة حتى تصرف الشعراء عن الوطنيّات التي تحمل طابع مقاومة الاستعمار البريطانيّ"[1]. واتّهم أنصار الأدب الفرنسي بالتهمة نفسها، عندما دعوا إلى الرومانسيّة والميوعة في الأدب:" فقد طبعت الأدب العربيّ في مطالع القرن باللون الرّخو الذي امتدّ إلى: القصة، والأغنية، والقصيدة. وكان قطعًا عاملًا عكسيًّا تجاه النهضة الوطنية الدّاعية إلى: الحرّيّة، ومقاومة الاستعمار، والاستبداد على هدى أدب القوة والتعبئة، والإيمان بالشخصيّة، وتحريرها من عوامل الضعف والوهن"[2].

من الآثار السلبية للمدارس والصحف

تركت المدارس الإرساليّة والتبشيريّة المسيحيّة التابعة للطّوائف كلّها آثارًا سلبية على المجتمعات العربيّة في الدولة العثمانيّة، سواء أكانت "إسلاميّة أم مسيحيّة. وقد اعترف كثير من المسيحيين، والمسلمين ببعض تلك الآثار، ومن هؤلاء:

1. سليم بن يوسف قبعين (ت1370/1950)، وهو مسيحيّ فلسطينيّ، من مواليد مدينة الناصرة، وتعلّم في معهد المعلمين الروسي، وأتقن اللغة الروسيّة، وترجم عنها أشياء كثيرة للعربية. وقال عن المدارس التبشيريّة: "أساءت تركيا في عهد وجودها، إلى فلسطين بتصريحها للأجانب بإنشاء المدارس المختلفة المبادئ والنّزعات، التي كانت ترمي جميعها إلى: أغراض سياسيّة، وتمزيق رابطة الاتحاد بين أبناء الوطن الواحد"[3].

(1) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص69-70.
(2) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص72.
(3) عادل مناع، أعلام فلسطين، ص322.

2. محمد كرد علي (ت1953/1372)، وهو مسلم سوريّ، من مواليد مدينة دمشق، رأى أنّ المدارس الطائفية، ومدارس المرسلين من الأمريكيين واليسوعيين وغيرهم كانت ذات مطامع في الأرض المقدّسة (بلاد الشام)، فَصبَغت مدارسها بألوانها السياسيّة والدينيّة، وبذلك سرقت من الشام روحها يومًا بعد يوم[1]، قال: "قد جعلت التربية متلوّنة، فأصبح كلّ مُتعلّم يخدم الغرض الذي أُنشئت له مدرسته، وانقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلّم أقسامًا، وتباعدت مسافة الخُلف بين أبناء البلد الواحد؛ لاختلاف المذاهب، بل للاختلاف في المذهب الواحد ممّا لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور"[2].

وذكر محمد كرد علي أثر اختلاف منازع المدارس الأجنبيّة على المتعلّم العربيّ والمسلم، إذ نزعت وطنيّته، وقوميّته، وجعلته لا عربيًّا ولا إفرنجيًّا، بل جعلته نصيرًا للدولة التي تتبعها المدرسة التي تعلّم فيها، وبهذا حقّقت تلك المدارس ما كان يحلم به "نابليون بونابرت" في حملته على مصر. قال: "لو أردنا أن نعدّد أسماء الجمعيات الدينيّة التي تُعلّم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقلّ عن ثمانين إرسالية، ومنها ما ينزع من المتعلّم حبّ قوميّته وبلاده. وكم رأينا رجالًا ونساءً درسوا في تلك المدارس، فجاؤوا لا عربًا ولا إفرنجًا؛ يتكلّمون في بيوتهم بغير لغتهم، ولا يشعرون شعور الشاميّ، بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم، ولذلك صحّ أن يُقال: إن تلك المدارس لم تنفع النّفع المطلوب، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأنْ هيَّأت لها في هذه الديار أنصارًا"[3].

3. نصري الجوزيّ (ت1996/1416) وهو مسيحيّ فلسطينيّ، من مواليد بيت المقدس، قال:" أخذت البعثات الأجنبيّة تغزو البلاد الشاميّة السّوريّة، وكانت تضمّ وقتئذ: لبنان، وسورية، وفلسطين، والأردن. وتؤسّس فيها المدارس والأديرة، والكنائس حُبًّا في خدمة دولهم الاستعماريّة، التي ترغب في نهب ثروات البلاد، ومحافظة على الطّرق التجارية إلى الشرق الأقصى"[4].

4. أسمى طوبى(ت1983/1403)، وهي مسيحيّة فلسطينيّة، من مواليد مدينة الناصرة، قالت: "ومهما كانت البواعث على اندفاع هذه البعثات إلى بلادنا:

---

(1) انظر: محمد كرد علي، خطط الشام، 4/72-74.
(2) محمد كرد علي، خطط الشام، 2/72.
(3) انظر: محمد كرد علي، خطط الشام، 2/72-73.
(4) نصري الجوزي، تاريخ المسرح، ص5.

إن سياسيّة، وإن دينيّة تبشيريّة... ومهمّا تألمّ أهل البلاد؛ لأنّ نشأهم يتطبّع في هذه المدارس بروح وأخلاق هما غير روحهم، وأخلاقهم، فإنّ الواقع يظلُّ واقعًا، وهو أنّ الأهلين الظّامئين للعلم أقبلوا على هذه المدارس ينهلون من وردها"[1].

5. خليل بيدس (ت1369/1949)، وهو مسيحيّ فلسطينيّ، من مواليد مدينة الناصرة، وقد عمل معلّما في المدارس الروسيّة الأرثوذكسيّة في كلٍّ من: حمص، وحيفا، والقدس، وبسكنتا، وسوق الغرب وغيرها، قال في جوابه سؤال نصري الجوزي عن طبيعة المناهج والتعليم في المدارس الروسيّة: "لا أكْتُمك أنَ الرّوس قبل الثورة (البلشفيّة) كانوا مُتديّنين جدًّا، وكانت مسرحيّاتهم كما تُسمّيها دينيّه بحتة، أو أخلاقيّة تُحثُّ على الفضائل الإنسانيّة، وفق الرّؤيا المسيحيّة"[2].

6. خليل السكاكينيّ (ت1373/1953)، وهو مسيحيّ فلسطينيّ، من مواليد بيت المقدس، وقد عمل مُعلّمًا، وموجّهًا تربويًّا في القدس، وعندما رأى حقيقة الأهداف التي تسعى المدارس التبشيريّة إلى تحقيقها، أسّس جمعية باسم "الجمعية التهذيبية" ثم أنشأ المدرسة الدستوريّة؛ لتسدّ حاجات أهل فلسطين. وقد أصدر بيانًا في ذلك، جاء فيه: "لمّا كانت أكثر مدارسنا تبشيريّة لا تنطبق على حاجات البلاد، ورغبات الأهالي، وكانت أجنبيّة مستقلّة، لا نستطيع أن تتقاضاها، أو العدول عن خطّتها، بل هي لو شاءت ذلك لانقطعت عنها الواردات؛ لأنّها قائمة من مال الإحسان إليها ... فلمّا كانت هذه حال مدارسنا، وكانت غاية الجمعية التهذيبيّة التي تأسّست يوم الأحد (4) تموز سنة (1909) الموافق[16 جمادى الآخرة 1327] العناية بالتّهذيب بما يتهيّأ لها من الأسباب، وما يتسنّى لها من الوسائل، وجّهت عزيمتها إلى تأسيس مدرسة تتلقّى حاجات البلاد، ورغبات الأهالي بقضائها"[3].

7. مارون عبّود (ت1382/1962)، وهو مسيحيّ لبنانيّ، من مواليد قرية "عين كفاع" قضاء جبيل. عندما تحدّث عن حملة نابليون، ذكر أن علاقة نصارى لبنان بفرنسا قديمة، وتمثّل دورهم في تأسيس الاستشراق من خلال تعليمهم اللغة العربية للغربيين، وفي خدمتهم الاستعمار الأوروبيّ من خلال العمل في الترجمة لدى جيوشه الغازية، قال: "فهذا الغريب الذي جاء مصرَ فاتحًا؟ لم

(1) أسمى طوبى، عبير ومجد، ص57.
(2) نصري الجوزي، تاريخ المسرح، ص9.
(3) نصري الجوزي، تاريخ المسرح، ص9.

يكن يجهله لبنان، بل عرف بلاده، وعرف لسانه حين كان يأخذ منه ويعطيه. تعلّمنا لغته، وعلّمناه لغة الضاد. وكراسينا الجامعيّة في عواصم الدّنيا لا يجهلها التاريخ؛ لأنّها ما زالت وطيدة القوائم. أجل كان اللبنانيّ رسول ثقافة بين الشّرق والغرب، فأنشأ في سفوح جَبَلِه، وعلى قممه مدارس تُعلّم لغات العرب على حقّها، قبل أن صاح الدّيك الفرنسيّ، فقلبت ثورته وجه المعمورة. وكان الذين تعلّموا في تلك المدارس تراجمة الأجنبيّ حين جاء مصر غازيًا، ثم انكفأ عنها بعدما ألقى فيها بذور علمه ومدنيته"[1].

8. عبد الله النديم (ت1313/1896)، وهو مسلم مصريّ، من مواليد الإسكندريّة، قال عن تلاميذ المدرسة المارونيّة (اليسوعيّة) والمدارس التبشيريّة بعامة، وعمّن يُثمّنون دور حملة نابليون على مصر، ويحتفلون بذكراها:" إنّهم الأجراء ... أضداد مصر والمصريين ... والمؤسّسين للفتن ... والمتردّدين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف ... فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين، واتّخذتهم أوروبا أدوات لتنفيذ آرائها، ووصولها إلى مقاصدها من الشّرق. وهي تحثّهم على المثابرة في عملهم باسم المدنيّة، وما هي إلّا التوحّش، والرّجوع إلى الحيوانية المحضة ... لقد نبتت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبيّ، فانفعلت لها أرواحهم، فكلّما حوّلتها عن وجهتها الغربيّة دارت إليها، فهي قبلة مُصلّاها، التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ"[2].

لم يقتصر خطر المدارس اليسوعيّة والتبشيريّة في لبنان على المارونيين، بل انتشر إلى الشام، فشمل نصارى الطوائف الأخرى، وبعض المسلمين، ثم تجاوز الشام إلى مصر، ففي (العقد السابع من القرن الثالث عشر الهجريّ/ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلاديّ) هاجر عدد من خريجي هذه المدارس إلى مصر، وأصدروا بمساعدة: فرنسا، وبريطانيا، والفاتيكان، وأمريكا، صحفًا ومجلات عديدة، وأنشأوا دورًا لنشر الأدب والثقافة، تحوّل أغلبها إلى منابر للتغريب، والتشكيك في الإسلام، والدّعوة إلى استخدام اللهجة العامية، وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، كما دعا بعضهم إلى القوميّة الفرعونيّة، أو السوريّة، أو الفنيقيّة بدلًا من العربية، وممّن تبنّى ذلك:

1- **أمين شميل** (ت1315/1897)، وهو مسيحيّ لبنانيّ، من مواليد كفر شيما قرب بيروت، وأول من دعا إلى استخدام العامية بدلًا من الفصحى.

---

(1) مارون عبّود، الرؤوس، ص286-287.
(2) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، ص26.

2- **شبلي شميل** (ت1335/1917)، وهو شقيق أمين، ودعا إلى الإلحاد عن طريق نشر فكر دارون، والفلسفة المادية، وعُرف ب"دارون العرب".

3- **فرح أنطون** (ت1340/1922)، وهو مسيحيّ لبنانيّ، من مواليد طرابلس، فسّر فلسفة ابن رشد تفسيرًا ماديًا، ودعا إلى ما سُمّي العلمانية.

4- **يعقوب صروف** (ت1345/1927)، وهو مسيحيّ لبنانيّ، من مواليد الحدث قرب بيروت. وفارس نمر (ت1370/1951)، وهو مسيحيّ لبنانيّ، من مواليد حاصبيا. وشاهين مكاريوس(ت1328/1910)، وهو مسيحيّ لبنانيّ، من مواليد إبل السقي في مرجعيون، وهو من كبار رجال الماسونيّة، ودعاتها، وألف كتبًا عديدة في الثناء عليها. وهؤلاء أصدروا مجلة المقتطف (1293/1876-1371/1952)، وبثوا من خلالها الإلحاد، كما أصدروا صحيفة المقطّم (1306/1889-1371/1952) لتكون منبرًا للاستعمار الإنجليزيّ في مصر.

وقد وصف عبد الله النديم مجلة المقتطف، ومُصْدريها بقوله: " أعداء الله، وأنبيائه، والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام مَنْ لا يدينون بدين، ممّن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية، والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكوّنات إلى المادة والطبيعية، مُنكرين وجود الإله الحقّ. وقدستروا هذه الأباطيل تحت اسم "فصول علمية"، وما هي إلّا معاول يهدمون بها عموم الأديان"[1].

كما وصف صحيفة المقطّم بقوله: "الجريدة الإنجليزية التي تصدر في مصر". ووصف أصحابها بقوله: "الأجراء ... الخونة ... عملاء الأجانب... الذين خانوا وطنهم وسلطانهم، وأهلهم، وخلّانهم... وذلك عندما داروا حول أبواب الإنجليز ... وأصدروا جريدتهم لشقّ عصا الاجتماع الشّرقيّ"[2].

(1) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، ص26.
(2) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، ص26.

الفصل الثاني

المذاهب (المدارس) الأدبيّة العربيّة

أوّلًا- المذهب العربيّ الأصيل.

ثانيًا- المذهب الرّومانسيّ.

ثالثًا- مدرسة الدّيوان.

رابعًا- جماعة أبولّو.

خامسًا- مدرسة المهجر.

الفصل الثاني

المذاهب (المدارس) الأدبيّة العربيّة

تقديم

دأب كثير من دارسي تاريخ الأدب العربيّ على وسم الأدب العربيّ في الحقبة الزمنية الممتدّة ما بين سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسيّة، تحت نير الاحتلال المغولي سنة (656 / 1258) والاحتلال الفرنسي لمصر وبعض الشام ما بين (1212/1798-1215/1801) بأبشع الصفات التي تُنفّر الدّارسين منه، وتجعلهم يعزفون عن مُجرّد التفكير في الحديث عنه، وأبسط تلك الصفات تتمثل في: عصر الانحدار، والجمود، وجفاف الفكر، وركاكة الأسلوب، وغلبة التكلّف والصّنعة عليه، والانغماس في ألوان البديع التي تُفقد المعاني قيمتها، والتلاعب بالألفاظ، والاقتصار على النظم في المناسبات، والإخوانيات، والابتعاد عن التعبير عن الذات والوجدان، وغيرها كثير، حتى ذهب بعض هؤلاء الدّارسين إلى إخراج العصور: التركيّ والجركسيّ(المُسمّى بالمملوكيّ)، والعثمانيّ من ركب الحضارة الإنسانيّة.

وبذلك أُسقط الأدب في هذه الحقبة من مناهج التعليم المدرسيّة، والجامعية في الكثرة الكاثرة من الدّول العربيّة، ومَنْ يُدرّسه لا يعطيه حقّه، كما أنّ أكثر الباحثين عزفوا عن دراسة الأدب، وتحقيق مؤلّفاته المخطوطة، بحيث أن ما تمَّ نشره وتحقيقه لا يُعطي فكرة سليمة عن حياة الأدب العربيّ في تلك الحقبة.

ذلك كان بتأثير من المستشرقين، الذين تتلمذ على أيديهم أوائل الأساتذة العرب في الغرب أو في الوطن العربيّ، ثم انتقلوا ليعملوا في الوطن العربيّ، واستمرَّ كثير منهم على صلاته مع أساتذته، فضلًا عن نشر أفكارهم، وكان هؤلاء المستشرقون يُدركون أهميّة الدول: التركيّة، والجركسيّة (سمّاها المستشرقون وتلاميذهم ظلمًا باسم المماليك)، والعثمانيّة، في المحافظة على الخلافة الإسلاميّة، مُوحّدة وجامعة للمسلمين في مواجهة: الغرب المسيحيّ، وروسيا القيصرية المسيحيّة وغيرهم من أعداء الإسلام، الذين عملوا إسقاط الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة، ومنذ ذلك التاريخ المشؤوم يوم الإثنين (27 رجب 1342 الموافق 1924/3/3)، يعيش المسلمون بكل أعراقهم، وألوانهم، ومذاهبهم ألوانًا من الذّل لا حصر لها؛ يُذيقهم إيّاها مَنْ أسقطوا الخلافة، ويعملون بكلّ الوسائل على منع عودتها بأيّ شكل؛ لأنّهم يعلمون فوائدها للمسلمين، ومخاطرها على غيرهم.

على أية حال، يرى أغلب دارسي الأدب العربيّ الحديث أنّ الأدب العربيّ، والفكر العربيّ بدأ مرحلة جديدة عندما كثر التمازج بين العرب والغرب، وأنّ بداية هذا التمازج القويّة كانت مع محاولة إمبراطور فرنسا "نابليون بونابرت" احتلال مصر والشام، تلك المحاولة التي استمرّت حوالي ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع، وما تبعها من أحداث في مصر والشام، وباقي أجزاء الوطن العربيّ والإسلاميّ.

كان من أهم نتائج تمازج العرب مع الغرب، اطّلاع العرب على آداب الغرب بعامة، والأدب الفرنسيّ، والإنجليزيّ، والأمريكيّ، والروسيّ بخاصة، وما يقوم به المستشرقون النّصارى، ومعاهد وكراسي الدراسات الشرقيّة، والعربيّة، والإسلاميّة، واللّغات، والتاريخ؛ منفصلة، أو في الجامعات من دراسات للتراث الإسلاميّ بعامة، واللغة العربيّة، والأدب العربيّ بخاصة، وتحقيق لأمّات الكتب التراثيّة، ودواوين الشعراء.

هذا الاطّلاع أدى إلى انبهار كثير ممّن درسوا في أوروبا، أو اطّلعوا على حياتها الثقافيّة، أو درسوا على المستشرقين، والمبشرين في الوطن العربيّ، فأصبحوا دُعاة تغريب وعملاء للمبشّرين، ناصبوا الإسلام، واللغة العربيّة العداء[1]، فحاولوا إحداث تغيير في الحياة الثقافيّة، والفكريّة، والأدبيّة في الوطن العربيّ، وهذا أدى إلى ظهور مذاهب، ومدارس في الأدب العربيّ عديدة، أهمها فيما يتعلّق بالموضوع: المذهب العربيّ الأصيل، و المذهب الرومانسيّ، والدّيوان، وأبولو، و مدرسة المهجر(الرابطة القلميّة، والعصبة الأندلسيّة). أمّا فيما يعلّق بالشّكل، فأهمها: الشعر المطلق، وقصيدة النثر، والشعر الحرّ أو المنثور، وشعر التفعيلة، ثم ظهرت جمعيات أدبية عديدة، ثم مهرجانات الشعر، ثم اتحادات للأدباء والكتاب في الأقطار العربية، كلٌّ على حدة مع اختلاف في التسمية في بعض الأقطار، ثم ظهر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، الذي يكون مقرّه عاصمة القطر الذي ينتمي إليه أمينه العام

أوّلًا: المذهب العربيّ الأصيل

وهو المذهب الذي سار فيه الشعراء على خطى سلفهم في العصور الأدبيّة السابقة، مع مُراعاة الفروق الفرديّة بين شاعر وآخر، وحاجات العصر الذي يعيشون فيه.

وقد سمّى الدارسون السابقون هذا الاتجاه بأسماء عديدة منها: الإحياء، أو البعث، أو المحافظ، أو التقليد، أو الكلاسيكيّة والإتباعيّة. وهذه الأسماء كلّها مأخوذ بالحرف عن الغرب، وما نشأ فيه من مذاهب أدبيّة، بالنّظر إلى تطوّره التاريخيّ،

(1) انظر: أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص64-65.

والاجتماعيّ، والدينيّ، والثقافيّ ومنه الأدب؛ فمن تعلّم في الغرب أو على أساتذة الغرب في الشرق من العرب، قاس تاريخنا كلّه على تاريخ الغرب، بما فيه الأدب، فأخذ ينقل المصطلحات والمسمّيات ويُلصقها على العصور الأدبيّة، مُغفلًا الفوارق الضخمة بين الغرب المسيحيّ، والشرق الإسلاميّ في كلّ شيء؛ وذلك فيه اتهام للحقبة التي أُلصقت بها هذه الأسماء، والحقب السابقة لها، وهذا يظهر من خلال توضيح مقصود كل اسم من تلك الأسماء؛ على النحو الآتي:

1. الإحياء

يبدأ الإحياء بالشاعر محمود سامي البارودي، ومَنْ سار على خُطاه من الشعراء العرب، مع وجود اختلاف في تحديدهم من قبل أغلب الدارسين في كلِّ قطر من الأقطار العربيّة. والإحياء يعني أنّ الشعر العربيّ قبل البارودي كان ميتًا، لا حياة فيه، فجاء البارودي وبعث فيه الحياة من جديد من حيث المضمون والموضوعات.

2. البعث

أي أنّ الباروديّ بعث الحياة في الشعر العربيّ من جديد، بعد أن كان جامدًا، وراكدًا، لا بل ميتًا طوال الحقبة التي حكم فيها العثمانيون البلدان العربيّة.

3. المحافظ

أي أنّ البارودي حافظ على: بناء الشعر العربيّ، وأوزانه، وقوافيه، وصوره، وبلاغته، ولغته من أن تتأثر بالمذاهب القادمة من الغرب.

4. التقليد

أي أنّ البارودي سار على خُطى شعراء العربيّة القدامى قبل المرحلة التي سمّوها مرحلة الانحدار، والانحطاط، والجمود، التي تبدأ سنة (656/1258)، ولم يأتِ فيما نظمه بشيء ممّا وفد على الأدب العربيّ من مذاهب الأدب الغربيّ، فهو قلّد شعراء العربيّة في كلّ شيء في عصر الازدهار.

5. الكلاسيكي أو الإتباعي

الكلاسيكيّ في اللغة مأخوذ من كلمة كلاسيك، المشتقة من الكلمة اللاتينية (كلا سوس). وهي تشير إلى الطبقة العليا من الشعب في روما، ولمّا كان الأدب وبخاصة الشعر يرتقي بأهله إلى منزلة رفيعة في المجتمع، هكذا كان عند العرب في

الجاهلية ولا يزال، كما هو عند باقي الأمم، فقد شبَّه الأدباء بالطبقة العليا، فأطلق عليهم لفظة كلاسيكي. ثم صارت كلمة كلاسيكي تُطلق على ما يُقتدى به من أدب رفيع.

وفي الاصطلاح هو: مصطلح غربيّ، له مفهوم خاص في الأدب الأوروبيّ، وقد أطلقه الغرب على الأدب الذي ظهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/ السابع والثامن عشر الميلاديين؛ لأنّه شكل تقليدًا للآداب الإغريقيّة واللاتينيّة القديمة، ومحافظة عليها، وإحياءً وبعثًا لها.

ويُلاحظ هنا أنّ هذه المصطلحات الخمسة هي لمسمى واحد هو الشعر الذي قاله البارودي وصَحبه، وأنّه يُمكن جمع بعضها مع بعض، كما يُلاحظ أنّ هذا المذهب ارتبط بشخص الشاعر محمود البارودي: وقد ظهر ذلك في أقوال كثير من الدارسين؛ فمحمد خفاجي اعتبر البارودي:" نجمًا لامعًا، وكوكبًا ساطعًا؛ ليجدّد للشّعر شبابه، ويُحيي له دوارس عروبته"[1]. ومحمد هدارة قال عنه:" أعاد إلى الشعر الأصيل نبض الحياة من جديد فيما يُشبه الإحياء الحقيقي"[2]. وأنور الجندي قال عنه:" أول مَنْ حمل لواء تحرير الشّعر، ونقله من مرحلة الرّكود التي مرّ بها خلال فترة طويلة تزيد عن أربعة قرون، وبذلك بدأت مرحلة جديدة للشعر العربيّ المعاصر: تُطلق عليها "مرحلة البعث والتقليد"، هذه المرحلة التي أنهت عصر الانحطاط"[3]. وعبد القادر القط قال عنه:" فشعره يكاد يُشبه في نسجه ومُعجمه، وبناء عباراته، وصوره، وأخيلته شعر الكبار من شعراء العصر العباسيّ، وشعر العذريين من شعراء الدّولة الأمويّة، ومع ذلك يتميّز بلمسات عصريّة تنمُّ عن انتمائه إلى العصر الحيث"[4].

(1) محمد خفاجي، حركات الشعر، ص12.
(2) محمد هدارة، دراسات في الأدب، ص20.
(3) أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص9.
(4) عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر، ص25.

مبادئ المذهب العربيّ الأصيل

اعتبر أكثر دارسي الأدب العربيّ هذا المذهب حركة بعث وإحياء قام بها الشّعراء: محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم وغيرهم –لأساليب الشعر العربيّ الأصيل الممتدّ ما بين العصر الجاهلي، والعصر العباسيّ حتى نهاية القرن الرّابع الهجريّ، مع بعض التجاوزات لشعراء عاشوا في القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ، وأحيانا في القرنين السادس والسابع الهجريّين /الثاني والثالث عشر الميلاديّين، مثل: أبو العلاء المعرّي، أحمد بن عبد الله (ت449/1057)، وابن القيسرانيّ، محمد بن نصر(ت548/1153)، وأبو المظفّر، عز الدّين، أسامة بن منقذ (ت 584/1188)، وبهاء الدّين زهير، زهير بن محمد (ت656/1258)، وغيرهم.

وأن هؤلاء الرّواد لم يثوروا على القديم، بل اتّصلوا به، فدرسوه، وحفظوه، واتّخذوه نموذجًا ينظمون على منواله، حتى بلغ إعجابهم به حدّ معارضته فيما أسموه المعارضات. وعليه فقد كان أتباع هذا المذهب يسيرون وفق المبادئ الآتية:[1]

1- المحافظة على أوزان البحور الشعريّة العربيّة، التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175/791)، وتلميذه الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة (ت215/830). وهي ستة عشرة بحرًا. والمحافظة على القافية.

2- استخدام أساليب الشعراء العرب في تلك الحقبة، واستيحاء أفكارهم، ومعانيهم، وأخيلتهم، وذلك عن طريق محاكاتهم ثم معارضتهم.

3- التّجديد في: الأساليب، والألفاظ، والصّور، والمعاني، والأخيلة بما يتناسب وسعيهم للتعبير عن أنفسهم، ومجتمعاتهم تعبيرًا مؤثّرًا.

4- نظم الشعر القصصي، والمسرحي، والفلسفي. وذلك مُجاراة لمتطلبات العصر، فأحمد شوقي طوّع الشعر العربيّ للمسرح، ونظم أول مسرحياته وهي "علي بيك الكبير"، ثم أعاد كتابتها بعد ثلاثين سنة تقريبًا بما يتلاءم

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص8؛ دراسات في الأدب العربي، 39/1، 301؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص32؛ عز الدّين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص23؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص7؛ محمد هدارة، دراسات في الأدب الحديث، ص21؛ مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد، ص207؛ إبراهيم السعافين، مدرسة الإحياء، ص126؛ عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني، ص7؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص27.

والعصر، ثمّ تطوّر فنّه الشعريّ، ونظم مسرحيات عدّة، كما طوّع الشعر للقصص التاريخيّ الحماسيّ، فنظم قصيدة "كبار الحوادث في وادي النيل " سنة (1894/1311)، وجاءت في (264) بيتًا، أرَّخَ فيها المجد الإسلاميّ، وجعل أبناء الأمة يَروْنَ الحاضر السيء بمرآة الماضي المُشرق، عندما استطاعت الأمة دحر الفرنجة (الصليبيين) وحملة نابليون. وقد ألقى أحمد شوقي قصيدته في مؤتمر المستشرقين في جنيف مندوبًا عن حكومة بلاده، وأوَّلها: (1)

همَّت الفُلكُ واحتواها الماءُ وحداها بمن تُقِلُّ الرّجاءُ

ضَربَ البحرُ ذو العُبابِ حوالي ها سماءً قد أكبرها السّماءُ

وَرَأى المارِقونَ مِن شَرَكِ الأر ضِ شِباكًا تَمُدُّها الدَأماءُ

وَجِبالاً مَوائِجًا في جِبالٍ تَتَدَجّى كَأنَّها الظلماءُ

وَدَوِيًّا كَما تَأهَّبَتِ الخَي لُ وَهاجَت حُماتَها الهَيجاءُ

ومنها

أشرَقَ النورُ في العَوالِمِ لمّا بَشَّرَتها بِأحمَدَ الأنباءُ

باليَتيمِ الأمّيّ وَالبَشَرِ المو حى إليهِ العُلومُ وَالأسماءُ

ومنها

أمَّةٌ يَنتَهي البَيانُ إليها وَتَؤولُ العُلومُ وَالعُلماءُ

جازَتِ النَجمَ وَاِطمَأنَّت بِأُفقٍ مُطمَئِنّ بِهِ السَنا وَالسَناءُ

ومنها في ذكر الحروب الفرنجية(الصليبيّة)

يَومَ سارَ الصَليبُ وَالحامِلوهُ وَمَشى الغَربُ قَومُهُ وَالنِساءُ

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/17-33. وانظر: أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص137؛ أحمد هيكل، الأدب الحديث في مصر، ص283.

بِنُفــوسٍ تَجــولُ فيهــا الأمــاني وَقُلــوبٍ تَثــورُ فيهــا الــدِماءُ

يُضــمِرونَ الــدَمارَ لِلحَــقّ وَالنــا س وَديــن الَّــذينَ بِــالحَقّ جــاؤوا

ومنها في دحر الفرنجة(الصليبيين)

فَتَلَقَّــتهُمُ عَــزائِمُ صِــدقٍ نُــصَّ لِلــدينِ بَيــنَهُنَّ خِبــاءُ

مَزَّقَــت جَمعَهُــم عَلــى كُــلّ أرضٍ مِثلَمــا مَــزَّقَ الظَــلامَ الضِــياءُ

ومنها يفخر بالأمة

هَكَــذا المُســلِمونَ وَالعَــرَبُ الخــا لــونَ لا مــا يَقولُــهُ الأعــداءُ

فَــبِهِم فــي الزَمــانِ نِلنــا اللّيــالي وَبِهِــم فــي الــوَرى لَنــا أنبــاءُ

لَــيسَ لِلــدُلّ حيلَــةٌ فــي نُفــوسٍ يَســتَوي المَــوتُ عِنــدَها وَالبَقــاءُ

ومنها في حملة نابليون

قــاهِرُ العَصــرِ وَالمَمالِــكِ نابــل يــونُ وَلَّــت قُــوّادُهُ الكُبَــراءُ

جــاءَ طَيشًــا وَراحَ طَيشًــا وَمِــن قَــب لُ أطاشَــت أُناسَــها العَلِيــاءُ

سَــكَتَت عَنــهُ يَــومَ عَيَّرَهــا الأَه رامُ لَكِــن سُــكوتُها اِســتِهزاءُ

فَهــيَ تــوحي إِليــهِ أَن تِلــكَ واتِــر لــو فَــأينَ الجُيــوشُ أيــنَ اللِــواءُ

ثم نظم أرجوزة بعنوان "دول العرب وعظماء الإسلام"، ومنها:[1]

الحمــــدُ للهِ القــــديم البــــاقي ذي العرش والسّبع العُلا الطِّباق

(1) أحمد شوقي، دول العرب وعظماء الإسلام، ص5. والأرجوزة: هي كل قصيدة نُظمت على بحر الرجز، حيث يجوز للشاعر تغيير قافية كل بيت فيها، لكنه يُعوض عن ذلك بالتصريع في كل بيت. والتصريع هو: أن تكون قافية الشطر الأول(الصدر) هي نفسها قافية الشطر الثاني(العجز).

الملـــــكِ المُنفـــــرد الجبّـــــار الـــــدائم الجـــــلال والإكبـــــار
وارثِ كـــلّ مالـــكٍ ومـــا مَلَـــكْ ومُهْلِـكِ الحـيِّ ومُحيـي مَـنْ هَلَـكْ
مُنـــزِل الـــذِّكر بخيـــرِ الألســـنِ مُشْـتملًا علـــى البيـــان الأحســـنِ
أوحـــي إلـــى رســـوله مـــا أوْحـــى مِـنْ كـلّ غـرّاءً تضـيء اللّوحـا
وقـصَّ أبنـاءَ القـرونِ فـي السُّـوَرْ مَوائـلَ الحسـنِ كأمثـال الصُّـورْ

5- نَظَموا الشعر الوطني والاجتماعيّ، وفي قضايا العصر، والمخترعات الحديثة، مثل: الطائر، والسيارة، والغواصة وغيرها، كما نظموا في أمجاد الإسلام، والدعوة إلى النهضة والتقدّم، ووصف مظاهر العمران.

6- اعتبار الشعر القديم النموذج الذي يجب دراسته وفهمه؛ ليكون قاعدة انطلاق نحو الحاضر والمستقبل؛ ولذلك أكثروا من مُعارضة قصائد مُختارة للشعراء العرب القدامى[1].

7- الاهتمام بتخَيُّر ألفاظ شعرهم، ومعانيه، وقوافيه، مع الحرص على الوحدة الموضوعيّة، والتجربة الشعوريّة، والمُواءمة بين الشعر والشعور، والفكر والعاطفة، والحقيقة والخيال. وقد أجمل محمد خفاجي خصائص هذا المذهب بقوله: "وأساس هذه الكلاسيكيّة أسلوب ملتزم، ومعنى جديد، وأغراض نابعة من الحياة"[2].

8- الدّعوة إلى التجديد، والانعتاق من القيود الثقافيّة والأدبيّة، وقد جاءت هذه الدّعوة بتأثير من الصراع الذي كان دائرًا بين دُعاة التغريب أنفسهم، وقد

(1) المعارضة: فن شعري عربيّ قديم، أساسه أن يُعجب شاعر بقصيدة شاعر سابق أو معاصر له، فينظم قصيدة له على نسقها مع الالتزام بالموضوع، والبحر، والقافية، والمباراة في اللفظ، والصياغة، ويكون لدى المعارض شعور بأنّه يملك القدرة على مُجاراة سلفه أو التفوّق عليه. واختلف الدارسون في تحديد نشأة هذا الفن وأهميته، وفوائده. لكنه ظهر في العصر الجاهلي، ثم تطور في العصر الأموي، وشاع في القرن السادس الهجري، واستمرّ بين هدوء ونشاط حتى أكثر منه شعراء المذهب العربي الأصيل (الإحياء)، فنشط نشاطًا واضحًا. انظر: أحمد مطلوب، معجم النقد العربي، 305/2؛ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص254.

(2) محمد خفاجي، دراسات في الأدب العربي، 302/1.

ذكر هذه الدّعوة حافظ إبراهيم، وعرّض بتقليد أساليب الشعراء القدامى، ودعا للتّغريب، لكنّه هو نفسه لم يَسِر في الطريق الذي دعا إليه، قال[1]:

ضِعتَ بَينَ النُهى وَبَينَ الخَيالِ ... يا حَكيمَ النُفوسِ يا اِبنَ المَعالي

ضِعتَ في الشَرقِ بَينَ قَومٍ هُجودٍ ... لَم يُفيقوا وَأُمَّةٍ مِكسالِ

قَد أذالوكَ[2] بَينَ أُنسٍ وَكَأسٍ ... وَغَرامٍ بِظَبيَةٍ أو غَزالِ

وَنَسيبٍ وَمِدحَةٍ وَهِجاءٍ ... وَرِثاءٍ وَفِتنَةٍ وَضَلالِ

وَحَماسٍ أراهُ في غَيرِ شَيءٍ ... وَصَغارٍ يَجُرُّ ذَيلَ اختِيالِ

عِشتَ ما بَينَهُم مُذالًا[3] مُضاعًا ... وَكَذا كُنتَ في العُصورِ الخَوالي

حَمَّلوكَ العَناءَ مِن حُبِّ لَيلى ... وَسُليمى وَوَقفَةِ الأطلالِ

وَبُكاءٍ عَلى عَزيزٍ تَوَلّى ... وَرُسومٍ راحَت بِهِنَّ اللَيالي

وَإذا ما سَمَوا بِقَدرِكَ يَومًا ... أسكَنوكَ الرِحالَ فَوقَ الجِمالِ

آنَ يا شِعرُ أن نَفُكَّ قُيودًا ... قَيَّدَتنا بِها دُعاةُ المُحالِ

فَارفَعوا هَذِهِ الكَمائِمِ عَنّا ... وَدَعونا نَشُمُّ ريحَ الشَمالِ

الحقيقة أن دعوة حافظ إبراهيم هذه إلى فك القيود عن موضوعات الشعر، (أغراضه وفنونه)، هي دعوة جاءت بتأثير طارئ ممّا كان يدور حوله، ولكنّه هو نفسه لم يلتزم بها، كما أنّه لم يَدْعُ إلى الخروج على الوزن والقافية. وذلك يظهر من مُطالعة سريعة لموضوعات ديوانه، فهي لا تخرج عن الموضوعات التي سردها في قصيدته، وهي: المدائح، والتهاني، والأهاجي، والإخوانيات، والوصف، والخمريات، والغزل، والاجتماعيات، والسياسيّات، والشكوى، والمراثي، وغيرها[4].

(1) حافظ إبراهيم، ديوانه، ص237-238.
(2) أذالوك: أهانوك، حقّروك: اللسان، مادة ذلل.
(3) مذالًا: مُهانا. اللسان: مادة ذلك.
(4) حافظ إبراهيم، ديوانه، ص3 وما بعدها.

من أعلام المذهب العربيّ الأصيل

على الرّغم من أنّ أكثر دارسي الأدب العربيّ الحديث يحصرون أعلام المذهب العربيّ الأصيل (البعث أو الإحياء وغيرهما من الأسماء) في عدد محدود من أسماء الشعراء، إلّا أنّ الواقع يتجاوز أولئك إلى مئات الشعراء الذين عاشوا في المائتي سنة التي أعقبت احتلال نابليون لمصر؛ وقد اخترت الحديث عن علمين من أعلام هذا المذهب، لا أستطيع تجاوزهما؛ لكثرة الدّارسين الذين ربطوا هذا المذهب بهما، ولشاعريتهما المتميّزة، وهما:

1. محمود سامي بن حسن حسني البارودي، عاش ما بين (1255/1838 و1322/1904)[1]

ولد محمود سامي البارودي في القاهرة، لأسرة جركسيّة تنتمي إلى الدولة التركيّة الجركسيّة، التي حكمت مصر ما بين (784/1382 و923/1517) والذين عُرفوا بالبرجيّة. ونِسْبَتُه إلى بلدة (إيتاي البارود) في محافظة البحيرة، حيث كان أحد أجداده مُلتزمًا[2] لها.

وكان والده حسن حسني ضابطًا في الجيش العثمانيّ بمصر، وترقّى حتى أصبح أميرًا للمدفعيّة، ثمّ عُيّن مديرًا لمديريّة دنقلة بالسودان، ولكنّه توفي إلى رحمة ربه، وابنه محمود سامي ما زال في السابعة من عمره، فتولّت أُمُّه تربيته، التي أحضرت له المعلمين الخاصين؛ فتعلّم: القرآن، والفقه، والعربيّة. وكان يسمع الشعر من خاله، فأحبّه، وأخذ يقرأ ما تيسّر له من: شعر، وأدب، وتاريخ في مكتبة العائلة.

وفي الحادية عشرة من عمره درس في المدرسة الحربيّة؛ فتخرّج فيها ضابطًا كأبيه، كما أتقن اللغة التركية التي كانت لغة التدريس في المدرسة الحربيّة.

---

(1) انظر ترجمته في: محمد خفاجي، حركات الشعر، ص11؛ قصة الأدب، 98/5؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص19؛ عمر الدسوقي، الأدب الحديث، 126/1؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة، 159/2؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص83؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص35؛ مارون عبود، رواد النهضة، ص109.

(2) الملتزم: هو الشخص الذي يلتزم أمام الدولة بدفع المقرر من أعشار محاصيل مناطق محدد مقابل منحه حق تحصيل ذلك من رعاية تلك المناطق. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص215.

لم تنقطع صلة البارودي بالشعر العربيّ في المدرسة الحربيّة، لكنّها وجّهته إلى شعر الحماسة والفخر، فكان يقرأه في دواوين كبار شعراء العربيّة، ويحفظه، وينشده، فما لبث أن نبغ في الشعر، ولمّا يبلغ السادسة عشرة من عمره.

وقد ترقّى محمود سامي البارودي في جيش الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، وشارك في الجهاد ضد أعداء الدولة في حروب عديدة منها: الحرب مع روسيا القيصرية، والبلقان (والبلقان كلمة تركية تعني الجبل)، وحرب جزيرة كريت، وحصل على رتبة لواء.

ثم عمل في الوظائف المدنيّة، فالتحق بوزارة الخارجية في إستانبول وفيها زادت معرفته بالتركيّة، واطّلع على آدابها كما أتقن الفارسيّة، ولمّا زار الأستانة الخديوي إسماعيل اتّصل به البارودي، فأُعجب به، وضمّه إلى حاشيته، فعاد معه إلى مصر، وأخذ يفخر بنفسه. وابتعثه الخديوي إسماعيل إلى فرنسا في مهمة عسكريّة، ثم إلى بريطانيا، فزادت خبرته العسكرية، ورقّاه الخديوي إسماعيل حتى حصل على قيادة الفيلق الرابع من الحرس الخاص. ولمّا تمرّدت جزيرة كريت أرسله الخديوي إسماعيل على رأس كتيبة للمشاركة في إعادة الهدوء والاستقرار للجزيرة، فأبلى بلاء حسنًا، وفيها بدأ حنينه إلى مصر. ووصف الجزيرة، والمعارك التي خاضها، ومنحه السلطان العثماني وسامًا رفيعًا، أما الخديوي، فجعله من خاصته، ثم أمينًا لسّره، فرافقه اثنتا عشرة سنة، عاش فيها حياة رغد وهناء، فتغنّى بمصر، وطبيعتها، وآثارها.

ثم لمّا أعلنت روسيا القيصرية والنّمسا حربهما على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، قاد حملة عسكرية للمشاركة في الدّفاع عن حياض دولة الإسلام، فكافأه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بوسامين، ورتبة لواء لجهاده، وذلك على الرّغم من الهزيمة التي لحقت بالدولة العثمانية. وفي هذه الحرب ثار حنينه لمصر، ووصف الحرب التي خاضها في البلقان.

لمّا عاد إلى مصر بعد حرب البلقان انقطع للعمل المدني، فعُيّن مديرًا للشرقية، ثم محافظا للقاهرة، ثم عُيّن مديرًا للأوقاف، ثم وزيرًا للحربيّة، ثم رئيسا للوزراء، وعَيّن هو أحمدَ عرابي وزيرًا للحربيّة في الحكومة التي شكّلها، وازداد تدخل الإنجليز في شؤون مصر، حتى اجتاحوا الإسكندرية، فاضطر البارودي لتقديم استقالة وزارته، ونَصح وزير حربيّته أحمد عرابي بعدم الثورة، لكنّه رفض فأيده البارودي خفية، فكان أن احتلت بريطانيا مصر، وقامت بنفي البارودي وأحمد عرابي وأعوانهما إلى جزيرة سرنديب (سيريلانكا اليوم).

كان للمنفي آثار واضحة في حياة البارودي، إذ قضى فيه سبعة عشر عاما؛ منها سبعة أعوام في مدينة "كولومبو" مع زملائه، ثم رحل عن أغلبهم إلى مدينة "كندي"، فأمضى فيها بقية مُدّة النفي، وفي هذه الأعوام سيطر الحزن على البارودي، وزاد من حزنه بُعده عن أصدقائه في "كولومبو"، حيث أصبح يشعر بالوحدة في "كندي"، ثم توالي الأخبار عليه بوفاة بعض أصدقائه في مصر، ثم بوفاة زوجته، وابنته، وابنه، فقال فيهم رثاء حارًا، صادق العاطفة، وحنّ إلى وطنه مصر، فصوّرها أحسن تصوير. وقد أمضى مدّة نفيه في: القراءة، ونظم الشعر، وتعليم سكان جزيرة "سرنديب" اللغة العربيّة والدّين الإسلاميّ، كما أنّه تعلّم اللغة الإنجليزية.

وفي أخريات حياته أصيب بمرض شديد؛ فنصح الأطباء بعودته إلى مصر سنة (1900/1317)، فلزم بيته، ونقّح ديوانه، وأعدّه للطبع، كما رتّب مختاراته الشعرية، التي هي قصائد لثلاثين شاعرًا، بدأها ببشار بن برد (ت784/168)، وختمها بابن عنين، محمد بن نصر الله (ت1233/630). وقد جعل بيته منتدىً للأدب حتى توفاه الله سنة (1904/1322).

شاعريّة البارودي

مال محمود سامي البارودي إلى الشعر في صباه، فكان يحضر مجالس الأدب، ويسمع ما يُلقى فيها، ويقرأ على الأدباء، ثم اشتغل بقراءة دواوين كبار شعراء العربيّة. وصادف ذلك موهبة متدفّقة، مع بعض وراثة الشعر من أخواله، فنظم الشعر وهو فتى، ثم أصبح علمًا من أعلام الشعر العربيّ، وقد أشار إلى وراثته الشعر بقوله في ذكر خاله إبراهيم الذي كان شاعرًا:[1]

أنا في الشعر عريقٌ لم أرثه عن كلالهْ

كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقالهْ

مفهومه للشعر

رأى محمود سامي البارودي أنّ الشعر ومضة تلمع في فكر الشاعر، فتسري إلى قلبه، فينطقها لسانه. أي أن الشعر لا يحتاج إلى إعمال فكر وصناعة، بل هو يفيض على صاحبه فيجري مع طبعه قال: "وبعدُ؛ فإنّ الشّعرُ لمعةٌ خياليّة يتألّف وميضُها في سماوة الفكر، فتنبعثُ أشعّتُها إلى صحيفة القلب، فيفيضُ بلألائها نورًا

(1) محمود البارودي، الديوان، ص485.

يتّصلُ خيطُه بأسلّةِ [طرف] اللّسان، فينفثُ بألوانٍ من الحكمةِ، ينبلجُ بها الحالك، ويهتدي بدليلها السّالك"[1]. وقال في ذلك شعرًا:[2]

أقــولُ بطبــع لســتُ أحتــاجُ بعــدَهُ إلــى المنهــل المطــروق، والمــنهج الــوعر

ولـي مـن جنـاني –إن عزمـتُ-ومِقـولي سـراجٌ وعضـبٌ ذا يضـيءُ وذا يفـري

إذا جـاشَ طبعـي فـاضَ بالـدّرّ منطقـي ولا عجــب فالــدُّرُّ ينشــأُ فــي البحــر ج

(1) محمود البارودي، الديوان: مقدّمته، ص33.
(2) محمود البارودي، الديوان، ص203.

صفات الشعر الجيد

بناء على فهمه للشعر، حدّد محمود سامي البارودي الشعر الجيد، بأنّه الذي يتّصف بأربع صفات هي:[1]

1- الألفاظ القوية البعيدة عن البداوة (المعاصرة).

2- المعاني الظاهرة الواضحة البعيدة عن الغموض والإبهام.

3- البعد عن التكلّف، وقرب الغرض.

4- سهولة الفهم.

وظيفة الشعر

حدّد محمود البارودي ثلاث وظائف للشعر هي: [2]

1- تهذيب النفوس والعقول.

2- تدريب الأفهام على الأساليب السهلة المؤثرة، والمعاني الواضحة.

3- تنبيه الخواطر والعقول إلى مكارم الأخلاق.

وهو بذلك يبتعد عن الوظيفة التي دعا إليها أصحاب المذاهب التي أتت بعده، أولئك الذين اعتبروا وظيفة الشعر الأولى محصورة في التعبير عن ذواتهم بصدق، بعد خوضهم تجارب شعورية خاصة.

(1) انظر: محمود البارودي، الديوان: مقدّمته، ص34.
(2) انظر: محمود البارودي، الديوان: مقدّمته، ص33.

العوامل المؤثّرة في شاعريته

أسهمت خمسة عوامل في تشكيل شاعرية محمود سامي البارودي، هي:

1- عِرقه الجركسي، وأسرته الثريّة، وجهاده، والوظائف السياسيّة التي شغلها، أكسبته حدّة في المزاج، وطموحًا واسعًا، وميلًا كبيرًا لحياة الفروسيّة والحرب، وجعلته يفخر بنفسه ويصف المعارك التي خاضها وصفًا صادقًا.

2- ثقافته العربيّة الخاصة من خلال قراءاته الأدب والتاريخ، جعلت أسلوبه قويّا وواضحًا، مع استدعاء التراث العربيّ الإسلاميّ في شعره، كما دفعته لمعارضة كبار شعراء العربية.

3- قراءاته في اللغتين التركيّة والفارسيّة وآدابهما، ثم إتقانه الإنجليزية في منفاه.

4- زياراته بعض الدول الأوروبيّة، وإستانبول والسودان، ومنفاه فضلًا عن تجواله في ربوع مصر ما جعله يُبدع في وصف الطبيعة.

5- سيطرة البيئة المصريّة بما فيها من جمال، وأحداث سياسيّة على تفكير محمود سامي البارودي، وامتلاكها مشاعره، فأكثر من وصفها، والحنين إليها، وقد قال شعرًا في الحنين جارى فيه حنين ابن عنين لدمشق عندما نُفي عنها.

مميزات شعره

امتاز شعر محمود سامي البارودي بالمميزات الآتية:

1- وظّف أساليب الشعر العربيّ القديم في شعره؛ فامتاز شعره بالجزالة والرّصانة، حتى قيل إنّ فيه قوة الجاهليين، وعذوبة الإسلاميين، ودقّة العباسيين، ورقّة الحضارة المصريّة.

2- ملأ أشعاره بمعاني عصره وأفكاره، وروحه وشخصيته، فجاء شعره حيًّا من خلال تصوير مجتمعه.

3- صوّر ما يعتلج في نفسه تصويرًا صادقًا، وبيئته، وعصره تصويرًا واقعيًّا.

4- نظم محمود سامي البارودي في جميع أغراض الشعر العربيّ، وبرّز في وصف المعارك، والشكوى، والحنين إلى الوطن، والوصف، والفخر؛ لأنه في هذه الأغراض كان يصدر عن تجارب خاصة.

5- برع في معارضة ما أُعجب به من قصائد شعراء العربيّة الكبار.

آثاره

ترك محمود سامي البارودي أثرين شعريين هما:

1- ديوان شعر كبير، طبع مرّات عديدة، منها طبعة دار العودة في بيروت بتحقيق، وضبط، وشرح علي الجارم، ومحمد شفيق معروف، سنة (1419/ 1998)، وقدّم للديوان محمد حسين هيكل. وله مقطعات لم ترد في ديوانه، كما نظم قصيدة سمّاها "كشف الغمة في مدح سيّد الأمة" جاءت في (447) بيتًا، وهي في مدح الرسول، صلّى الله عليه وسلّم.

2- مختارات البارودي

وهو عبارة عن قصائد شعريّة اختارها البارودي لثلاثين شاعرًا من شعراء العربيّة القدامى الكبار، وجعلها في سبعة أبواب هي: الأدب، والمديح، والرّثاء، والصفات، والنسيب، والهجاء، والزهد. وقد حقّقها مجموعة من الباحثين بإشراف ومراجعة محمد مصطفى هدارة، ونشرتها الهيئة المصريّة العامة للكتاب بالاشتراك مع مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعريّ سنة (1413/1992-1415/1994).

نماذج من شعر البارودي

قال محمود سامي البارودي من قصيدة يصف فيها الحرب الرّوسيّة على الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة سنة (1293/1877):[1]

أدورُ بعينـــــى لا أرى غيـــــرَ أُمَّـــــةٍ	مِـــنَ الـــرُّوسِ بالْبَلْقَـــانِ يُخْطِئُهَـــا الْعَـــدُّ
جـــواثٍ علـــى هـــامِ الجبـــالِ لغـــارةٍ	يطيـــرُ بهـــا ضـــوءُ الصَّـــباحِ إذا يبـــدو
إذا نحـــنُ سِـــرنا صـــرَّحَ الشَّـــرُّ باســـمهِ	وَصَـــاحَ الْقَنَـــا بـــالْمَوْتِ، واسْـــتَقْتَلَ الجنـــدُ

(1) محمود البارودي، الديوان، ص141.

فَأَنْـــتَ تَـــرَى بـــيْنَ الْفَـــرِيقَيْنِ كَبَّـــةً	يُحَـــدِّثُ فيهـــا نَفْسَـــهُ الْبَطَـــلُ الْجَعْـــدُ
عَلَـــى الأَرْضِ مِنْهـــا بالـــدِّماءِ جَـــدَاولٌ	وَفَـــوْقَ سَـــرَاةِ الـــنَّجْمِ مِـــنْ نَفْعِهَـــا لِبْـــدُ
إِذَا اشْـتَبَكُوا، أَوْ راجَعُـوا الزَّحْـفَ خِلْـتَهُمْ	بُحُـــورًا تَـــوَالَى بَيْنَهـــا الْجَـــزْرُ والْمَـــدُّ
نشـــلُّهمُ شـــلَّ العطـــاشِ ونَـــتْ بهـــا	مُرَاغَمَـــةُ السُّـــقْيَا، وَمَاطَلَهَـــا الـــوِرْدُ
فهـــم بـــين مقتـــولٍ طـــريحٍ وهـــاربٍ	طلـــيحٍ ومأســـورٍ يجاذبُـــهُ القِـــدُّ

وقال ينصح لرجال ثورة أحمد عرابي بعدم المغامرة في حرب الإنجليز، وقد دُعي لمساعدتهم فيها:[1]

نصحتُ قومي وقلتُ الحرب مفجعة ... وربما تاح أمرٌ غير مظنون

فخالفوني وشَبّوها مكابرةً ... وكان أولى بقومي لو أطاعوني

تأتي الأمورُ على ما ليس في خلد ... ويخطئُ الظنُّ في بعض الأحايين

حتى إذا لم يعد في الأمر منزعةً ... وأصبح الشرُّ أمرًا غير مكنون

أجبتُ إذ هتفوا باسمي، ومن شِيمي ... صدق الولاء، وتحقيق الأظانين

وقال من قصيدة وهو في "سرنديب" يحنّ إلى طنه مصر:[2]

أيـــن أيـــام لـــدّتي وشـــبابي	أتُراهـــا تعـــودُ بعـــد الـــذّهابِ؟
ذاكَ عهـــدٌ مضـــى وأبعـــدُ شـــيءٍ	أن يَـــرُدَّ الزّمـــانُ عهـــدَ التّصـــابي
فـــأديرا علـــيَّ ذكـــراهُ، إنّـــي	مُنْـــدُ فارقتُـــهُ شـــديدُ المصـــابِ
كـــلُّ شـــيء يســـلوه ذو اللُّـــبِّ إلّـــا	ماضـــي اللّهـــو فـــي زمـــان الشّـــبابِ

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب في مصر، 120/5.
(2) محمود البارودي، الديوان، ص66.

ليتَ شعري متى أرى روضة المن	يل ذات النّخيل والأعنابِ
حيثُ تجري السّفين مُستبقاتٍ	فوقَ نهرٍ مثل اللّجين المُذابِ
قد أحاطت بشاطئيه قصورٌ	مُشرقات يَلْحْنَ مثلَ القبابِ
ملعبٌ تسرحُ النّواظر منْهُ	بين أفنان جنَّةٍ وشعابِ
كلَّما شافَهَ النَّسيمُ ثَراهُ	عاد منْهُ بنفحةٍ كالمَلاب[1]
ذاك مرعى أُنسي، ومَلْعبُ لهوي	وجنى صَبْوتي، ومغنى صِحابي
لستُ أنساهُ ما حييتُ وحشا	أن تراني بعهدهِ غيرَ صابي
ليسَ يدعى حقّ الوِدادِ ولا يَدْ	كُرُ عهدًا إلّا كريمُ النِّصابِ
فلئن زالَ فاشتياقي إليهِ	مثل تولي باقٍ على الأحقابِ

2. **أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، عاش ما بين (1285/1868 و1351/1932)**[2]

ولد في القاهرة لأسرة تمتد جذورها إلى خمسة أعراق مسلمة (العرب، والكرد، والترك، والشركس، واليونان)؛ فجدُّه لأبيه الذي سمّاه باسمه "أحمد شوقي" كان كرديًّا ومتزوّجًا من شركسيّة، وكان يتقن العربيّة والتركية، فترقى في الوظائف حتى أصبح أمينًا للجمارك في عهد سعيد باشا. وجمع ثروة طائلة أتلفها ابنه علي، وحفيده أحمد شوقي.

وجدّه لأمّه كان تركيًّا ومتزوجًا من يونانيّة، نشأت في قصر إبراهيم بن محمد بن علي باشا، وعمل في القصر الخديويّ، وترقّى حتى أصبح وكيلًا للخديوي

(1) الملاب: نوع من الطيب. اللسان: مادة لبب.

(2) انظر ترجمته في: يوسف داغر، مصادر الدراسة، 2/504؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص85؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص19؛ مارون عبود، الرؤوس، ص290؛ أحمد شوقي، الشوقيات: المقدّمة، ص3-16؛ محمد صبري، الشوقيات المجهولة، 1/ 5-57؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص96.

إسماعيل. وكانت جدّته اليونانية إحدى وصيفات القصر، تحنو عليه وتحبّه، فكفلته وهو صغير، وأخذته وهو في الثالثة من عمره إلى الخديوي إسماعيل، فشكت له أنّ حفيدها دائم النظر إلى السماء لاختلال أعصابه، فنثر الخديوي الذّهب عند قدمي الطفل أحمد شوقي، فوقعت عيناه على الذهب، وانشغل بجمعه، واللّعب به، فطلب الخديوي من جدّته فعل ذلك معه، فيعتاد النظر إلى الأرض، فقالت: "هذا دواء لا يَخْرج إلّا من صيدليتك، يا مولاي. فقال: جيئي به إليّ متى شئت، إنّي آخر مَنْ ينثُر الذّهب في مصر!".

وبذلك كان أحمد شوقي شديد الولاء للخديوي إسماعيل، حتى قال يستعظم خيانته وأبناءه:

أ أخُـــون إســـماعيل فـــي أبنائـــه	ولقـــد وُلـــدتُ ببـــاب إســـماعيلا

التحق أحمد شوقي وهو في الرابعة من عُمره بكُتّاب الشيخ صالح، ثم انتقل إلى المدرسة، وفيها تعلّم على الشيخ حسين المرصفيّ، فدرس كتابه "الوسيلة الأدبيّة"[1]، ولمّا ظهرت عليه أمارات الشعر، أرشده إلى دواوين عدد من شعراء العربية القدامى، فنظم الشعر في المواد الدراسية التي كان يتعلّمها، وتخرّج فيها سنة (1885/1303).

بعد المرحلة المدرسيّة درس أحمد شوقي في مدرسة الحقوق والترجمة، وفيها تعلّم على أستاذه الشاعر محمد البسيوني، الذي شجّعه على نظم الشعر، وأخذا ينشران مدائحهما في الخديوي إسماعيل في جريدة "الوقائع المصرية" وغيرها،

(1) المرصفي هو: حسين بن أحمد المرصفي (ت1307/1889)، ولد في مرصفا بمحافظة القليوبية، التي تبعد عن القاهرة (49كم)، حفظ القرآن في قريته، ثم التحق بالأزهر، وبعد تخرّجه عمل مدرسا، وقد ظهرت عليه اتجاهاته الأدبية، فاهتم بالأدب أكثر من غيره، وبدأ يحاضر مع الشيخ علي باشا مبارك (ت1311/1893) في دار العلوم التي تحوّلت سنة (1289/1872) إلى مدرسة دار العلوم العليا، فأصبح أول أستاذ للأدب العربي ونقده فيها، وعضوًا في المجلس الأعلى للتعليم المصري، وأتقن الفرنسية، وترجم عنها حكايات للأديب الفرنسيّ "جان دو لافونتين".
الوسيلة هو: كتاب "الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية"، ضمّنه مباحث في علوم العربية السبعة (البلاغة (البيان، والمعاني، والبديع)، والنحو، والصرف، وعلم العروض، وعلم القافية)، وفنون الأدب؛ الشعر والنثر، وتاريخ العلوم، وتاريخ التربية، وطرائف أدبية. وقد نال شهرة واسعة؛ لأنه ألقاه على طلبة دار العلوم (جامعة القاهرة اليوم)، ونشره فصولا متتابعة في مجلة "روضة المدارس"، وقد تتلمذ على كتاب "الوسيلة الأدبية" عدد كبير من أدباء مصر والوطن العربي. انظر: حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية، 1/11-26؛ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة، 4/239؛ الزركلي، الأعلام، 2/232؛ محمد خفاجي، قصة الأدب في مصر، 3/52.

وكان شوقي يُدقق قصائد أستاذه، ويُحرّرها، فيبدو الأستاذ مسرورًا بتلميذه، وفي مدرسة الحقوق أتقن الفرنسيّة، فصار يُتقن ثلاث لغات؛ العربيّة (لغته الأم)، والتركيّة أتقنها في القصر، والفرنسيّة. وتخرّج سنة (1887/1305).

ابتعثه الخديوي إلى فرنسا، فدرس الحقوق سنتين في مدينة "مونبيلية"، ثم مثلها في باريس، وفي مدّة مكوثه في فرنسا تجوّل في كثير من مدنها، وسافر إلى لندن، والجزائر، واطّلع على الأدب الفرنسيّ، فقرأ لكبار الشعراء والكتاب حتى ترجم إلى العربية بعض أدب الأديب الفرنسيّ "ألفريد ديموسيه" ونشره بعنوان "اعترافات فتى العصر"، كما اطّلع على المسرح، فأُعجب به، وألّف في باريس أول مسرحياته، وهي بعنوان "علي بيك الكبير".

في عام (1892/1310) عاد إلى القاهرة، ليبدأ حياته العملية، فعمل في القسم الإفرنجي في قصر الخديوي، فأصبح ناطقًا باسمه، ومنحه لقب "شاعر الأمير"، ثم تزوّج فتاة ثريّة صالحة لم يكن لها إلّا حياة المنزل. ورُزق ثلاثة أبناء هم: علي، وحسين، وأمينة. وحوّل بيته إلى ندوة أدبية باسم "كرمة ابن هانئ"[1] حيث كان يجتمع إليه أدباء مصر وشعرائها. وانتدبه الخديوي سنة (1898/1398) لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين بجنيف، فمكث فيها شهرًا، وفي طريق عودته إلى القاهرة زار بلجيكا وإستانبول وغيرهما.

في هذه الحقبة كان أحمد شوقي شاعر القصر في كلّ شيء؛ ينصره ظالمًا، ومظلومًا بالمعنى السّلبي، ودليل ذلك موقفه من "اللورد كرومر"، وأحمد عرابي؛ فعندما اختلف الخديوي إسماعيل مع "كرومر"، قام "كرومر" خطيبًا لساعات في حفل وداع أقامه الإنجليز له في القاهرة، فشتم مصر والمصريين، وادّعى تنكّرهم لمّا قدّمته لهم بريطانيا المحتلة، ولشدّة غيظه قيل: إنه شرب خمسة أباريق ماء مثلّجة، فثار عليه أحمد شوقي غضبًا للخديوي وهجاه. وكذلك فعل مع أحمد عرابي عند عودته من منفاه[2]، فقد هجاه بقوله:[1]

---

(1) كرمة ابن هانئ هو: منزل أحمد شوقي، سمّاه بذلك على اسم الشاعر العباسي الحسن بن هانئ، أبي نواس (ت199/813)، كانت في البداية في حي المطرية، ثم لمّا عاد إلى القاهرة من منفاه بالأندلس سنة (1339/1920) نقلها إلى الجيزة على ضفة النيل، وكان يلتقي فيه أدباء مصر ومثقفيها. وفي سنة (1393/1973) حوّلته الحكومة المصرية إلى متحف باسم "متحف أحمد شوقي". انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص8؛ الزركلي، الأعلام،1/136.

(2) اللورد كرومر هو: إفلين بيرنج كرومر(الذي منح لقب إيرل)، (ت1336/1917) أول حاكم عسكري بريطاني في مصر بعد احتلالها، وحكم فيها حتى استقالته (1325/1907)، وكان يعمل على تغريب العرب والمسلمين، وتمزيق وحدتهم، وقد وضع خطته لذلك في كتابه "مصر

صَـغارٌ فـي الـدّهاب وفـي الإيـاب أهــذا كــلّ شــأنك يــا عرابــي

عفــا عنــك الأباعــد والأدانــي فمَـنْ يعفـو عـن الـوطن المصـاب

وقال يهجو كرومر:[2]

أيــا مُكــم أم عهــدُ إســماعيلا أم أنـتَ فرعـون يسـوس النّـيلا

أم حــاكم فــي أرض مصــر بــأمره لا ســائلا أبــدًا ولا مســؤولا

لمّــا رحلــتَ عــن الــبلاد تشــهّدت فكأنّــك الــدّاء العيــاء رحــيلا

أوْســعتنا يــوم الــوداع إهانــةً أدبٌ لعمــركَ لا يُصــيبُ مثــيلا

وختمها بتنزيه النبيّ محمد، صلّى الله عليه وسلّم، من افتراءات كرومر، فقال:

مَــنْ ســبَّ ديــنَ محمّــدٍ فمحمَّــدٌ مــتمكّنٌ عنــد الإلــه رســولا

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة (1914/1333)، أعلنت بريطانيا فرض الحماية على مصر، ومنعت الخديوي توفيق، الذي كان في تركيا من دخول مصر، وعيَّنوا مكانه حسين كامل، فاضّطرب أحمد شوقي، ونظم قصيدة لامية حاول فيها إرضاء حسين كامل، والإنجليز، والخديوي معًا، فلم ينجح، وأقدم الإنجليز على نفيه إلى الأندلس.

الحديثة" الذي ضمنه رأيه في تدمير القيم الإسلامية عن طريق التعليم، ودعا إلى ترك اللغة العربية وإبعاد المسلمين عن دينهم. انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، م1942/3.

وعرابي هو: أحمد عرابي بن محمد عرابي (ت1330/1911)، ترقى في الجيش حتى عين وزيرًا للجهاد (الحربية) في الحكومة التي شكّلها الشاعر محمود سامي البارودي، ولمّا احتل الإنجليز الإسكندرية رفض شروطهم وقرّر الجهاد، وتمكّن الإنجليز من احتلال مصر، فكان ممّن نفي إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا اليوم)، وأعيد إلى القاهرة بعد نفيه عشرين عامًا بسبب مرضه فمات في وطنه. انظر: الزركلي، الأعلام،168/1.

(1) محمد صبري، الشوقيات المجهولة، ص257.

(2) أحمد شوقي، الشوقيات، 173/1.

مكث أحمد شوقي في الأندلس ست سنوات، فقد نزل مدينة "برشلونة" عاصمة إقليم "كتالونيا" شمال شرق إسبانيا، ومنها طاف الأندلس، فزادت آثار حضارة الإسلام وتاريخهم، حزنه وحنينه إلى وطنه وأهله. وكان كلّما زار أثرًا يتمثّل أبياتًا من سينيّة البحتري في وصف إيوان كسرى، ما دفعه إلى معارضتها.

ولمّا قرأ تاريخ المسلمين، وأدبهم في الأندلس أُعجب بابن زيدون، أحمد بن عبد الله (ت463/1079)، فعارض نونيته التي تغزّل فيها بولّادة بنت المستكفي (ت484/1091) الأديبة الأندلسيّة، ذائعة الصيت، لكنّه عارضها بقصيدة في الحنين إلى مصر. وفي المنفى سيطر الحزن على أحمد شوقي، وصهرته الآلام، فغيّرت تفكيره الذي كان في القصر، وظل يترقّب عودته إلى وطنه بشوق وألم.

عاد أحمد شوقي إلى مصر سنة (1339/1920)، فاستقبله أهلها في الإسكندرية بحفاوة، فنظم بائية جميلة بعنوان" بعد المنفى"، مطلعها[1]:

أُنادي الرّسم لو ملك الجوابا وأجزيه بِدَ مْعي لو أثابا

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/64-68.

ومنها يُشيدُ بالأندلس التي آوته مدّة ستّ سنوات، يقول:

وداعًـــا أرض أنـــدلسٍ وهـــذا ثنـــائي إن رضـــيتِ بـــه ثوابـــا
ومـــا أثنيـــت إلّـــا بعـــد علـــمٍ وكـــم مـــن جاهـــلٍ أثنـــى فعابـــا
تَخِـــذْتُك موئلًـــا فحللـــتُ أنـــدى ذرى مـــن وائـــل وأعـــزُّ غابـــا

ومنها يحيّي مصر وأهلها، يقول:

ويـــا وطنـــي لقيتُـــكَ بعـــد يـــأسٍ كـــأنّي قـــد لقيـــتُ بـــكَ الشّـــبابا
وكـــلّ مســـافرٍ ســـيؤوبُ يومًـــا إذا رُزقَ السّـــلامة والإيابـــا
ولـــو أنّـــي دُعيـــتُ لكُنـــتِ دينـــي عليـــه أُقابـــلُ الحـــتَمَ المُحابَـــا

ومنها يفخر بأهل مصر الذين رفعوه على أكُفِّهم، يقول:

وَحَيّـــا اللّـــهُ فِتيانًـــا سِـــماحًا كَسَـــوا عِطفَـــيَّ مِـــن فَخـــرٍ ثِيابـــا
مَلائِكَـــةٌ إذا حَفّـــوكَ يَومًـــا أحَبَّـــكَ كُـــلُّ مَـــن تَلقـــى وَهابـــا
وَإن حَمَلَتـــكَ أيـــديهمْ بُحـــورًا بَلَغْـــتَ عَلـــى أكُفِّهِـــمُ السَّـــحابا
تَلَقَّـــوُني بِكُـــلّ أغَـــرَّ زاهٍ كَـــأنَّ عَلـــى أسِـــرَّتِهِ شِـــهابا
تَـــرى الإيمـــانَ مُؤتَلِقًـــا عَليـــهِ وَنـــورَ العِلـــمِ وَالكَـــرَمَ اللُّبابـــا

فكانت هذه القصيدة-سأوردها كاملة في نماذج من شعره-فاتحة تحوّل شوقي الأهم، إذ أصبح شعبيًّا وطنيًّا، يُفكّر بشعبه وآلامه، ودحر الاحتلال عن وطنه؛ فلما مات سعد زغلول سنة (1927/1346) رثاه بقصيدة بليغة، ثم أحسّ بالعرب، والمسلمين، وآلامهم-مع ملاحظة أنّه لم ينظم شيئًا في وعد بلفور المشؤوم، ولا القضية الفلسطينيّة، وذلك على الرّغم من دعوة الشّاعر إبراهيم طوقان له للنّظم

في ذلك-ونظم قصيدة قافيّة رثى فيها دمشق، لمّا قصفها الجيش الفرنسيّ، وألحق بها دمارًا هائلًا، ثم احتلها، وقد أنشدها في حفل أُقيم في حديقة الأزبكيّة، وقد

خُصّص ريعه لإعانة منكوبي دمشق، وذلك في شهر (جمادى الآخرة 1344/ كانون الثاني 1926)، ومطلعها:[1]

سـلامٌ مـن صَـبا بَـردى أرقُّ ودمـعٌ لا يُكفكـفُ يـا دمشـقُ

وفي السنة نفسها أُقيمت حفلة تتويجه أميرًا للشعر العربيّ، فحضر شعراء من أغلب الأقطار العربية، وبايعوه بإمارة الشعر العربيّ، وكان أول مَنْ بايعه صديقه الشاعر حافظ إبراهيم، فقال قصيدة عصماء، مطلعها:[2]

بلابـل وادي النيـل بالشّـرق أسْـجعي بشِـعر أميـرِ الـدّولتين ورَجّعـي

ومنها يُبايع شوقي بإمارة الشعر:

أميـرَ القـوافي قَـدْ أتيـتُ مُبايعًـا وهذي وفود الشّرق قد بايعت معي

وقد شكر أحمد شوقي شعراء العرب، وحيّاهم بقصيدة منها:[3]

قَـدْ قَضـى الله أن يؤَلّفنـا الجـر حُ وأن نَلْتقـي علـى أشـجانه

كُلّمـا أنَّ بـالعراق جـريحٌ لمـسَ الشَّـرق جنبَـهُ فـي عُمانـه

وعلينـا كمـا علـيكم حديـدٌ تَتَنـزّى اللُّيـوث فـي قُضـبانه

نحـنُ فـي الجـرح بالـدّيار سـواءٌ كُلّنـا مُشـفقٌ علـى أوطانـه

شاعريته

قرض أحمد شوقي الشعر وهو في الرّابعة عشرة من عمره، وهو يتتلمذ على الشيخ حسين المرصفيّ، عندما كان يقرأ عليه "الكشكول" لبهاء الدّين العامليّ[4]، ثم

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/ 74-77.
(2) حافظ إبراهيم، ديوانه، ص119 – 130.
(3) أحمد شوقي، الشوقيات، 2/193.
(4) بهاء الدّين العامليّ هو: محمد بن حسين الحارثيّ، عاش ما بين(953/1546و1031/1622)، ولد في بعلبك بلبنان، وتعلم على كبار علماء عصره، كان شاعرًا وأديبًا، كثير السياحة، خدم سلطان

أرشده إلى قراءة دواوين شعر: أبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي وغيرهم، فنظم شعرًا جميلًا في المواد التي كان يتعلّمها. وفي مدرسة الحقوق مدح الخديوي إسماعيل، ونشر مدائحه ومدائح أستاذه محمد البسيونيّ في جريدة "الوقائع المصرية"، ثم درس الفرنسيّة، وأدب أدبائها في باريس وغيرها من المدن الفرنسيّة. وقد ظهر نبوغه الشعريّ في قصر الخديوي، ثم صَقَله بثقافته الواسعة حتى نال إمارة الشعر قبيل وفاته بخمس سنوات. وقد أثّرت في شاعريّة أحمد شوقي ستة عوامل، هي:

1- نسبه الذي امتزجت به خمسة أعراق.

2- تقلُّب حياته، وتطوّرها تطوّرًا غير معهود، فانتقل من حياة القصر ورغد العيش إلى المنفى، ومفارقة الأهل، فسيطر عليه الحزن، ثم عودته إلى أحضان شعبه، الذي لم يكن يُخالطه.

3- ثقافته العربيّة والإسلاميّة الواسعة.

4- ثقافته الفرنسيّة، والتركيّة.

5- سياحاته الكثيرة في أوروبا، وتركيا، ومصر.

6- الحوادث العظمى التي عاشها، وأثرت عليه تأثيرًا عميقًا، نفسيًّا، وفكريًّا، وثقافيًّا، فمن احتلال الإنجليز مصر، ونهب ثرواتها، وإفساد أخلاقها، والقدح بدينها، وتزوير مناهج التعليم فيها، إلى الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى نفيه، فحوّلته من حياة القصور إلى حياة العامة، ثم انتهاء الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة، التي كان يُفاخر بها، فقارن ضياع الأندلس، واندثار حكم الإسلام فيها بما يحدث في عصره أمام ناظريه، ثمّ إلى الكفاح الوطني ضد الاستعمار البريطانيّ عند عودته من المنفى، ثم عاصر الصراع الفكريّ والأدبيّ الذي شهدته الولايات العربيّة المُقتطعة عن دولة الخلافة

العجم عباس شاه، فقرّبه، لكنه لم يكن على مذهبه في الإلحاد والزندقة. وقد كان شيعيًّا مُغاليًا في تشيّعه. انظر ترجمته في: العاملي، الكشكول: المقدّمة، 1/4-43؛ شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 270/1؛ المحبّي، خلاصة ألأثر،40/3؛ ابن معصوم، سلافة العصر، 289/1، الزركلي، الأعلام، 102/6.

الكشكول هو: أحد مؤلفات بهاء الدّين العاملي، وهو موسوعة معرفيّة، حيث ضمّنه العاملي ما راقه من علوم وفنون من دون ترتيب، على طريقة الدرويش(الصوفي)حيث يجمع في كشكوله ما تيسر له من الطعام، وقد شاع هذا الاسم من بعدهن فاستخدمه كثير من المؤلفين. انظر: العاملي، الكشكول: المقدمة،42/1.

العثمانيّة الإسلاميّة الجامعة للأمة، كما تنازعتها أفكار دعاة التغريب في الأدب، وباقي مجالات الحياة، والمحافظة على التراث، والعادات والتقاليد، مع الأخذ بأساليب الحياة الجديدة، إلى نزعات قوميّة إقليميّة ضيّقة كالفرعونيّة، والفنيقيّة، والأمازيغيّة وغيرها.

مفهومه للشعر

رأى شوقي أنّ الشعر هو: وحي يهبط على نفوس الشعراء، وأنّ اختلافهم في معاني النظم وأساليبه ناتج عن تمايز نفوسهم في إحساسهم بالوحي الهابط عليها، ونزعاتهم تجاهه. وليس هناك شاعر قديم وآخر جديد؛ لأنّه طالما أنّ الشاعر يروي في كلّ عصر، فهو ابن الماضي والحاضر والمستقبل. قال: "الشعر فكر وأسلوب، وخيال لعوب، وروح موهوب"[1]. ورأى أنّ الحكمة تُورث الشاعر الشّهرة. قال: "مثلُ الشاعر لم يُرزق الحكمة كالمغنّي: صِناعةٌ ولا صوت"[2].

وكاد أحمد شوقي يُلحق السّجع بالشعر، قال: "السّجع شعر العربيّة الثاني، وقوافٍ مرنة ريّضة خصّت بها الفُصحى، يستريح إليها الشاعر المطبوع، ويُرسل فيها الكتاب المتفَنّن خياله، ويَسلو بها –أحيانًا- عمّا فاته من القدرة على صياغة الشعر، وكلّ موضع للشعر الرّصين مَحلٌّ للسّجع، وكلّ قرار لموسيقاه، قرار كذلك للسّجع، فإنّما يوضع السّجع النابغ فيما يصلح مواضع للشّعر الرّصين من: حكمة تُخترع، أو مثل يُضْرب، أو وصف يُساق.

وقد ظلم العربيّة رجالٌ قبّحوا السّجعَ، وعدّوه عيبًا فيها، وخلطوا الجميل المتفرّد بالقبيح المرذول منه؛ يُوضع عنوانًا لكتاب، أو دلالة على باب، أو حشوًا في رسائل السياسة، أو ثرثرة في المقالات العلميّة، فيا نشأ العربيّة، إنّ لغتكم لسريّة مثريّة، ولن يُضيرها عائب ينكرُ حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم، ولا سجع الحمام في الحديث الشّريف، ولا كلّ مأثور خالد من كلام السّلف الصالح"[3].

موقفه من الدعوة إلى الأدب المصريّ

سادت في بداية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري / بداية القرن العشرين الميلاديّ لدى عدد من أدباء مصر، وبخاصة القبط منهم، وتلاميذ المستشرقين الدّعوة إلى تأسيس ما يسمى بالأدب المصريّ، حتى ظهرت دراسات

(1) أحمد شوقي، خواطر: أسواق الذهب، ص119.
(2) أحمد شوقي، أسواق الذهب، ص128.
(3) أحمد شوقي، السجع: أسواق الذهب، ص109.

عن الأدب العربيّ، الذي نشأ في مصر في الحقب التاريخيّة العربيّة الإسلاميّة المُتعاقبة بعناوين تُشير إلى إقليميّة ضيقة، تمامًا كما ظهر مَنْ يدعون إلى الفرعونيّة. وقد رفض أحمد شوقي هذا الاتجاه، ودعا إلى الأدب العربيّ الخالص من الإقليميّة أو الإثنيّة الأصلانيّة(المقصود الشعب الذي يقع تحت احتلال استيطانيّ، فيتحوّل إلى أقلّيّة بسبب التهجير كما حدث للشعب الفلسطينيّ)، قال: "وأولئك الذين يطلبون أدبًا مصريًا غير شائع في العالم العربيّ، ولا يستوحون الأدب العربي القديم، إمّا أن يخلقوا لمصر لغة أُخرى يُسخّرونها، يعبثونَ بها كما يشاؤون، وإمّا أن يستوحوا للأدب المصريّ المزعوم لغة من لغات الغرب، ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلّا عَلَمًا مُزيّفًا على مُسمّى لا فضل لهم فيه إلّا فضل الترجمة عن قوم يتكلّمون بلسان غير لساننا"[1].

ورفض أنور الجندي ادّعاء هؤلاء بوجود مثل هذا في التاريخ العربيّ الإسلاميّ حيث يُقال الأدب الأندلسيّ، والأدب في بغداد وغيرهما، فقال: "إنّ الأدب المصريّ، والأدب البغداديّ، والأدب الأندلسيّ ليست كلّها إلّا نعوتًا لزمان الشاعر العربيّ، أو مكانه، يحدُّها الوحي العربيّ كلُّها، ولا يختلف بعضها عن بعض إلّا في ظروف العصر والمكان"[2].

صفات شعره

امتاز شعر أحمد شوقي بمميزات عديدة، أهمها:

1- جمع شعره بين المعاني القديمة والحديثة.

2- حاكى أساليب الشعراء القدامى، فعارضهم كثيرًا، وأنشأ لنفسه أسلوبا سهلًا عبّر فيه عن نفسه، وعصره بما فيه من معان، وأفكار جديدة، فهو جمع بين أسلوبين؛ قديم للمعارضات، وجديد لحاجات العصر وقضاياه، أي كان أسلوبه جزل الألفاظ، ومتين الصياغة.

3- التزم بالشّعر الموزون المُقفّى مع اختيار الأوزان الصافية، فجاء شعره أطوع للغناء والنشيد من شعر محمود سامي البارودي، وحافظ إبراهيم.

4- اعتمد في شعره على التصوير؛ فاستخدم التشبيه والاستعارة بأنواعهما؛ لتوضيح المعاني.

---

(1) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.
(2) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.

5- صَدَر أغلب شعره عن عاطفة صادقة، وإحساس مرهف، وخيال حالم واسع.

6- نظم أحمد شوقي في جميع أغراض الشعر العربي القديم، ثم نظم في بعض الأغراض الحديثة، كالمسرحيات، وقصص الأطفال.

موضوعات الشعر عند أحمد شوقي

رأى أحمد شوقي أنَّ للشّاعر أن ينظم في كلّ غرض من أغراض القول؛ لأنَّ مجاله الكون كلّه، قال: "وأُعلنُ أنّ للشّاعر ميدانًا واسعًا هو هذا الكون بما فيه من عوالم وأحداث"، ثمّ قال: "إنّ هناك مُلكًا كبيرًا ما خُلقوا إلّا ليتغنّوا بمدحه، ويتفنّنوا بوصفه، ذلك المُلك هو الكون، فالشاعر مَنْ وَقّقَ بين الثّرى والثّريّا، هناك ينفسح مجال التّخيّل، ويتّسع له مكان القول"[1].

موقفه من دُعاة التّغريب

كان أحمد شوقي يؤمن بأنّ للأدب العربيّ خصائص، ومميّزات تختلف عن غيره من الآداب، وعليه رفض دعوات التغريب كلّها بأي مسمّى سُمّيت، وتحت أي عنوان وُضعت، وقد رأى أنّ دعاة التغريب وتلامذة المستشرقين والمبشّرين هم الذين هاجموا شعره الإسلاميّ؛ لأنّه أراد أن يُبقي الناشئة على صلة بتاريخهم وعقيدتهم، قال: "فانبريتُ أنا لهم بهذه القصائد الدّينيّة التي أنشرها في تمجيد الإسلام، والإشادة به، وإثبات قدسيته وجلاله"[2].

التجديد في شعره

كان أحمد شوقي ابن ثقافته العربيّة الإسلاميّة الرّاقية، التي ملأت قلبه ومشاعره، وابن عصره؛ يستوعب مخترعاته، وأفكاره ومعانيه الجديدة، فيختار منها ما يروقه، ثمّ يُخرجه عربيًّا إسلاميًّا. وقد استطاع أن يُجدّد في موضوعين مهمّين هما:

1- نظم الحكايات والقصص التي تدور على ألسنة الطير، والحيوانات في أشعار سهلة واضحة، وذات موسيقى صافية، فراقت لواضعي المناهج الدّراسية التعليميّة في مصر، والوطن العربي، فاختاروا منها نماذج للمناهج الدّراسيّة،

(1) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.
(2) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، 94.

فحفظها التّلاميذ، وتغنّوا بها، وأنشدوها في مناسبات كثيرة. ومنها قصيدة "الأسد والضّفدع"، قال فيها:[1]

انفعْ بِما أُعطِيتَ من قدرَةٍ ... واشفع لذي الذنبِ لَدَى المجمعِ

إذ كيفَ تسمو للعلا يا فتى ... إن أنتَ لم تنفع ولم تشفعِ

عندي لهذا نبأ صادقٌ ... يُعجِبُ أهلَ الفضل فاسمع، وعِ

قالوا: استَوى الليثُ على عرشِهِ ... فجِيءَ في المجلِسِ بالضِّفدَعِ

وقيل للسُّلطان: هذِي التي ... بالأمس آذتْ عاليَ المسمعِ

تَنقَنِقُ الدّهرَ بلا علةٍ ... وتَدّعي في الماءِ ما تَدّعِي

2- نظم المسرحيات، فقد عرف المسرح بكل تفاصيله في أثناء ابتعاثه في باريس، وأُعجب به، ونظم أول مسرحياته وهي "علي بيك الكبير" في باريس. وعلى الرّغم من تأثره بالمسرح الفرنسيّ إلّا أنه استمدّ أفكار مسرحياته، ومعانيها من التراث العربيّ الإسلاميّ، وهو بذلك أثبت قدرة الشعر العربيّ على استيعاب الفنون الحديثة، ومنها المسرح، واستعداد الجهور العربيّ لتذوّق الشعر المسرحيّ، والاستمتاع بمشاهده التمثيلية.

آثاره

توزّعت مصنّفات أحمد شوقي على أربعة فنون أدبية، هي:

1- الشعر

نظم أحمد شوقي الشّعر، وهو في الرّابعة عشرة من عمره، واستمرّ ينظمه طوال حياته، وقد جمع شعره في ديوان بعنوان "الشوقيات"، الذي جاء في أربعة أجزاء، وهي: الأول، ضمّ ما نظمه في التاريخ، والاجتماع، والسياسة. والثاني، ضمّ شعره في الوصف والنسيب. والثالث، جمع فيه ما نظمه في الرثاء. والرابع، ضمّ قصائد في أغراض عديدة، وأهمها: أناشيد الأطفال، والشعر التعليميّ، وما نظمه في الأمثال والخرافات، وبعض القصائد المدحية.

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 170/4.

ثم أصدر له محمد صبري سنة (1961/1381) ديوانًا بعنوان "الشوقيات المجهولة" ضمّنه أكثر من أربعة آلاف بيت، حيث كان أحمد شوقي ينشر قبل الحرب العالمية الأولى قصائد في المناسبات الوطنية وغيرها مُوقعة بإمضاء مجهول. كما نظم أرجوزة بعنوان "دول العرب وعظماء الإسلام"، وهي ملحمة شعرية.

2- النثر

كتب أحمد شوقي مقالات نثريّة في الموضوعات المعرفيّة المختلفة، وقد نشرها في كثير من الصحف والمجلّات في مصر وغيرها، وجارى فيها الزمخشريّ، محمود بن عمر(ت528/1134) في كتابه" أطواق الذهب في المواعظ والخطب". وقد جُمعت تلك المقالات في كتاب بعنوان "أسواق الذَّهب"، وهي مفيدة للناشئة من حيث ألفاظها، وأساليبها، ومعانيها.

3- المسرحيات (التمثيليات)

كتب أحمد شوقي مسرحيات عديدة، وقد كتب مسرحيته الأولى وهو في فرنسا سنة (1311/1893) ثم توقّف أربعًا وثلاثين سنة عن كتابة المسرحيات، ثم عاد لكتابة المسرحية في آخر خمس سنوات من عمره، وأهم مسرحياته هي:

1- علي بيك الكبير.

2- مصرع كليوباترة.

3- أميرة الأندلس (مسرحية نثريّة).

4- قمبيز.

5- مجنون ليلى (قيس وليلى).

6- الست هدى.

7- شريعة الغاب.

8- عنترة (عن قصة عنترة بن شدّاد ومحبوبته عبلة).

9- البخيلة.

وقد استوحى أكثر معاني مسرحياته من التراث العربيّ الإسلاميّ، وكتبها لِيُبَرهن أنّ الشعر العربيّ قادر على استيعاب هذا الفن، وأنّ اللّوم على الشعراء لا الشعر، قال: "إنّي أؤمن بأنّ الشّعر العربي على غير ما يسوغ للبعض اتهامه، من أنّه لا يتسع أو هو لا يصلح للدرام [الدراما] وللأبيك [الشعر القصصي]، وعندي أنّ الذّنب على الشعراء لا على الشعر. ومنذ نشأتي الشّعريّة الأولى جعلت هذا الاعتقاد

حقيقة، فألفت رواية "علي بيك الكبير"، إلّا أنّ الاتجاه العام للنّهضة الأدبيّة في مصر لم يكن لِيُساعد على الانقطاع لهذا الضّرب من الشعر التمثيليّ"[1].

4- الرّوايات

كتب أحمد شوقي روايات عدّة، منها: عذراء الهند، والفرعون الأخير، وورقة الآس، وآخر الفراعنة أو(لادياس)، ودل ويتمان، وهي تتمّة لسابقتها (آخر الفراعنة)، ومذكّرات بنتاؤور. [2]

الشعر المنثور عند أحمد شوقي

كتب أحمد شوقي ثلاثة مقالات ذكر في مقدّمة كلّ منها أنّها من "الشعر المنثور"، وقد نشرها في كتابه "أسواق الذّهب"، الذي طبع سنة (1932/1351)، والمقالات هي:[3]

1- الجندي المجهول، كتبها في الاحتفال الذي جرى لوضع نصب الجندي المجهول في باريس (29 صفر 1339 الموافق 1920/11/11)، أو بعد الاحتفال بأيام[4].

2- الوطن، الأرجح أنه كتبه سنة (1924/1343) [5].

3- الذّكرى، وهو افتتاحيّة قصيدة كتبها سنة (1926/1345)، أهداه لروح صديقه مصطفى كامل باشا (ت 9 محرم 1326الموافق 1908/2/11) في ذكرى وفاته السنويّة[6].

وقد أحسن أحمد شوقي اختيار موضوعات شعره المنثور، والتزم فيه السّجع، فجعله ما بين جملتين إلى خمس جمل، وكانت جمله –غالبًا-قصيرة، ومتساوية الطول، فازداد لحنها وضوحًا، كما زيّن جمله الجناس الذي أغنى نغمات ألحانها[7].

نماذج من شعره

---

(1) أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص85.
(2) انظر: محمد صبري، الشوقيات المجهولة، 48/1.
(3) انظر: حسين نصّار، في الأدب المصري، ص199.
(4) انظر: أحمد شوقي، الجندي المجهول: أسواق الذهب، ص19.
(5) انظر: أحمد شوقي، الوطن: أسواق الذهب، ص9.
(6) انظر: أحمد شوقي، الذكرى: أسواق الذهب، ص36.
(7) انظر: حسين نصار، في الأدب المصري، ص223.

هذه قصيدة بائية بعنوان "بعد المنفى"، وهي قصيدة أندلسيّة مصريّة، قالها أحمد شوقي لمّا عاد إلى وطنه مصر من منفاه الإجباريّ في الأندلس، وقد مثلت حنينه للأندلس حضارة، وأمّة مَضَت، كما مَثّلت حنينه لمصر المكلومة بالاحتلال وجشع التّجار. قال[1]:

أُنـــادي الرَّســـمَ لَـــو مَلَـــكَ الجَوابـــا وَأجزيـــهِ بِـــدَمعِيَ لَـــو أثابـــا
وَقَـــلَّ لِحَقِّـــهِ العَبَـــراتُ تَجـــري وَإن كانَـــت سَـــوادَ القَلـــبِ ذابـــا
سَـــبَقنَ مُقَـــبِّلاتِ التُـــربِ عَنّـــي وَأدَّيـــنَ التَحِيَّـــةَ وَالخِطابـــا
فَنَثـــري الـــدَّمعَ فـــي الـــدِمَنِ البَـــوالي كَنَظمـــي فـــي كَواعِبِهـــا الشَّـــبابا
وَقَفـــتُ بِهـــا كَمـــا شـــاءَت وَشـــاؤوا وُقوفًـــا عَلَّـــمَ الصَـــبرَ الـــذِهابا
لَهـــا حَـــقٌّ وَلِلأحبـــابِ حَـــقٌّ رَشَـــفتُ وِصـــالَهُمْ فيهـــا حَبابـــا
وَمَـــن شَـــكَرَ المَنـــاحِمَ مُحسِـــناتٍ إذا التِبـــرُ انجَلـــى شَـــكَرَ التُرابـــا
وَبَـــينَ جَـــوانِحي وافٍ أُلـــوفٌ إذا لَمَـــحَ الـــدِّيارَ مَضـــى وَثابـــا
رَأى مَيـــلَ الزَّمـــانِ بِهـــا فَكانَـــت عَلـــى الأيّـــامِ صُـــحبَتُهُ عِتابـــا

وأشاد بالأندلس التي آوته في مُدّة نفيه إليها وهي ستّ سنوات، فقال:

وَداعًـــا أرضَ أنـــدَلُسٍ وَهَـــذا ثَنـــائي إن رَضـــيتِ بِـــهِ ثَوابـــا
وَمـــا أثنَيـــتُ إلّـــا بَعـــدَ عِلـــمٍ وَكَـــم مِـــن جاهِـــلٍ أثنـــى فَعابـــا
تَخِـــذتُكِ مَوئِلًـــا فَحَلَلـــتُ أنـــدى دُرًى مِـــن وائِـــلٍ وَأعَـــزَّ غابـــا
مُغَـــرِّبُ آدَمٍ مِـــن دارِ عَـــدنٍ قَضـــاها فـــي حِمـــاكِ لِـــيَ اغتِرابـــا
شَـكَرتُ الفُلـكَ يَـومَ حَوَيـتِ رَحلـي فَيـــا لِمُفـــارِقٍ شَـــكَرَ الغُرابـــا

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/64-68.

فَأنتِ أرَحتِني مِن كُلّ أنفٍ كَأنفِ المَيتِ في النَزع انتِصابا
وَمَنظَرِ كُلّ خَوّانٍ يَراني بوَجهٍ كَالبَغِيّ رَمى النِّقابا
وَلَيسَ بِعامِرٍ بُنيان قَومٍ إذا أخلاقُهُمْ كانَت خَرابا
أحَقٌّ كُنتِ لِلزَهراء ساحًا وَكُنتِ لِساكِنِ الزاهي رحابا
وَلَم تَكُ "جَورُ" أبهى مِنكِ وردًا وَلَم تَكُ "بابِلٌ" أشهى شَرابا
وَأنَّ المَجدَ في الدُنيا رَحيقٌ إذا طالَ الزَمانُ عَلَيهِ طابا
أولئِكَ أُمَّةٌ ضَرَبوا المَعالي بمَشرِقِها وَمَغربِها قِبابا
جَرى كَدَرًا لَهُم صَفوُ اللّيالي وَغايَةُ كُلّ صَفوٍ أن يُشابا
مُشَيّبَةُ القُرونِ أُديلَ مِنها أَلَم تَرَ قَرنَها في الجَوّ شابا
مُعَلَّقَةٌ تَنَظَّرُ صَولجانًا يَخُرُّ عَنِ السَماءِ بِها لِعابا
تُعَدُّ بِها عَلى الأُمَمِ اللّيالي وَما تَدري السِنينَ وَلا الحِسابا

وقال يُحيّي مصر التي أعادت إليه شبابه عندما عاد إليها:

وَيا وَطَني لَقَيتُكَ بَعدَ يَأسٍ كَأَنّي قَد لَقيتُ بِكَ الشَبابا
وَكُلُّ مُسافِرٍ سيؤوبُ يَومًا إذا رُزِقَ السَلامَةَ وَالإِيابا
وَلَو أنّي دُعيتُ لَكُنتَ دِيني عَلَيهِ أُقابِلُ الحَتمَ المُجابا
أُديرُ إِلَيكَ قَبلَ البَيتِ وَجهي إذا فُهْتُ الشَهادَةَ وَالمَتابا
وَقَد سَبَقَت رَكائِبِيَ القَوافي مُقَلَّدَةً أزِمَّتَها طِرابا
تَجوبُ الدَّهرَ نَحوَكَ وَالفَيافي وَتَقتَحِمُ اللّيالِيَ لا العُبابا

وَتُهـــديكَ الثَنـــاءَ الحُـــرَّ تاجًـــا عَلـــى تاجَيـــكَ مُؤتَلِقًـــا عُجابـــا

هَـــدانا ضَـــوءُ ثَغـــرِكَ مِـــن ثَـــلاثٍ كَمـــا تَهـــدي المُنَـــوَّرَةُ الرِّكابـــا

وَقَـــد غَشِـــي المَنَـــارُ البَحـــرَ نـــورًا كَنَـــارِ الطُّـــورِ جَلَّلَـــتِ الشِّـــعابا

وَقيـــلَ: الثَّغـــرُ فَاتَّـــأدَتْ فَأرسَـــت فَكانَـــت مِـــن ثَـــراكَ الطُّهـــرِ قابـــا

فَصَـــفحًا لِلزَمَـــانِ لِصُـــبحِ يَـــومٍ بـــهِ أضـــحى الزَّمَـــانُ إلَـــيَّ ثابـــا

وقال يشيد بأهل مصر وشبابها، ويفخر بهم على حسن استقبالهم له:

وَحَيّـــا اللّـــهُ فِتيانًـــا سِـــماحًا كَسَـــوا عِطفَـــيَّ مِـــن فَخـــرٍ ثِيابـــا

مَلائِكَـــةٌ إذا حَقّـــوكَ يَومًـــا أحَبَّـــكَ كُـــلُّ مَـــن تَلقـــى وَهابـــا

وَإن حَمَلَتـــكَ أيـــديهِمْ بُحـــورًا بَلَغـــتَ عَلـــى أكُفِّهِـــمُ السَّـــحابا

تَلَقَّـــوني بِكُـــلِّ أغَـــرَّ زاهٍ كَـــأنَّ عَلـــى أسِـــرَّتِهِ شِـــهابا

تَـــرى الإيمـــانَ مُؤتَلِقًـــا عَلَيـــهِ وَنـــورَ العِلـــمِ وَالكَـــرَمَ اللُّبابـــا

وَتَلمَـــحُ مِـــن وَضـــاءَةِ صَـــفحَتَيهِ مُحَيّـــا مِصـــرَ رائِعَـــةً كَعابـــا

وَمـــا أدَبـــي لِمـــا أســـدَوهُ أهـــلٌ وَلَكِـــن مَـــن أحَـــبَّ الشَـــيءَ حـــابى

وقال يذكر المجاعة في مصر:

شَـــبابَ النيـــلِ إنَّ لَكُـــم لَصَـــوتًا مُلَبّـــى حـــينَ يُرفَـــعُ مُســـتَجابا

فَهُـــزّوا العَـــرشَ بِالـــدّعَواتِ حَتّـــى يُخَفِّـــفَ عَـــن كِنانَتِـــهِ العَـــذابا

أمِـــن حَـــربِ البَســـوسِ إلـــى غَـــلاءٍ يَكـــادُ يُعيـــدُها سَـــبعًا صِـــعابا

وَهَـــل فـــي القَـــومِ يوسُـــفُ يَتَّقيهـــا وَيُحسِـــنُ حِســـبَةً وَيَـــرى صَـــوابا

عِبـــادَكَ رَبِّ قَـــد جـــاعوا بِمِصـــرٍ أنيلُـــا سُـــقتَ فـــيهِمُ أم سَـــرابا

حَنانَـــكَ وَاهْـــدِ لِلحُســـنى تِجـــارًا بهـــا مَلَكـــوا المَرافِـــقَ وَالرِّقابـــا

وَرَقِّـــق لِلفَقيـــرِ بهـــا قُلوبًـــا مُحَجَّـــرَةً وَأكبـــادًا صِـــلابا

أمَـــنْ أكَـــلَ اليَتـــيم لَـــهُ عِقـــابٌ وَمَـــنْ أكَـــلَ الفَقيـــرَ فَـــلا عِقابـــا

أُصـــيبَ مِـــنَ التُّجـــارِ بِكُـــلِّ ضـــارٍ أشَـــدَّ مِـــنَ الزَّمـــانِ عَلَيـــهِ نابـــا

يَكـــادُ إذا غَـــذاهُ أو كَســـاهُ يُنازِعُـــهُ الحَشاشَـــةَ وَالإهابـــا

وَتَسـمَعُ رَحمَـةٌ فـي كُـلِّ نـادٍ وَلَسـتَ تُحِـسُّ لِلبِـرِّ انتِـدابا

أكُـــلٌّ فـــي كِتـــابِ اللهِ إلّـــا زَكـــاةَ المـــالِ لَيسَـــت فيـــهِ بابـــا

إذا مـــا الطـــامِعونَ شَـــكَوا وَضَـــجّوا فَـــدَعهُمْ وَاســـمَع الغَرثـــى السِـــغابا

فَمـــا يَبكـــونُ مِـــن ثُكـــلٍ وَلَكِـــن كَمـــا تَصِـــفُ المُعَـــدِّدَةُ المُصـــابا

وَلَـــم أرَ مِثـــلَ سُـــوقِ الخَيـــرِ كَســـبًا وَلا كَتِجـــارَةِ الســـوءِ اكتِســـابا

وَلا كَأُولَئِـــكَ البُؤَســـاءِ شـــاءً إذا جَوَّعتَهـــا انتَشَـــرَت ذِئابـــا

وَلَـــولا البِـــرُّ لَـــم يُبعَـــث رَســـولٌ وَلَـــم يَحمِـــل إلـــى قَـــومٍ كِتابـــا

ج

قصيدة نهج البردة[1]

وهي قصيدة في مدح الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، سار فيها على نهج قصيدة " البردة" للبوصيريّ[2] ، وقد سرد فيها ابرز مراحل سيرة الرسولن صلّى الله عليه وسلّم، ومنها:

---

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/ 190-208.

(2) البردة: قصيدة نظمها الشاعر محمد بن سعيد البوصيريّ(ت1295/696) عندما أُصيب بمرض الفالج، وتوسّل بها إلى الله، عزّ وجل، بالرسول، صلّى الله عليه وسلّم، ومدحه فيها، فرأى أن الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، قد مسح بيده الكريمة على وجهه، وألقى عليه بردته؛ فتنبّه من نومه ووجد في نفسه نهضة، فقام وخرج من بيته، ولم يكن أعلم أحدًا بذلك، فلقيه فقير صوفيّ،

ريـمٌ عَلـى القـاعِ بَـينَ البـانِ وَالعَلَـمِ أحَـلَّ سَـفكَ دَمـي فـي الأشـهُرِ الحُـرُمِ

رَمـى القَضـاءُ بِعَينَـي جُـؤذَرٍ أسَـدًا يـا سـاكِنَ القـاعِ أدرِك سـاكِنَ الأجَـمِ

لَمّـا رَنَـا حَـدَّثَتني الـنَفسُ قائِلَـةً يـا وَيـحَ جَنبـكَ بِالسَـهمِ المُصـيبِ رُمِ

جَحَـدتُها وَكَتَمـتُ السَّـهمَ فـي كَبِـدي جُـرحُ الأحِبَّـةِ عِنـدي غَيـرُ ذي أَلَـمِ

ومنها في وعظ نفسه، حيث يندم على ما سبق من ذنوبه، فيدعوها إلى عدم الوثوق بالدّنيا ومباهجها، واللجوء إلى تقوى الله، سبحانه وتعالى، فهي المنجية، ويؤكّد أنّ النّفس أمّارةٌ بالسوء، والإنسان هو مَنْ يقودها بعقله، وحسن إيمانه، قال:

يـا نَفـسُ دُنيـاكِ تُخفـي كُـلَّ مُبكِيَـةٍ وَإن بَـدا لَـكِ مِنهـا حُسـنُ مُبتَسَـمِ

فُضّـي بِتَقـواكِ فاهًـا كُلَّمـا ضَـحِكَت كَمـا يَفُـضُّ أذى الرَقشـاءِ بِـالتَرَمِ

ومنها في التحذير من هوى النّفس وطبائعها:

هامَـت عَلـى أثَـرِ اللَـذّاتِ تَطلُبُهـا وَالـنَفسُ إن يَـدعُها داعـي الصِبا تَهِـمِ

صـلاحُ أمـرِكَ لِلأخـلاقِ مَرجِعُـهُ فَقـوِّمِ الـنَفسَ بِـالأخلاقِ تَسـتَقِمِ

وَالـنَفسُ مِـن خَيرِهـا فـي خَيـرِ عافِيَـةٍ وَالـنَفسُ مـن شَـرِّها فـي مَرتـعٍ وَخِـمِ

ثم يُبيّن أنّ خير مُنقذ من مفاسد الدّنيا، وشهوات النّفس هو التّوبة، والنّدم على ما سبق من آثام، وطلب المغفرة من الله، والشفاعة من رسوله الأمين، صلّى الله عليه وسلّم، قال:

إن جَـلَّ ذَنبـي عَـنِ الغُفـرانِ لـي أمَـلٌ فـي اللـهِ يَجعَلُنـي فـي خَيـرِ مُعتَصِـمِ

وطلب منه القصيدة التي مدح بها الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وذكر أوّلها، وأقسم أنّه سمعها وهي تُنشد بين يديّ الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وأعجبته، فألقى على من أنشدها بردته، فأعطى البوصيري الفقير القصيدة، فشاعت بين الناس، وأصبحت ذات قيمة عالية، وعمد كثير من الشعراء على معارضتها، أو السير على نهجها، ومنهم أحمد شوقي، الذي نظم قصيدته" نهج البردة".

أَلقـى رَجـائي إذا عَـزَّ المُجيـرُ عَلـى مُفَـرِّج الكَـرَبِ فـي الـدّارَين وَالغَمَـمِ

إذا خَفَضـــتُ جَنـــاحَ الـــذُلِّ أســـأَلُهُ عِـزَّ الشَـفاعَةِ لَـم أسـأَل سِـوى أُمَـمِ

وَإن تَقَـــدَّمَ ذو تَقـــوى بِصـــالِحَةٍ قَـــدَّمتُ بَـــينَ يَدَيـــهِ عَبـــرَةَ النَـــدَمِ

لَزِمـــتُ بـــابَ أميـــرِ الأنبيـــاءِ وَمَـــن يُمسِـــك بِمِفتـــاح بـــابِ اللّـــهِ يَغتَـــنِمِ

ثم يبدأ بمدح الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، فيسرد صفاته، فهو: الرحمة المصطفاة من الله للبشر، وصاحب الحوض الذي يروي منه مَنْ يرجو شفاعته يوم القيامة من الرسل والمؤمنين، وحتى جبريل، عليه السّلام، قال:

مُحَمَّـــدٌ صَـــفوَةُ البـــاري وَرَحمَتُـــهُ وَبُغيَـــةُ اللّـــهِ مِـــن خَلـــقٍ وَمِـــن نَسَـــمِ

وَصـاحِبُ الحـوضِ يَـومَ الرُسـلِ سـائِلَةٌ مَتـى الـوُرودُ وَجِبريـلُ الأمـينُ ظَمـي

ثم يبدأ بذكر معجزات الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، ومنها: قصة بحيرا الرّاهب، وتعبّده في غار حِراء، وتفجّر الماء بين أصابعه الشريفة لإسقاء صحابته، رضوان الله عليهم، وتظليل السّحابة له في ذهابه إلى غار حِراء، وفي سفره إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب، وغيرها:

لَمّـــا رَآهُ بَحيـــرا قـــالَ نَعرفـــهُ بِمـــا حَفِظنـــا مِـــنَ الأســـماءِ وَالسِـــيَمِ

سـائِل حِـراءَ وَروحَ القُـدسِ هَـل عَلِمـا مَصـونَ سِـرٍّ عَـنِ الإدراكِ مُنكَـتِمِ

ومنها:

لَمّـا دَعـا الصَـحبُ يَستَسـقونَ مِـن ظَمَـإٍ فاضَـت يَـداهُ مِـنَ التَسـنيمِ بِالسَـنَمِ

وَظَلَّلَتـــهُ فَصـــارَت تَســـتَظِلُّ بِـــهِ غَمامَـــةٌ جَـــذَبَتها خيـــرَةُ الـــدِّيَمِ

ثم يسرد مشاهد من سيرة الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، ومنها: نزول الوحي بأول سورة " إقرأ"، ويذكر معجزة القرآن الكريم، خاتم الرّسالات الإلهية لبني آدم، وبعض صفاته وأخلاقه، صلّى الله عليه وسلّم، التي كانت معروفة في قبيلته قريش، ومنها أنهم لقّبوه الأمين منذ صغره، فيقول:

وَنــودِيَ: اِقــرَأ، تَعــالى اللــهُ قائِلُهــا لَـم تَتَّصِـل قَبـلَ مَـن قيلَـت لَـهُ بِفَـمِ

هُنـــاكَ أدَّنَ لِلـــرَحمَنِ فَامتَلَـــأت أســماعُ مَكَّــةَ مِــن قُدسِــيَّةِ الــنَغَمِ

ومنها:

لَقَّبتُمــوهُ أمــينَ القَــومِ فــي صِــغَرٍ وَمــا الأمــينُ عَلــى قَــولٍ بِمُــتَّهَمِ

فــاقَ البُــدورَ وَفــاقَ الأنبيــاءَ فَكَــم بِــالخُلقِ والخَلــقِ مِــن حُسـنٍ وَمِــن عِظَمِ

جــاءَ النبيّــونَ بِالآيــاتِ فَانصَــرَمَت وَجِئتَنــا بِحَكــيمٍ غَيــرِ مُنصَــرِمِ

آياتُــهُ كُلَّمــا طــالَ المَــدى جُــدُدٌ يَــزينُهُنَّ جَــلالُ العِتــقِ وَالقِــدَمِ

ثم يذكر مولد الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، فبدأ ببشائر مولده في وقت كان يعمُّ فيه الظُّلم، والجهل والطّغيان بين العرب والعجم(الفرس والروم) على حدٍّ سواء، ومن أهم تلك البشائر: تصدّع إيوان كسرى فارس، وعبادة الأصنام، وشيوع القتل بين الناس، قال:

سَــرَت بَشــائِرُ بِالهــادي وَمَولِــدِهِ فــي الشَـرقِ والغَـربِ مَسـرى النـورِ فـي الظُلَمِ

تَخَطَّفَـت مُهَـجَ الطـاغينَ مِـن عَـرَبٍ وَطَيَّـرَت أنفُسَ البـاغينَ مِـن عُجُـمِ

ريعَــت لَهــا شَــرَفُ الإيــوانِ مِــن صَــدمَةِ الحَــقِّ لا مِــن صَــدمَةِ القُــدُمِ فَانصَــدَعَت

أتَيــتَ وَالنّــاسُ فَوضــى لا تَمُــرُّ بِهِــم إِلّــا عَلــى صَــنَمٍ قَــد هــامَ فــي صَــنَمِ

وَالأرضُ مَملــوءَةٌ جَــورًا مُسَــخَّرَةٌ لِكُــلِّ طاغِيَــةٍ فــي الخَلــقِ مُحــتَكِمِ

مُسَـيطِرُ الفُـرسِ يَبغـي فـي رَعِيَّتِـهِ وَقَيصَـرُ الـرومِ مِـن كِبـرٍ أصَـمُّ عَـمِ

يُعَــذِّبانِ عِبــادَ اللــهِ فــي شُــبَهٍ وَيَــذبَحانِ كَمــا ضَــحَّيتَ بِــالغَنَمِ

وَالخَلــقُ يَفتِــكُ أقــواهُم بِأضــعَفِهِم كَاللَيــثِ بِــالبَهمِ أو كَــالحوتِ بِــالبَلَمِ

ثم يذكر مُعجزة الإسراء والمعراج:

أســرى بــكَ اللــهُ لــيلاً إذ مَلائِكَــهُ ... والرُّسلُ فـي المَسجِدِ الأقصـى عَلـى قَـدَمِ

لَمّــا خَطَــرتَ بِــهِ اِلتَفّــوا بِسَــيِّدِهِم ... كَالشُــهبِ بِالبَــدرِ أو كَالجُنــدِ بِــالعَلَمِ

صَــلّى وَراءَكَ مِـنهُم كُـلُّ ذي خَطَـرٍ ... وَمَــن يَفُــز بِحَبيــبِ اللــهِ يَــأتَمِمِ

جُبتَ السَماواتِ أو مـا فَـوقَهُنَّ بِهِـم ... عَلــى مُنَــوَّرَةٍ دُرِّيَّــةِ اللُجُــمِ

رَكوبَــةٌ لَــكَ مِــن عِــزٍّ وَمِــن شَــرَفٍ ... لا فـي الجِيـادِ وَلا فـي الأيـنُقِ الرُسُـمِ

مَشــيئَةُ الخــالِقِ البــاري وَصَــنعَتُهُ ... وَقُــدرَةُ اللــهِ فَــوقَ الشَــكِّ وَالــتُهَمِ

حَتّــى بَلَغــتَ سَــماءً لا يُطــارُ لَهــا ... عَلــى جَنــاحٍ وَلا يُسـعى عَلــى قَـدَمِ

وَقيــلَ كُــلُّ نَبــيٍّ عِنــدَ رُتبَتِــهِ ... وَيــا مُحَمَّــدُ، هَــذا العَــرشُ فَاِســتَلِمِ

خَطَطــتَ لِلــدّينِ وَالــدّنيا عُلومَهُمــا ... يــا قــارِئَ اللَوحِ بَـل يـا لامِـسَ القَلَـمِ

أحَطــتَ بَينَهُمــا بِالسِــرِّ وَانكَشَــفَت ... لَــكَ الخَــزائِنُ مِــن عِلــمٍ وَمِــن حِكَــمِ

وَضــاعَفَ القُربُ مـا قُلّـدتَ مِـن مِـنَنٍ ... بِــلا عِــدادٍ وَمــا طُوِّقــتَ مِــن نِعَــمِ

ثم يذكر حادثة الهجرة النبويّة الشريفة، ولجوء الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وأبي بكر الصّديق، رضي الله عنه، إلى غار حِراء، وما جرى في تلك الرحلة المباركة، وحماية الله، سبحانه وتعالى لهما، قال:

سَل عُصبَةَ الشِّركِ حَولَ الغارِ سائِمَةً ... لَــولا مُطــارَدَةُ المُختــارِ لَــم تُسَــمَ

هَل أبصَروا الأثَرَ الوَضّاءَ أم سَمِعوا ... هَمــسَ التَســابيحِ وَالقُــرآنِ مِــن أُمَــمِ

وَهَــل تَمَثَّــلَ نَســجُ العَنكَبــوتِ لَهُــم ... كَالغــابِ وَالحائِمــاتُ وَالزُغــبُ كَــالرّخَمِ

فَـــأدبَروا وَوُجـــوهُ الأرض تَلعَـــنُهُم كَباطِـــلٍ مِـــن جَـــلال الحَـــقِّ مُنهَـــزِمِ

لَـــولا يَـــدُ اللّـــهِ بِالجـــارَينَ مـــا سَـــلِما وَعَينُـــهُ حَـــولَ رُكـــنِ الـــدّينِ لَـــم يَقُـــمِ

تَوارَيـــــا بِجَنـــــاحِ اللّـــــهِ وَاِســـــتَتَرا وَمَـــن يَضُـــمُّ جَنـــاحُ اللّـــهِ لا يُضَـــمِ

يـــا أحمَـــدَ الخَيـــرِ لـــي جـــاهٌ بِتَســـمِيَتي وَكَيـــفَ لا يَتَســـامى بِالرَســـولِ سَـــمي

ثم يُظهر الشاعر أحمد شوقي كامل الأدب والاحترام لصاحب قصيدة البردة " محمد بن سعيد البوصيريّ (ت696/1295) الملقب شرف الدّين"، فيُقرّ أنّه لا يُعارض قصيدته "البردة" بل هو يسير على نهجها، ومن هنا جاء اسم قصيدة أحمد شوقي وهو" نهج البردة". وعليه لا صحة لمن يقول إنّها مُعارضة لقصيدة البردة، قال:

المـــادِحونَ وَأربـــابُ الهَـــوى تَبَـــعٌ لِصـــاحِبِ البُـــردَةِ الفَيحـــاءِ ذي القَـــدَمِ

مَديحُـــهُ فيـــكَ حُـــبٌّ خـــالِصٌ وَهَـــوىً وَصـــادِقُ الحُـــبِّ يُملـــي صـــادِقَ الكَلِـــمِ

اللّـــهُ يَشـــهَدُ أنّـــي لا أُعارِضُـــهُ مَـــنْ ذا يُعـــارِضُ صَـــوبَ العـــارِضِ العَـــرِمِ

وَإِنَّمـــا أنـــا بَعـــضُ الغـــابِطينَ وَمَـــنْ يَغـــبِط وَلِيَّـــكَ لا يُـــذمَم وَلا يُلَـــمِ

ويذكر أحمد شوقي عظم المقام الذي يقومه، ومهابته، وهو مدح الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، حيث فيه يُصاب سحبان وائل(ت674/54) –على فصاحته وبلاغته-بالخرس، فكيف به هو؟ ثم يعود إلى ذكر بعض صفات الرسول، صلّى الله عليه وسلّم،

هَـــذا مَقـــامٌ مِـــنَ الـــرَحمَنِ مُقتَـــبَسٌ تَرمـــي مَهابَتُـــهُ سَـــحبانَ بِـــالبَكَمِ

البَـدرُ دونَـكَ فـي حُسـنٍ وَفـي شَـرَفٍ وَالبَحـرُ دونَـكَ فـي خَيـرٍ وَفـي كَـرَمِ

شُـمُّ الجِبـالِ إِذا طاوَلتَهـا انخَفَضَـت وَالأنجُـمُ الزُهـرُ مـا واسَـمتَها تَسِـمِ

وَاللّيـثُ دونَـكَ بَأسـا عِنـدَ وَثبَتِـهِ ... إذا مَشَـيتَ إلـى شـاكي السِّلاحِ كَمـي

تَهفـو إلَيـكَ وَإن أدمَيـتَ حَبَّتَهـا ... فـي الحَـربِ أفئِـدَةُ الأبطـالِ وَالـبُهَمِ

مَحَبَّـةُ اللَـهِ ألقاهـا وَهَيبَتُـهُ ... عَلـى ابـنِ آمِنَـةٍ فـي كُـلِّ مُصـطَدَمِ

كَـأنَّ وَجهَـكَ تَحـتَ النَقـعِ بَـدرُ دُجـىً ... يُضـيءُ مُلتَثِمًـا أو غَيـرَ مُلتَـثِمِ

بَـدرٌ تَطَلَّـعَ فـي بَـدرٍ فَغُرَّتُـهُ ... كَغُـرَّةِ النَصـرِ تَجلـو داجِـيَ الظُلَـمِ

دُكِـرتَ بِـاليُتمِ فـي القُـرآنِ تَكرِمَـةً ... وَقيمَـةُ اللُؤلُـؤِ المَكنـونِ فـي اليُـتُمِ

اللَـهُ قَسَّـمَ بَـينَ النّـاسِ رِزقَهُـمُ ... وَأنـتَ خُيِّـرتَ فـي الأرزاقِ وَالقِسَـمِ

إنْ قُلـتَ فـي الأمـرِ لا أو قُلـتَ فيـهِ ... فَخيـرَةُ اللَـهِ فـي لا مِنـكَ أو نَعَـمِ
نَعَـمِ

ثم يُدافع أحمد شوقي عن الإسلام العظيم، فيرُدّ التّهم التي كان ومازال يُروّجها المستشرقون، والمبشرون النصارى واليهود وغيرهم ضد الإسلام، ويتبنّاها بعض تلاميذهم من العرب والمسلمين، ومن تلك التُّهم: أنّ الإسلام انتشر بحدّ السيف، فيقول: إنّ الجهاد بما فيه من ضوابط وأخلاق أفضل من الحروب التي تعتمدها الأمم غير الإسلاميّة بعامة والنصارى بخاصة الذين أقاموا دولهم على جماجم البشر وبدمائهم، قال:

قالوا غَزَوتَ وَرُسلُ اللَهِ ما بُعِثوا ... لِقَتلِ نَفسٍ وَلا جاؤوا لِسَفكِ دَمِ

جَهلٌ وَتَضليلُ أحلامٍ وَسَفسَطَةٌ ... فَتَحتَ بِالسَيفِ بَعدَ الفَتحِ بِالقَلَمِ

لَمّا أتى لَكَ عَفوًا كُلُّ ذي حَسَبٍ ... تَكَفَّلَ السَيفُ بِالجُهّالِ وَالعَمَمِ

وَالشَرُّ إن تَلقَهُ بِالخَيرِ ضِقتَ بِهِ ... ذَرعًا وَإن تَلقَهُ بِالشَرِّ يَنحَسِمِ

سَلِ المَسيحِيَّةَ الغَرّاءَ كَم شَرِبَت ... بِالصابِ مِن شَهَواتِ الظالِمِ الغَلِمِ

طَريدَةُ الشِّركِ يُؤذيها وَيوسِعُها ... فـي كُلِّ حينٍ قِتالًا ساطِعَ الحَدَمِ

لَولا حُماةٌ لَها هَبّوا لِنُصرَتِها ... بِالسَّيفِ ما انتَفَعَت بِالرِّفقِ وَالرُحَمِ

لَــولا مَكــانٌ لِعيســى عِنــدَ مُرسِــلِهِ وَحُرمَــةٌ وَجَبَــت لِلــروحِ فــي القِــدَمِ

لَسُــمِّرَ البَــدَنُ الطُهــرُ الشَّــريفُ عَلــى لَــوحَينِ لَــم يَخــشَ مُؤذيــهِ وَلَــم يَجِــمِ

جَــلَّ المَســيحُ وَذاقَ الصَّــلبَ شــانِئُهُ إِنَّ العِقــابَ بِقَــدرِ الــذَنبِ وَالجُــرُمِ

أَخــو النَبــيِّ وَروحُ اللــهِ فــي نُــزُلٍ فَــوقَ السَــماءِ وَدونَ العَــرشِ مُحتَــرَمِ

عَلَّمــتَهُم كُــلَّ شَــيءٍ يَجهَلــونَ بِــهِ حَتّــى القِتــالَ وَمــا فيــهِ مِــنَ الــذِمَمِ

دَعَــوتَهُم لِجِهــادٍ فيــهِ سُــؤدُدُهُم وَالحَــربُ أُسُّ نِظــامِ الكَــونِ وَالأُمَــمِ

لَــولاهُ لَــم نَــرَ لِلــدَولاتِ فــي زَمَــنٍ مــا طــالَ مِــن عُمُــدٍ أَو قَــرَّ مِــن دُهُــمِ

تِلــكَ الشَــواهِدُ تَتــرا كُــلَّ آوِنَــةٍ فــي الأَعصُــرِ الغُــرِّ لا فــي الأَعصُــرِ الدُهُــمِ

بِــالأَمسِ مالَــت عُــروشٌ وَاعتَلَــت لَــولا القَــذائِفُ لَــم تَــثلَم وَلَــم تَصُــمِ

أَشــياعُ عيســى أَعَــدّوا كُــلَّ قاصِــمَةٍ سُــرُدٍ وَلَــم نُعِــدَّ سِــوى حــالاتِ مُنفَصِــمِ

ثم يُقارن بين حضارة الإسلام العظيمة التي قامت على: التوحيد، والعدل، والأخلاق، والعلم، وبين الحضارتين الفارسية، والرومانيّة، ويسخر من أصحاب الدّعوات القوميّة القديمة التي كانت تنتشر في مصر وغيرها من الأقطار العربيّة مثل: الفرعونيّة، والفنيقيّة، والكنعانيّة وغيرها، ويُظهر تفوّق الحضارة الإسلاميّة، قال:

شَــريعَةٌ لَــكَ فَجَّــرتَ العُقــولَ بِهــا عَــن زاخِــرٍ بِصُــنوفِ العِلــمِ مُلــتَطِمِ

يَلــوحُ حَــولَ سَــنا التَوحيــدِ جَوهَرُهــا كَــالحَلي لِلسَّــيفِ أَو كَالوَشــيِ لِلعَلَــمِ

غَــرّاءُ حامَــت عَلَيهــا أَنفُــسٌ وَنُهــىً وَمَــنْ يَجِــد سَلسَــلًا مِــن حِكمَــةٍ يَحُــمِ

نــورُ السَــبيلِ يُســاسُ العــالِمونَ بِهــا تَكَفَّلَــت بِشَــبابِ الــدَهرِ وَالهَــرَمِ

يَجــري الزَمــانُ وَأَحكــامُ الزَمــانِ عَلــى حُكــمٍ لَهــا نافِــذٍ فــي الخَلــقِ مُرتَسِــمِ

لَمّـا اعتَلَـت دَولَـةُ الإِسـلامِ وَاتَّسَـعَت ... مَشَـت مَمالِكُـهُ فـي نورِهـا الـتَمَم

وَعَلَمَـت أُمَّـةٌ بِـالقَفرِ نازِلَـةٌ ... رَعـيَ القَياصِـرِ بَعـدَ الشـاءِ وَالـنَعَم

كَم شَـيَّدَ المُصـلِحونَ العـامِلونَ بِهـا ... فـي الشَّـرقِ وَالغَـربِ مُلكًـا بـاذِخَ العِظَم

لِلعِلـمِ وَالعَـدلِ وَالتَّمـدينِ مـا عَزَمـوا ... مِـنَ الأُمـورِ وَمـا شَـدّوا مِـنَ الحُـزُمِ

سُـرعانَ مـا فَتَحـوا الـدُنيا لِمِلَّـتِهِم ... وَأَنهَلـوا النّـاسَ مِـن سَلسـالِها الشَـبِمِ

سـاروا عَلَيهـا هُـداةَ النّـاسِ فَهـيَ بِهِـم ... إِلـى الفَـلاحِ طَريـقٌ واضِـحُ العَظَـمِ

لا يَهـدِمُ الـدَهرُ رُكنـا شـادَ عَـدلُهُمُ ... وَحـائِطُ البَغـيِ إِن تَلمَسـهُ يَنهَـدِمِ

نـالوا السَّـعادَةَ فـي الـدارَينِ وَاجتَمَعـوا ... عَلـى عَمـيمٍ مِـنَ الرُضـوانِ مُقتَسَـمِ

دَع عَنـكَ روما وَآثينـا وَمـا حَوَتـا ... كُـلُّ اليَواقيـتِ فـي بَغـدادَ وَالثُـوَمِ

وَخَـلِّ كِسـرى وَإِيوانـا يَـدِلُّ بِـهِ ... هَـوىً عَلـى أَثَـرِ النيـرانِ وَالأُيُـمِ

وَاتـرُك رَعمَسـيسَ إِنَّ المُلـكَ مَظهَـرُهُ ... فـي نهضَـةِ العَـدلِ لا فـي نَهضَـةِ الهَـرَمِ

دارُ الشَـرائِعِ رومـا كُلَّمـا دُكِـرَت ... دارُ السّـلامِ لَهـا أَلقَـت يَـدَ السَـلَمِ

ثم يفخر الشاعر أحمد شوقي بخلفاء الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، ويعتزّ بدورهم في بناء الحضارة الإسلاميّة، حيث ساد العلم، والأمن، والرّخاء، والأخوة بين المسلمين، قال:

خَلائِـفُ اللّـهِ جَلّـوا عَـن مُوازَنَـةٍ ... فَـلا تَقيسَـنَّ أَمـلاكَ الـوَرى بِهِـم

مَـنْ فـي البَريَّـةِ كَالفـاروقِ مَعدَلَـةً ... وَكَـابنِ عَبـدِ العَزيـزِ الخاشِـعِ الحَشِـمِ

وَكَالإِمـام إِذا مـا فَـضَّ مُزدَحِمًـا ... بِمَـدمَعٍ فـي مَـآقي القَـومِ مُـزدَحِمِ

الزاخِـرُ العَـذبُ فـي عِلـمٍ وَفـي أَدَبٍ ... وَالناصِـرُ النَـدبِ فـي حَـربٍ وَفـي سَلَمِ

أو كَـابنِ عَفّـانَ وَالقُـرآنُ فـي يَـدِهِ يَحنـو عَلَيـهِ كَمـا تَحنـو عَلـى الفُطُـمِ

وَيَجمَـعُ الآيَ تَرتيبـا وَيَنظُمُهـا عِقـدًا بِجيـدِ الليـالي غَيـرَ مُنفَصِـمِ

جُرحـانِ فـي كَبِـدِ الإسـلامِ مـا التَأمـا جُـرحُ الشّـهيدِ وَجُـرحٌ بِالكِتـابِ دَمـي

ج

ثم يذكر الفتنة التي نزلت بالمسلمين عند وفاة الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، والذهول الذي أصاب الفاروق عمر بن الحطاب، رضي الله عنه، ورباطة الجأش، وقدرة الاحتمال عند أبي بكر الصّديق، رضي الله عنهما، وكيف واجه أبو بكر الصّديق، رضي الله عنه، المرتدّين حتى أعاد للإسلام هيبته، وللمسلمين صحوتهم، قال:

وَمـا بَـلاءُ أبـي بَكـرٍ بِمُـتَّهَمٍ بَعـدَ الجَلائِـلِ فـي الأفعـالِ وَالخِـدَمِ

بِـالحَزمِ وَالعَـزمِ حـاطَ الـدّينَ فـي مِحَـنٍ أضَـلَّتِ الحُلـمَ مِـن كَهـلٍ وَمُحـتَلِمِ

وَحِـدنَ بِالراشِـدِ الفـاروقِ عَـن رُشـدٍ فـي المَـوتِ وَهـوَ يَقـينٌ غَيـرُ مُنـبَهِمِ

يُجـادِلُ القَـومَ مُسـتَلًّا مُهَنَّـدَهُ فـي أعظَـمِ الرُسـلِ قَـدرًا كَيـفَ لَـم يَـدُمِ

لا تَعـدُلوهُ إذا طـافَ الـدُّهولُ بِـهِ مـاتَ الحَبيـبُ فَضَـلَّ الصَـبُّ عَـن رَغَـمِ

ثم يأخذ بختم القصيدة، فيبدأ الختم بالصّلاة على الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، وآله، وصحابته، رضوان الله عليهم، ويمدحهم، قال:

يـا رَبِّ صَـلِّ وَسَـلِّم مـا أرَدتَ عَلـى نَزيـلِ عَرشِـكَ خَيـرِ الرُسـلِ كُلِّهِـمِ

مُحـي الليـالي صَـلاةً لا يُقَطِّعُهـا إلا بِـدَمعٍ مِـنَ الإشـفاقِ مُنسَـجِمِ

ج

مُسَـبِّحًا لَـكَ جُـنحَ الليـلِ مُحتَمِلًـا ضُـرًّا مِـنَ السُّـهدِ أو ضُـرًّا مِـنَ الـوَرَمِ

رَضِـيَّةٌ نَفسُـهُ لا تَشـتَكي سَـأمًا وَمـا مَـعَ الحُـبِّ إن أخلَصـتَ مِـن سَـأمِ

ج

وَصَـلِّ رَبّـي عَلـى آلٍ لَـهُ نُخَـبٍ جَعَلـتَ فـيهِم لِـواءَ البَيـتِ وَالحَـرَمِ

بـــيضُ الوُجـــوهِ وَوَجـــهُ الـــدَهرِ ذو حَلَـــكٍ شُـــمُّ الأُنـــوفِ وَأنـــفُ الحادِثـــاتِ حَمـــى

وَأهـــدِ خَيـــرَ صَـــلاةٍ مِنـــكَ أربَعَـــةً فـــي الصَـــحبِ صُـــحبَتُهُم مَرعِيَّـــةُ الحُـــرَمِ

الـــــراكِبينَ إذا نـــــادى النَبـــــيُّ بهـــــم مـــا هـــالَ مِـــن جَلَـــلٍ وَاشـــتَدَّ مِـــن عَمَـــمِ

الصـــــابرينَ وَنَفـــــسُ الأرضِ واجِفَـــــةٌ الضّـــــاحِكينَ إلـــــى الأخطـــــارِ وَالقُحَـــــمِ

ثـم يُنهـي أحمـد شـوقي قصـيدته بالابتهـال لله، سـبحانه وتعـالى، ومُستشـفعًا برسوله الكريم، صلّى الله عليه وسلّم، أن يُنقذ أمّة الإسلام ممّا هي فيه من: ضعف، وهوان، وذُلّ أدى إلى ضياعها، وتأخّرها عن الأمم الأخرى، ويدعوه، عزّ وجلّ، أن يهب الأمّة حُسن الخاتمة كما وهبها حُسن البداية، ببعثه الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، لها: رحمةً، ومُبشّرًا، وهاديًا، قال:

يـــا رَبِّ هَبَّـــت شُـــعوبٌ مِـــن مَنِيَّتِهـــا وَاســـتَيقَظَت أُمَـــمٌ مِـــن رَقـــدَةِ العَـــدَمِ

سَـــعدٌ وَنَحـــسٌ وَمُلـــكٌ أنـــتَ مالِكُـــهُ تُـــديلُ مِـــن نِعَـــمٍ فيـــهِ وَمِـــن نِقَـــمِ

رَأى قَضـــــاؤُكَ فينـــــا رَأيَ حِكمَتِـــــهِ أكـــرِم بِوَجهِـــكَ مِـــن قـــاضٍ وَمُنـــتَقِمِ

فَـــالطُف لِأجـــلِ رَســـولِ العـــالمينَ بِنـــا وَلا تَـــزِد قَومَـــهُ خَســـفا وَلا تُسِـــمِ

يـــا رَبِّ أحسَـــنتَ بَـــدءَ المُســـلِمينَ بـــهِ فَـــتَمِّمِ الفَضـــلَ وَامـــنَح حُســـنَ مُختَـــتَمِ

3. **إبراهيم عبد الفتاح آغا طوقان، عاش ما بين** (1905/1323 **و**1941/1360)[1].

ولـد إبـراهيم فـي مدينـة نـابلس فـي عائلـة ذات مكانـة سياسـيّة، واجتماعيّـة، واقتصادية وثقافية، هـي عائلـة طوقـان. وآل طوقـان بطـن من بطـون العرب الموالي الحياريين، الذين كانوا بدوًا يعيشون في غربي بادية الشام بين مدينتي حمص وحماة. وفرع من آل طوق الذين كانوا في تلك المنطقة في (القرن الثاني الهجري/ الثامن

(1) انظر ترجمته في: فدوى طوقان، أخي إبراهيم: الأعمال الشعرية، ص9-36؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 578/2؛ عمر فروخ، شاعران معاصران، ص13-150؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص507؛ أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، ص374.

الميلادي)، ومدحهم الشاعر العباسيّ أبو تمّام، حبيب ابن أوس الطائيّ (ت231/845). وقد هاجروا في (أواسط القرن التاسع الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ) إلى مدينة نابلس، واستقرّوا بها، وانتقلوا من حياة البداوة إلى الحضر، وفي العهد العثمانيّ أيّدوا الحكم العثماني، ودخل بعضهم الإنكشارية[1]، ومنهم إبراهيم آغا الشربجي، الذي ينتمي إليه فرع إبراهيم طوقان، وظلّ هذا اللقب (آغا)[2] متوارثًا في العائلة، وآخر مَنْ توارثه هو عبد الفتاح آغا، والد الشاعر إبراهيم.

تزوج عبد الفتاح ابنة خاله فوزيّة أمين عسقلان، ورُزق بعشرة أولاد، كان إبراهيم ثانيهم، وشقيقته فدوى ثامنهم. وقد نشأ إبراهيم على الحرية، وتمتع بعطف خاص من الأسرة بعامه، وجدّه داود آغا (ت 1919/1338) بخاصة نظرًا لحالته الصحية، وذكائه الفطريّ.

(1) الإنكشارية: القوات الجديدة، أسسها السلطان أورخان بن عثمان في بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص41.
(2) آغا: السّيد صاحب المكانة العالية. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص15.

ثقافته

تشكّلت ثقافة إبراهيم طوقان الأدبية والسياسية والدينية من رافدين هما: الأول، الرافد الرسمي؛ فقد تلقى تعليمه المدرسي في مدينة نابلس، وبخاصة المدرسة الرّشادية الغربية، وفيها اعتنى بنبوغه الأدبي المعلّمان: إبراهيم أبو الهدى الخماش، وفهمي هاشم، ثمّ التحق بمدرسة المطران في القدس سنة (1919/1338) طالبًا داخليًّا، وقد كان أخوه أحمد طوقان يدرس اللغة الإنجليزية وآدابها في الكلية العربية بالقدس، فعرّفه بالأستاذ نخلة زريق (ت1920/1339) الذي زاد من حبّه للغة العربية وآدابها. وتخرّج إبراهيم في مدرسة المطران بعد أربع سنوات وذلك سنة (1924/1341)، وقد أثّرت في أخلاقه تأثيرًا سلبيًا. "إنّ إبراهيم لا يذكر مدرسة المطران من الناحية الأخلاقية بخير أبدًا"[1].

ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت سنة (1923/1341) فدرس الصف الخامس الاستعداديّ آخر صفوف الدائرة الاستعداديّة، وتخرّج فيها في (شهر ذي القعدة 1342الموافق لحزيران 1924)، ثم التحق بدائرة العلوم، فحصل سنة (1929/1347) على بكالوريوس علوم.

أما الرافد الثاني لثقافة إبراهيم طوقان، فتمثّل في قراءات إبراهيم الخاصة، حيث اطلع على شعر عدد من شعراء العربية القدامى والمعاصرين له، ومنهم أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت815/199)، وأبو الفضل، العباس ابن الأحنف (ت806/190)، والبحتري، الوليد بن عبيد الطائيّ(ت897/284)، وأبو العباس، عبد الله بن المعتز(ت909/296)، ومحمد بن عبيد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي(ت1187/583)، ومحمود سامي البارودي (ت1904/1322)، وحافظ إبراهيم (ت1932/1351)، وأحمد شوقي (ت1932/1351) وغيرهم كثير. كما اطّلع على الأدب التركيّ، وعلى الأدبين الإنجليزيّ والفرنسيّ، فتأثر بهما، وبخاصة المذهب الوجداني (الرومانسي) الذي كان سائدًا في ذلك الوقت، لكنّه بقي محافظا على الشعر العربيّ الأصيل. وكان يحبُّ تعلّم اللغات، فأتقن الإنجليزية، وتعلّم أربع لغات أخرى هي: التركيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، والإسبانيّة. وفضلًا عن كل ما سبق كان إبراهيم طوقان يحرص على قراءة القرآن الكريم باستمرار، ويكثر من ذلك في شهر رمضان المبارك، قال: "الجميل في رمضان عندي خاصة أنّني أقرأ القرآن فيه، وأقرأه كلّه، هذا ما أصنعه في كلّ سنة، وأتلذّذ به، فأصقل به لغتي، ونعم صِقال اللّغة القرآن، وتستوقفني بعض التراكيب، فأرجع إلى كتب البلاغة، فأتفقّه بكشف أسرارها، وتُشْكل عليّ بعض المعاني، فأرجع إلى سيّد المفسّرين، أستاذ الدنيا جار الله الزّمخشريّ،

(1) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص19.

فأصدر عنه ريّان شبعان، وأنتبه إلى طريقة تاريخية فأرجع إلى أبي جعفر، محمد بن جرير الطبريّ، فأنسى نفسي بين أحاديثه ورواياته، هذا هو فضل رمضان عليّ"[1].

وظائف إبراهيم طوقان

عمل إبراهيم في وظائف عديدة، منها:

1- التعليم، فبعد أن تخرّج في الجامعة الأمريكية، عاد إلى مدينة نابلس فعمل معلّمًا للغة العربية في مدرسة النجاح الوطنية لمدّة سنة. ثم عمل في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة (1930/1349) بعقد لمدّة ثلاث سنوات، لكنه استقال قبل سنة من انتهاء العقد بسبب نفرة شخصيّة بينه وبين أحد المدرسين ذوي التأثير في توجيه سياسة الجامعة، حيث كتب فيه تقريرًا كيديًّا، وعاد إلى فلسطين، فعمل معلّمًا للغة العربية في المدرسة الرشيديّة بالقدس، فيما كان شقيقه أحمد يعمل معلّما في الكلية العربية، لكنّه استقال من وظيفته بسبب سوء وضعه الصحي، وعاد إلى نابلس، ثم عمل في آخر شهور حياته معلّمًا في "دار المعلمين الريفيّة" في منطقة "الرّستميّة" ببغداد عاصمة العراق، وذلك بترتيب من صديقه طالب مشتاق الذي كان يشغل وظيفة قنصل العراق في القدس، وسكن في حيّ الكرّادة ببغداد حيث كان مسكنه يبعد 4كم عن مكان عمله. ما أثّر سلبيا على حالته الصحيّة.

2- العمل الإداري في بلدية نابلس، بعد أن ساءت حالة إبراهيم طوقان، وهو في المدرسة الرشيدية عاد إلى نابلس، وعمل في دائرة المياه، ثم ترقّى إلى مدير دائرة المياه، وذلك سنة (1934/1353)، وقد ارتاح في هذه الوظيفة؛ إذ كتب لصديقه عمر فروخ يقول: "شغلي يتعلّق بأول الأشياء التي تنفي عن القلب الحزن"[2].

3- العمل الإداري الخاص، لم يستمرّ إبراهيم طوقان في عمله بالبلدية طويلا؛ لأنه لم يستطع الجمع بينه وبين عمله في إدارة حسابات "مصبنة العائلة" (مصنع الصابون)، فاستقال من البلدية صيف سنة (1935/1354) وتفرّغ لإدارة المصبنة وتنظيم حساباتها.

(1) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص73.
(2) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص47.

4- العمل في الإذاعة الفلسطينية، في (شهر رمضان سنة1354 الموافق لشهر آذار 1936) تسلّم إبراهيم طوقان، وظيفة مدير إدارة البرامج العربية في الإذاعة الفلسطينية بالقدس، بدرجة "مدير فئة ك"، وهي درجة أولى يبتدئ مرتبها بمبلغ قدره تسع وعشرون جنيهًا في الشهر. وهو راتب جيّد جدًّا في ذلك الوقت. واستمرّ في هذه الوظيفة حتى (شهر رمضان سنة1359الموافق لشهر تشرين الأول 1940)، حيث اضطر للاستقالة نتيجة مكائد كثيرة حاكها له مسؤولو الإذاعة الإنجليز واليهود وبعض عملائهم.

شاعريته

تدّفقت شاعرية إبراهيم طوقان وهو على مقاعد الدراسة، وقد نظم في أكثر موضوعات الشعر العربيّ، فله شعر في: الغزل، والمجون، والسياسة، والاجتماع، والمناسبات، وبخاصة المدح، والرثاء، والهجاء، وله شعر في الوصف، كما نظم الأناشيد في موضوعات عديدة.

ميزات شعره

امتاز شعر إبراهيم طوقان بمميزات عديدة منها:

1- المحافظة على الوزن والقافية.

2- سهولة الألفاظ وبعدها عن الغرابة.

3- وضوح الأسلوب، وبعده عن الغموض والإبهام والرّمزية.

4- يكون شعره جيّدًا عندما ينفعل بالحدث، وتقلّ جودته في المناسبات.

المؤثرات في شعر إبراهيم طوقان

عوامل عديدة أثرت في شاعرية إبراهيم طوقان، وأهمها:

1- بيئته الأسرية، فقد ولد ونشأ في أسرة عريقة، ومثقفة، وتوارث بعضها نظم الشعر، وحب العلم.

2- حالته الصحية الصعبة، فقد كان هزيل الجسم، وعانى من ثلاثة أمراض منذ صغره، فنمت معه طوال عمره حتى قضت عليه.

3- ثقافته الأدبية العربية الواسعة، واطلاعه على القرآن الكريم والحديث الشريف، والتاريخ الإسلامي، فضلا عن الآداب الغربيّة ولا سيما الإنجليزية.

4- تأثره بأحداث وطنه فلسطين، والوطن العربيّ، فكان شعره سجلًّا لأحداث تاريخيّة، واجتماعية، وسياسية كثيرة.

مفهومه للشعر

كـان لإبـراهيم طوقـان مفهومـه الخـاص للشـعر، فقـد رأى أن الشـعر هـو: عبـارات نثريـة اتفق أن تكون موزونـة، ولا أثـر لإعمـال الفكر فيهـا، قـال فـي رسـالة كتبها لصديقه عمر فروخ: "أريد أن أقول أو أن أضع تعريفًا للشّعر السّهل الممتنع فلم أجد أحسن من تعريفه بعبارات نثرية موزونة لا أثر لكدّ الخـاطر عليهـا، بـل اتفق لهـا هي ولم يتفق لكَ أنتَ أن تكون موزونة"[1] ومن الناحيـة الفكريـة كـان إبـراهيم طوقـان "يحب الفكرة البسيطة تخرجها عاطفة معقّدة"[2].

وفاته

نشأ إبراهيم طوقان منذ ولادتـه مهزول الجسم، ضـعيفه، حيث رافقـه مـرض ثلاثيّ؛ "صممٌ في أذنه، وقرحة في معدته، ثم استعداد في أمعائه لأنـواع الالتهـاب"[3]. وقد جعله هذا المرض الثلاثي كثير التردّد علـى الأطبـاء، حتـى قـال فـي ذلك يصـف حياته:[4]

مِـــنْ طَبيـــبٍ لطبيـــب فقُبحًـــا لحيـــاةٍ علـــى الأطبـــاءِ وقـــف

وكان جسد إبراهيم طوقان لا يناسبه الحرّ الشديد، فلمّا سافر للعمل في بغداد، خشي عليه والده من جوّ العراق وحرارته، لكنه لم يستطع منعـه، فلـم تمـض عليـه إلّـا شـهور عدّة فـي العـراق حتـى أصـيب فـي (أول ربيـع الأول سنة 1360 الموافق لأول نيسـان 1941) بمـرض شـديد، فعـاد إلـى نـابلس، ومنهـا نقل إلـى المشـفى الفرنسـي فـي القـدس للعـلاج، ولكنّـه انتقـل إلـى رحمـة ربـه يـوم الجمعـة (6ربيـع الآخـر1360 الموافق1941/5/2)، فنقل جثمانه بسيارة تغمرها الأكاليل والزهور إلى نابلس، وصُلي عليه في مسجد نابلس الكبير بعد صلاة العصر من يوم السبت (7 ربيـع الآخر 1360 الموافق 1941/5/3)، ودفن فـي المقبـرة الشـرقية. وقد أبّنـه عدد من الخطبـاء، ورثـاه عدد من شعراء العربية وكتابها في الوطن العربيّ.

آثاره

تـرك إبـراهيم طوقـان ديـوان شـعر كبيـر نسـبيا، ضـم أكثـر شـعره، وقـد طبـع طبعـات عديـدة منهـا طبعـة صـدرت عـن مؤسّسـة جـائزة عبـد العزيـز سـعود البـابطين

(1) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص78.
(2) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص78.
(3) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص20.
(4) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص20.

للإبداع الشعري، في الكويت، من إعداد وترتيب ماجد الحكواتي، سنة 2002. وعنوانها "إبراهيم طوقان: الأعمال الشعرية الكاملة".

كما مكنه اطلاعه الأدبي الواسع، وثقافته الجامعية من العمل الأكاديمي في التحقيق، وله في ذلك عملان هما:

1- ساعد المستشرق التشيكي الدكتور عبد الرحمن نيكل في تحقيق كتاب "الزهرة" لابن داوود الأصفهاني، وهو مجموع شعري بارع.

2- قام بتحقيق ديوان الشاعر العباسي العباس بن الأحنف. ولم ينشره.

نماذج من شعره

انتقد إبراهيم طوقان في شعره صراع زعماء الأحزاب الفلسطينية، والعائلات الكبيرة على المناصب التي كان يصنعها لهم العدو البريطاني في هذه البلدية أو تلك، أو في هذه المؤسّسة أو تلك، وكان نقده يأتي صريحًا أو تلميحًا، وفي (شهر شوال سنة 1353الموافق لشباط1935) انتقد سماسرة الأرض، الذين كانوا يدّعون الحرص على البلاد في العلن، فيعرفهم العامة بأنّهم زعماء الوطن وحُماته، فيما هم سماسرة يبيعون البلاد للإنجليز واليهود معًا، قال من قصيدة " السّماسرة"[1]:

أمّا سماسرةُ البلادِ فعصبةٌ عارٌ على أهل البلادِ بقاؤها

إبليسُ أعلن صاغرًا إفلاسَه لما تحقَّق عنده إغراؤها

يتنعّمون مُكرَّمين، كأنّما لنعيمهم عمَّ البلادَ شفاؤها

همْ أهلُ نجدتها، وإنْ أنكرتَهم وهُمُ، وأنفُكَ راغمٌ، زعماؤها

وحمائها، وبهم يتمّ خرابُها وعلى يديهمْ بيعُها وشراؤها!

وكان لاطلاع إبراهيم طوقان على حقيقة أوضاع الشعب الفلسطيني، والصراع القائم بين أحزابه وعائلاته، وحقيقة تخاذل الزّعماء العرب في الدفاع عن فلسطين، ومناصرة أهلها أثر كبير على تشاؤمه من مستقبل فلسطين، واستشرافه

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص212.

لذلك المستقبل المفزع والرهيب، فقال يصوّر خوفه على مصير فلسطين وشعبها سنة(1935/1353) قصيدة بعنوان "مناهج"، ومنها[1]:

أمامَـــك أيُّهـــا العربـــيُّ يـــومٌ تشـــيبُ لهولـــهِ ســـودُ النواصـــي

وأنـــتَ كمـــا عهـــدتُك لا تُبـــالي بغيـــر مظـــاهِرِ العبَـــثِ الرّخـــاصِ

مصـــيرك بـــات يَلْمَسُـــه الأدانـــي وســـار حديثُـــهُ بـــين الأقاصـــي

فـــلا رَحْـــبُ القصـــور غـــدًا بباقٍ لســـاكنها ولا ضـــيق الخصـــاصِ

وفي مقابل صراع الأحزاب والعائلات، وخيانة السماسرة، كان هناك مجاهدون شكّلوا في جهادهم نموذجًا للأجيال الناشئة، وقد نال هؤلاء اهتمام إبراهيم طوقان، فوصف بعض جهادهم، وجعلهم مثالًا يُحتذى في الجهاد والتّضحية للأجيال الفلسطينية الناشئة، الساعية إلى تحرير أرضها، وتطهير ومقدّساتها، وحماية شعبها، وبناء دولتها المستقلة، في قصيدة بعنوان "الثلاثاء الحمراء". ففيها وصف بطوله الشهداء: فؤاد حجازي من مدينة صفد، ومحمد جمجوم وعطا الزير من مدينة الخليل. وكان سبب استشهادهم أنّ بعض اليهود حاول في صيف سنة(1929/1347) تغيير طريقة أدائهم الصلاة عند حائط البراق بالمسجد الأقصى المبارك، واعتدوا على المسلمين، فعمّت المدن والقرى الفلسطينية ثورة شعبية قام جيش الاحتلال البريطاني بقمعها بالحديد والنار، واعتقل مئات الشباب الفلسطيني، وحكم على ثلاثة منهم بالإعدام شنقًا حتى الموت، وقد نفّذ حكم الإعدام فيهم (يوم الثلاثاء 5 صفر الخير 1349 الموافق 1930/6/31) في سجن عكا، وقد جرى تنفيذ الحكم في ثلاث ساعات متتالية، تنافس فيه الشهداء على مَنْ يتقدّم أوّلًا، فكان أن تمّ التنفيذ في فؤاد حجازي، ثم محمد جمجوم، ثم عطا الزير، وقد نظم إبراهيم طوقان ذلك الحدث الرهيب، في قصيدة بعنوان "الثلاثاء الحمراء"، وفيها شبّه الحدث بمحاكم التفتيش الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس في مشاهد عديدة، منها قوله[2]:

يـــومٌ أطـــلَّ علـــى العصـــور الخاليـــه ودعـــا: "أمـــرَّ علـــى الـــورى أمثاليـــهْ؟"

فأجابـــهُ يـــومٌ: "أجـــلْ" أنـــا راويـــه لمحـــاكم التفتـــيش تلـــك الباغيـــهْ

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص218.
(2) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص140-143.

ولقـد شـهدت عجائبًـا وغرائبا

لكـنّ فيـك مصـائبًا ونوائبا

ولـم ألْـقَ أشـباهًا لهـا فـي جورهـا فاسـألْ سـوايَ وكـم بهـا مـن مُنْكَـرِ!

* *

وإذا بيـوم راسـف بقيـوده فأجـاب، والتـاريخ بعـض شـهوده:

انظـر إلـى بـيض الرّقيـق وسـوده مَـنْ شـاءَ كـانوا مُلْكَـهُ بنقـوده

بشـرٌ يُبـاع ويُشـترى فتحرّرا

ومشى الزّمانُ القهقهرى فيما أرى

فَسـمعتُ مَـنْ منـعَ الرّقيـقَ وبيعَـهُ نـادى علـى الأحـرار: يـا مَـنْ يشـتري!

ثم أنطق الشاعر الساعة التي شنق فيها الشهيد فؤاد حجازي، وهي الساعة الأولى بلسان الشهيد، فقال:

أنـا سـاعةُ الـنّفس الأبيّـة الفضـلُ لـي بالأسـبقيَّه

أنـا بكـرُ سـاعاتٍ ثـلا ثٍ كلّهـا رمـزُ الحميّـه

بنـتُ القضـيّة إنّ لـي أثـرًا جليلًـا فـي القضـيّه

أودعـتُ فـي مهـج الشَّـبيبةِ نغمـة الـرّوح الوفيّـه

ثم أنطق ساعة شنق الشهيد محمد جمجوم، وهي الساعة الثانية بلسان الشهيد، فقال:

أنـــا ســـاعةُ الرّجـــل العتيـــد أنـــا ســـاعةُ البـــأس الشـــديد

أنـــا ســـاعةُ المـــوتِ المشـــرّ فـِ كـــلّ ذي فعـــلٍ مجيـــد

بطلـــي يُحطّـــمُ قيـــدَهُ رمـــزًا لتحطـــيم القيـــود

زاحمـــتُ مـــن قبـــل لأسْ بقَهـــا إلـــى شـــرف الخلـــود

وقـــدَحتُ فـــي مهـــج الشّـــبا بِ شـــرارةَ العـــزمِ الوطيـــد

هيهـــاتِ يُخـــدَعُ بـــالوعو دِ وأن يُخّـــدَّرَ بـــالعهودِ

قســـمًا بـــروح محمّـــدٍ تلقـــى الـــرّدى حلـــو الـــورود

قســـمًا بأمِّـــكَ عنـــد مَـــوْ تِـــكَ وهـــي تهتـــفُ بالنّشـــيد

مـــا نـــالَ مَـــنْ خَـــدَمَ الـــبلا دَ أجـــلَّ مـــن أجْـــرِ الشّـــهيد!

ثم أنطق ساعة شنق الشهيد الثالث عطا الزير، وهي الساعة الثالثة بلسان الشهيد، فقال:

أنـــا ســـاعةُ الرَّجـــل الصّـــبور أنـــا ســـاعةُ القلـــب الكبيـــرْ

رمـــزُ الثّبـــاتِ إلـــى النهايـــةِ فـــي الخطيـــرِ مـــن الأمـــورْ

بطلـــي أشـــدُّ علـــى لقـــاء المـــو تِ مـــن صُـــمِّ الصّـــخورْ

جـــذلانَ يرْتَقِـــبُ الـــرّدى فاعجـــبْ لمـــوتٍ فـــي ســـرورْ

وقد برع إبراهيم طوقان في نظم الأناشيد الوطنية والحماسية، وأول نشيد نظمه هو بعنوان "نشيد بطل الريف" قال فيه[1]:

فـــــــي ثنايـــــــا العجـــــــاجْ والتحـــــــــــامِ السُّـــــــــيوفْ

بينمـــــــــــا الجـــــــــوّ داج والمنايـــــــــــــا تطـــــــــــوفْ

يتهـــــــــــادى نســـــــــــيم فيـــــــــه أزكـــــــــى ســـــــــلام

نحـــــــو عبـــــــد الكـــــــريم الأميـــــــــــــر الهمـــــــــــام

ريفُنا غابُنا نحنُ فيه الأسود ريفُنا نحميه

كلُّنا يعجبُ بفتى المغربِ

كلُّنا يطربُ لانتصار الأبي

أينَ جيشُ العدا إن دعا للجهاد

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية، ص.255. وبطل الريف هو: محمد بن عبد الكريم الخطابي، عاش ما بين(1299/1882و1382/1963)، ولد في بلدة أجدير بالمغرب، وتعلم فيها، ثم أكمل تعليمه الشرعيّ في جامعة القرويين بتونس، وعمل في القضاء بمدينة مليلة المحتلة من قبل إسبانيا، وبعد الحرب العالمية الأولى قاد ثورة الريف المغربي ضد إسبانيا، واستطاع تكوين جمهورية الريف، ثم تحالف المحتلون الفرنسيون والإسبان ضده، فاعتقل سنة(1344/1926)، ونفي مدة عشرين سنة، ثم طرد عام(1366/1947) إلى مصر فعاش بها حتى وفاته. وقد نظم إبراهيم طوقان هذا النشيد في أحد أيام شتاء سنة(1342/1924)، حيث كانت أخبار انتصارات المجاهدين في الريف المغربي بقيادة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي على جيش الاحتلال الإسباني تتوالى، وامتد زحف المجاهدين إلى جيش الاحتلال الفرنسي في باقي البلاد المغربية، فأثار ذلك حمية إبراهيم طوقان، ووضع هذا النشيد لثورة الأمير الخطابي، يصوّر فيه صدى الانتصارات في قلوب العرب والمسلمين، الذين كانوا يسعون للتحرّر من الاستعمار الأوروبي بعد سقوط الدولة العثمانية. انظر: الزركلي، الأعلام،216/6؛ منير البعلبكي، موسوعة الموارد العربية، م754/2.

أصبحوا أعبدًا بالسيوف الحدادْ

ريفُنا غابُنا نحنُ فيه الأسود ريفُنا نحميه

وفي سنة(1930/1348) عندما كان إبراهيم طوقان أستاذًا في كلية النجاح الوطنية بمدينة نابلس، طلب منه بعض طلبة المغرب العربيّ الذين كانوا يدرسون في الكلية أن يضع نشيدًا آخر للمغرب، فنظم نشيدًا بعنوان "فِتيةُ المغرب" قال[1]:

فتيـــة المغـــرب هيّـــا للجهـــاد نحـــنُ أولـــى النـــاس بالأنـــدلس

نحـــن أبطـــال فتاهـــا ابـــن زيـــاد ولهـــا نُـــرخصُ غـــالي الأنفـــسِ

وأكثر الأناشيد الوطنية التي نظمها إبراهيم طوقان ذيوعًا هو نشيد عنوانه "موطني" إذْ نظمه للشباب الفلسطيني، ثم انتشر في أنحاء العالم العربي، حيث تحوّل إلى نشيد عام لكل عربي، قال[2]:

مـــوطني الجـــلالُ والجمـــالُ والســـناءُ والبهـــاءُ فـــي رُبـــاكْ

والحيـــــاةُ والنجـــــاةْ والهنـــاء والرّجـــاءْ فـــي هـــواكْ

هل أراكْ
ســـــالمًا مُنعّمـــــا وغانمًـــــا مكرّمـــــا

هـــــــــل أراكْ فـــــــــي عـــــــــلاكْ

تبلغ السماكْ
موطني

مـــوطني الشـــباب لـــن يكـــلَّ همُّـــه أن تســـتقلَّ أو يبيـــدْ

نســـتقي مـــن الـــردى ولـــن نكـــون للعـــدى كالعبيـــدْ

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص261.
(2) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص264.

لا نريدْ

ذلّنـــــــــــا المؤبـــــــــــدا وعيشـــــــــــنا المنكـــــــــــدا

لا نريـــــــــــــــــــــــدْ بـــــــــــــــل نعيـــــــــــــــدْ

مجدَنا التليدْ

موطني

مـــــوطني الحســـــامُ واليـــــراعُ لا الكـــــلامُ والنـــــزاع رمزنـــــا

مجـــــــــــدنا وعهـــــــــــدنا وواجـــــب إلـــــى الوفـــــا يهزُّنـــــا

عِزُّنا

غايـــــــــــةٌ تشـــــــــــرّف ورايـــــــــــةٌ ترفـــــــــــرفُ

يـــــــــــا هَنـــــــــــاكْ فـــــــــــي عـــــــــــلاكْ

قاهرًا عداكْ

موطني

قصيدة "حطّين"

حثَّ فيها إبراهيم طوقان أمير الشعراء أحمد شوقي على النّظم في فلسطين وقضيتها، قال يرحِّبُ بشوقي[1]:

أهلًا بربِّ المهرجان أهلًا بنابغة البيان

مَلِكِ القلوبِ المستقلْ لِ بعرشِها، والصَّولجان

ومنها:

أهلًا بشوقي شاعرِ الْ فُصحى ومُعجزةِ البيان

يا باكيَ الفيحاءِ حِي نَ أبتْ تقيمُ على الهوان

أيامَ كانت وردةً بِدَم البواسلِ كالدِّهان

أرسلتَ عن بردى سَلا مَكَ في لظى الحَربِ العَوان

ثم يطلب منه النّظمَ في فلسطين، فيهُزُّه هزًّا، قال:

عَرِّجْ على حِطّينَ واخْ شَعْ يُشْجِ قلبَكَ ما شَجاني

وانظرْ هنالك هَلْ تَرى آثارَ يوسفَ في المكان

أيقِظْ صلاحَ الدّين رَب بَ التاج والسيفِ اليماني

ومُثيرَها شعواءَ أيْ يُوبيّة الخيل الهجان

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص95-97. نظم إبراهيم طوقان قصيدة "حطين" عندما عزم أحمد شوقي على زيارة فلسطين حيث أعدّ الأدباء الفلسطينيون العدّة لإقامة مهرجان تكريمًا له، لكنّ الزّيارة لم تتم، وقد هدف إبراهيم طوقان من القصيدة إلى إثارة أحمد شوقي، وهزّه لينظم شعرًا في قضية فلسطين، حيث لم ينظم شيئًا فيها، على الرغم من الصدى الكبير الذي تركه وعد بلفور في العالمين العربيّ والإسلاميّ.

ثم قال يُذكّره بما فعله صلاح الدّين الأيوبيّ بالفرنجة في معركة حطّين، حيث لا سبيل للنّصر غير سبيله، قال:

حطّـــينُ يومُـــكِ لـــيس يُـــنْ كِـــــرُ شـــــاهدِيه الخافقـــــان

تتطـــــــايرُ الأرواحُ فِـــــــي هِ، مـــــن السِّـــــنان إلـــــى السِّـــــنان

وتـــــرى السّـــــهامَ مُقوَّمـــــا تٍ، فـــــوق أجســـــامٍ حَـــــوان

فـــــــإذا أديـــــــمُ الأرض أحْ مَـــــرُ، مـــــن دَمِ الإفـــــرنج قـــــان

يُســـقَوْن مـــن كـــأس الـــرَّدى ومَلـــــــيكُهم ظمـــــــآنُ عـــــــان

حتـــى انْجلـــى رَهْـــجُ الـــوغَى والنَّصـــــــرُ مرمـــــــوقُ العَنـــــــان

ومَشَـــى صـــلاحُ الـــدّين تَـــحْ تَ لوائـــــــه فـــــــي مهرجـــــــان

وعـــــــلا الأذانُ ورَجَّعـــــــتْ تكبيـــــــرَهُ شُـــــــرَفُ الأذان

ومنها يُذكّر أحمد شوقي بالمصيبة في فلسطين، وقد خاطبَه بكنيته" أبو علي"، تحبُّبًا، وتقرُّبًا زيادةً في التأثير عليه، قال:

جـــلَّ المصـــابُ أبـــا عَلِـــيْ يٍ، فابْـــكِ هاتيـــكَ المغـــاني

ذهـــبَ الَّـــذين عهـــدتَهم لا يصـــبرونَ علـــى الهـــوان

فـــي مصـــرَ يطمـــعُ أشـــعبٌ وهنـــا تَنـــادى أشـــعبان

ومنها:

خُـــذها إليـــكَ وأنـــتَ عَـــنْ هـــا يـــا أميـــرَ الشِّـــعرِ غـــان

حســـــــناءَ فيهـــــــا للصِّـــــــبا نَـــــزَقٌ علـــــى خَفَـــــر الحِســـــان

نَفحاتُهـــــــا مـــــــن كَرْمـــــــةٍ تُعـــزى إلـــى الحَسَـــن بـــن هـــاني

هيهـــات تبلـــغُ شـــأوكَ الـــشْ شُـــــــعراءُ يومًـــــــا أو تُـــــــداني

قصيدة " عتاب إلى شعراء مصر"

عاتب فيها إبراهيم طوقان شعراء مصر بعامّة، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران بخاصّة على عدم ذكرهم فلسطين في أشعارهم، على الرّغم من مكانتهم الشعريّة، ومن عظم المصيبة التي أوقعها الاحتلال البريطاني على فلسطين، وأهلها من خلال إصدار وعد بلفور؛ وذلك يُشير إلى حقيقة تأثير الإنجليز على الأدباء العرب في القضية الفلسطينيّة، والدّور الذي كانت تقوم به المدارس والمذاهب الأدبيّة في توجيه الأدباء نحو موضوعات مُحدّدة من النّظم بحجة التّطوّر والتّقدّم، حيث كانت تتجنّب التحريض على الجهاد لدحر الاحتلال الغربيّ، قال[1]:

رَوضُـــنا مِـــن رياضـــكم فَينـــان وَثَرانـــــا مِـــــن نـــــيلكُم رَيّـــــانُ

وَهَوانـــا لَـــو تَقـــدرون هَوانـــا كُـــلُّ قَلـــبٍ مِنـــهُ لَكُـــم مَـــلآن

ومنها يُعرَّضُ بأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران الذين هزّتهم أحداث كثيرة في العالم؛ قديمة وحديثة، فنظموا فيها، بينما لم تهزُّهم أحداث فلسطين شقيقة مصر وجارتها، قال:

خَطبنـــا لا يَهـــزُّ شَـــوقي ولَكـــنْ جـــاءَ رومـــا فَهَـــزَّه الرُّومـــان

خَطبنـــا لا يَهُـــزُّ حـــافظ إبـــرا هـــيم لَكـــنْ تَهُـــزُّه اليابـــان

مـــا لِمُطـــران يـــا فَلســـطين شَـــأن بـــكَ لَكـــنْ لَـــهُ بنيـــرونَ شـــان

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص247-248.

قصيدة "هجاء المبشِّرين"

كان إبراهيم طوقان يعرف حقيقة الصراع في فلسطين، وأنّه صراع دينيّ، وقد تنبّه لما يقوم به المبشرون النّصارى فيها، فقال قصيدةً هجاهم فيها وبين مخاطرهم، منها قوله[1]:

كلّما ومَنْ خُتِمَ الرُسْل الكرامُ به ومَنْ خَصَصْتَ بمرجُوّ الشَّفاعاتِ

ما كانَ هجوي سوى نَصرٍ لدينكَ مِنْ مُبشّرينَ أثونا بالرّقاعاتِ

كَمْ أظهروا رحمةً للمسلمين، وقد علمْتَ ما أضمروه من عداواتِ

إنّي لأرجو وصَحْبي أنْ يكونَ لنا لديكَ عن هجوهم حُسْنُ المكافاةِ

قصيدة "ردّ على رئوبين شاعر اليهود"

وكان الشاعر اليهوديّ رئوبين نظم قصيدة عيّر فيها العرب بأن هاجر أم إسماعيل، عليه السّلام-جدّ العرب-جارية بينما سارة أم أسحق، عليه السّلام-جدّ اليهود-حرّة، فنظم هذه القصيدة ردّ فيها على الشاعر اليهوديّ ردًّا مُفحمًا، وبين نقائص اليهود، قال[2]:

يَا يَهوديُّ كَيفَ علمك بالتو راة قُل لي أم فاتَكَ التَعليمُ

بَينَ أسفارها خَلائق عَنكُم مُبتداها وَمُنْتَهاها ذَميمُ

يوسف باعَهُ أبوكم يَهوذا إنَّ حُبّ الدّينار فيكُم قَديمُ

وَكَفرتُم بِنعمةِ اللهِ حَتّى ضاقَ ذَرعًا بِالكفر موسى الكَليمُ

يَشْهدُ التّيهُ أنَكم شَعب إسرا ئيلَ شَعبٌ مُنذُ الخُروج أثيمُ

يَشْهدُ العجلُ أنَّ ألواح موسى يَوم زغتم أصابَها التَحطيمُ

---

(1) عمر فروخ، هذا الشعر الحديث، ص163.
(2) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص113-116.

وَبُطــون التّــاريخ فيهــا عَجيــب وَغَريــــب بعـــاركم موســـومُ

أي رئـــوبين أيـــنَ ألـــواح موســـى وَالوَصـــــايا فَكُلُّهـــــن قَـــــويمُ

هُـــنَّ عشـــر نَبـــذتُموها جَميعًـــا وَرتعـــتُم فـــي الغَـــيِّ وَهُـــوَ وَخـــيمُ

وَنَقَضـــتُم أحكامهـــا فَـــإذا المـــا لُ مَقـــامَ الإلـــه فـــيكُم يَقـــومُ

وَالرِّبـــا رَبُّكـــم لَـــهُ صَـــنَم الحـــر ص مِثـــالٌ أنـــتُم عَليـــهِ جثـــومُ

وَإذا الســـبتُ فيـــه مكـــرٌ وَغـــدرٌ أيـــنَ فيـــهِ التَّقـــديس وَالتَعظـــيمُ

وَعَكســـتم آياتهـــا فَـــإذا القَـــت لُ مُبـــاحٌ وَالفســـقُ فـــيكُم عَمـــيمُ

فَجَهلـــتم آبـــاءَكم فغـــدوتُم واحتـــرام الآبـــاء فـــيكم عـــديمُ

وهضـــمتُم حـــقَّ الجِـــوار وصِـــحْتُم أيُّهـــا النَّـــاس حقنـــا مهضـــومُ

كُلُّكـــم شـــاهدٌ عَلـــى الحَـــقِّ زورًا هَـــل أتـــاكُم مِـــنْ شَـــأنِهِ تَحـــريمُ

حَسْـــبُكم لا يُبـــارك اللّـــهُ فـــيكُم إنَّ شَـــيطان بغـــيكُم لَـــرَجيمُ

فَلـــو أنَّ النُّجـــوم أمسَـــت رجومًـــا مـــا عَـــدَتْكم وَاللّـــه تِلـــكَ الرُّجـــومُ

أي رئـــوبين أيّ شَـــعبٍ تُنـــادي إنَّ رَبًّـــا أبـــادَهُ لَحَكِـــيمُ

قصيدة "تفاؤل وأمل"

كان إبراهيم طوقان يعي حقيقة مُدّعي الوطنيّة، وخُطورتهم على القضية الفلسطينيّة، وأهميّة الشّباب في الوقوف بوجههم، فنظم هذه القصيدة، وألقاها في حفل نهاية السّنة الدّراسيّة، الذي أقامته كلية النّجاح الوطنيّة في شهر(ذي القعدة 1347/ أيار 1929)، وقد بيّن فيها حقيقة أدعياء الوطنيّة، وفضحهم، ودعا الشباب-باعتبارهم

أمل الأمّة- إلى عدم الانخداع بكلام هؤلاء، والتّصدّي للأعداء، ومُحاربتهم وسيلة وحيدة لدحر الاحتلال البريطانيّ، وتحقيق الحريّة، قال[1]:

كمْ قلتَ أمراض البلاد وأنتَ منْ أمراضها

والشُّؤم علّتها فهل فتشتَ عن أعْراضها

يا مَنْ حملتَ الفأسَ تَهدِ مها على أثقاضِها

اقعُدْ فما أنتَ الذي يَسْعى إلى إنهاضها

وانظُرْ بعَينيكَ الدِّئاب تَعِبُّ في أحواضِها

وَطنٌ يُباعُ ويُشترى وتصيحُ فَليحيَ الوطنْ

لو كنْتَ تبغي خيْرَهُ لبذلتَ من دَمِكَ الثَمَنْ

وَلقُمْتَ تضْمِدُ جرحهُ لو كنتَ من أهل الفطنْ

ومنها يدعو الشّباب للجهاد، قال:

حيِّ الشبابَ وقُلْ سلاما إنّكُمْ أملُ الغَدِ

صَحّتْ عزائمكُمْ على دَفعِ الأثيمِ المُعْتدي

واللهُ مَدَّ لكُمْ يدًا تَعْلو على أقوى يدِ

وطني أزُفُّ لكَ الشَّباب كأنَّهُ الزّهَرُ النَّدي

لا بُدَّ مِنْ ثَمرٍ لهُ يُوْما وإنْ لمْ يَعْقِد

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص89-91.

ريْحانُـــــهُ العِلـــــمُ الصَّـــــحيح وَرُوحـــــهُ الخلْـــــقُ الحســـــنْ

وطَنـــــي وإنّ القَلْـــــبَ يـــــا وَطنـــــي بِحبِّـــــكَ مُـــــرْتَهَنْ

لا يَطمَـــــئِنُّ فَـــــإنْ ظَفِـــــرْتَ بمـــــا يُريـــــدُ لـــــكَ اطمَـــــأنْ

ثانيًا- المذهب الرومانسيّ[1]

الرومانسيّة أو الرومانطيقيّة والرومانتيكيّة هي تعريب للفظة الإنجليزيّة (رومانتك). وهي مشتقّة من لفظة (رومانس). ويطلق على المذهب الرومانسيّ – أيضًا-مصطلح المذهب الإبداعيّ أو الابتداعيّ. وقد أُطلقت كلمة (رومانس، أو رومانيوس) على الآداب واللّغات التي تفرّعت عن اللّغة اللاتينيّة القديمة، وهي: الفرنسيّة، والإيطاليّة، والإسبانيّة، والبرتغاليّة، والرّومانيّة، والبروفنساليّة (أو البروفنساليّة الفرنسيّة، أو أربيتان، أو رموند)، والأخيرة هي لهجة تتحدث بها أقلّية في منطقة بروفنس جنوبي فرنسا.

وقد جاءت هذه اللفظة ثورة من الرومانسيين على آداب الإغريق واللاتين، ولغتهم، والدّعوة إلى الآداب القوميّة المتفرّعة عنهما بديلاً جديدًا.

ولفظة (رومانس) تعني: أحد أنواع القصص الذي شاع في القرون الوسطى–حسب التأريخ الأوروبي[2]- في معظم البلدان الأوروبيّة الغربيّة بعامة، والجنوبيّة الغربيّة منها بخاصة. وكانت هذه القصص تُنظم شعرًا، وتدور حول

---

(1) انظر: عز الدّين إسماعيل، الشعر العربيّ المعاصر، ص21، 25، 30-38؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص9؛ دراسات في الأدب، 305/1؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص241، 510؛ مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد،ص214؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص189؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر،ص194.

(2)القرون الوسطى: مصطلح غربي يطلق على الحقبة التاريخيّة الممتدة ما بين القرن الخامس والخامس عشر الميلادي، حيث بدأت بسقوط الامبراطورية الرومانية سنة (476م) وتنتهي بقيام الدول الملكية وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي سنة (1517/923) مع عصر الاستكشاف الجغرافي والنهضة في أوروبا ثم الثورة الصناعيّة. وتقسم العصور الوسطى إلى: قديم يمتد من القرن الخامس إلى العاشر، ومتوسط وهو القرن العاشر حتى النصف الأول من القرن الثاني عشر وفيها ظهرت الرومانكي (الرومي)، والقوطيّة وتمتد من (554/1150-1517/923) وبها تنتهي العصور الوسطى. ويلاحظ من ذلك أنه لا علاقة لهذا المصطلح بالتاريخ العربيّ الإسلاميّ. وبالتالي فإطلاقه على الأدب العربيّ والحضارة العربيّة الإسلاميّة خطأ كبير. انظر: الموسوعة العربية،289/16.

مغامرات الفرسان، وبطولاتهم التي كانوا يقومون بها تمثّلا لفضائل الأخلاق، والإخلاص في الحب، وهم بذلك تأثروا بنظام "الفتوّة الإسلاميّة" الذي أعاد تنظيمه الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله (ت 1225/622)[1].

ثم تطوّر معنى اللفظة إلى أن أصبح يعني: كلّ ما هو خيالي، وبعيد عن العقل، وقريب من العواطف والمشاعر. ثم استخدمت اللّفظة نفسها في أوروبا للمدح والذّم، ووصل استخدامها حدًّا جعلوها به مُصاحبة للمشاعر اللّذيذة المستمدّة من الطبيعة، أو الشعر، أو الموسيقا.

ثم ميّز الأوروبيون بين الرومانسيّة والكلاسيكيّة في الشعر بأن قالوا: إنّ كلّ شعر يُثير الخيال والعواطف هو شعر رومانسيّ. وإنّ كلّ شعر يتّصف بجزالة الألفاظ، وقُوّة التراكيب، والحكمة، والرصانة في المعاني هو شعر كلاسيكيّ.

نشأة الرومانسيّة

ظهرت الرومانسيّة -أوّلًا-في بريطانيا، في الحقبة ما بين (1204/1789و1246/1830)، ووُصفت وقتذاك بأنّها ثورة في مجال الشعر، ثم تبعتها حركة مُشابهة في فرنسا وألمانيا، ثم انتقلت من الشعر والنثر إلى باقي الفنون الجميلة وهي: الرّسم، والنّحت، والموسيقا.

وأبرز شعراء الرومانسيّة في الغرب هم:"كولردج"، عاش ما بين (1135/1722و1250/1834)، و"وليم وردز روث"، عاش ما بين (1184/1770 و1267/1850)، و"شيلي"، عاش ما بين (1207/1792 و1300/1882)، وهم من بريطانيا. و"يوهان فولغغانغ غوتة"، عاش ما بين (1163/1749 و1248/1832) من ألمانيا. و"فيكتور هوجو"، عاش ما بين (1217/1802 و1303/1885) من فرنسا، و"إلكسندر بوشكين"، عاش ما بين (1193/1779 و1253/1837) من روسيّا، و"إدجار آلان بو"، عاش ما بين (1224/1809 و1266/1849) من أمريكا.

أما في الوطن العربيّ، فقد ظهرت الرومانسيّة -أوّلًا-على جانب الكلاسيكيّة في العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجريّ/ أواخر القرن التاسع عشر الميلاديّ، في مصر، حيث كانت بداياتها من خلال ترجمة بعض آثار يوهان غوتة الألماني، وأناتول فرانس، الّذي عاش ما بين (1260/1844 و1343/1924)، وألفريد دي موسيه،

(1) الفتوة: تنظيم سياسي عسكري وجهادي تربوي، أعاد تنظيمه الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن محمد (ت 1225/622) وذلك سنة (1182/578)،ونشره في بلاد الخلافة لأهداف جهادية وأخلاقية. انظر: ابن المعمار، الفتوة، ص38؛ مشهور الحبّازي، دور الفتوة، ص6.

الذي عاش ما بين (1810/1225 و1857/1274) وهما من فرنسا وغيرهم، حيث أثرت تلك الترجمات تأثيرًا كبيرًا وواسعًا في الأدباء بمصر وغيرها من بلدان الوطن العربيّ.

وأول مَنْ دعا إلى الرومانسيّة خليل مطران في مصر، وجبران خليل جبران في المهجر، فكانَ الاثنان أول الدّاعين لتغريب الشعر العربيّ، ثم تعزّزت دعوتهما على أيدي ثلاث مدارس (مذاهب) هي: الدّيوان، وأبولّو، والمهجر.

والرومانسيون العرب دعوا إلى تحطيم الأدب العربيّ الأصيل الذي سمّوه (الكلاسيكيّ)، واستبداله بأدب جديد يسير في ركاب الأدب الغربي، ويُحاكيه في كلّ شيء. وقد تمثّلت دعوتهم في الآتي:

1. الدّعوة إلى تحطيم القيم التي يقوم عليها الأدب العربيّ الأصيل، (سماه الرومانسيون: الكلاسيكيّة احتذاء بالغرب).
2. الدّعوة إلى العودة إلى أحكام: الذوق، والعاطفة، والإلهام.
3. تمجيد الطبيعة، والتّغنّى بجمالها الحرّ البسيط، والعيش في أحضان الرّيف.
4. الدّعوة إلى الاهتمام بالشّعر الوجداني الذاتي، والغنائي العاطفيّ.
5. إلتزام البساطة في التفكير والتعبير، والتّذوق والشعور، وترك النّفس على سجيّتها بعيدًا عن التّكلّف.
6. الاهتمام بمشاعر الفرد الخاصة والتّغني بها؛ فالرومانسيّ حسّاس يتأثر وينفعل سريعًا؛ لذلك فهو يعيش في صراع دائم مع المجتمع، ذلك هو صراع التأثر.
7. الحنين إلى المجهول، والمطلق غير المحدود، الذي يكشف أعماق الإنسان.
8. تفضيل مضمون الشعر على شكله.
9. استخدام لغة بسيطة، وألفاظ مألوفة، وإذا ما استخدمت الرومانسيّة ألفاظًا غريبة، فإنّها تكون محاولة لاكتشاف أساليب تعبيريّة جديدة.
10. الإكثار من الصور والتشبيهات، مع الميل بالخيال إلى الأحلام والضبابيّة.
11. تنويع الأوزان والقوافي بهدف إثارة القارئ.

وبهذه المبادئ تكون الرومانسيّة قد دعت إلى اعتماد أساس جديد للحكم على العمل الأدبي، وهو: ذوق القارئ، ومدى تأثير حساسية الأديب في حساسية القارئ، ومدى كشفه عن حقيقة الإنسان العميقة.

العوامل التي أسهمت في نشوء الرومانسيّة

أسهمت عوامل عديدة في نشوء الرومانسيّة في الأدب العربيّ، وأهمها:

1. البعثات العلميّة إلى أوروبا، التي فتحت أُفقًا جديدًا أمام الأدباء والمفكرين العرب المبتعثين، حيث تعرّفوا على مناهج تفكير، وتصوّرات جديدة في المعرفة، فنظروا للتراث العربيّ الإسلاميّ نظرة احتقار، حتى كادت تنعدم صلة أغلبهم به. وشجعهم على هذه الرؤية المستشرقون الّذين تولّوا تعليمهم، فزرعوا فيهم اتهامات كثيرة للتراث العربيّ الإسلاميّ، حيث طعنوا في كثير من النماذج التراثيّة العربيّة الإسلاميّة، وشوّهوها بكلّ الوسائل الممكنة.

2. الاطلاع على الثقافة الغربيّة، والأدب الغربيّ من خلال المناهج الدراسيّة في المدارس الأجنبية، والإرساليات التبشيرية. وفي مصر أجبر مسؤول التعليم في الاحتلال البريطانيّ المدعو فرانسيس- وكانَ أستاذًا للأدب الإنجليزيّ في جامعة أكسفورد- طلبة المدارس والمعاهد العليا على دراسة مختارات من الشعر الإنجليزيّ الغنائي تعود إلى الحقبة ما بين (بداية القرن الحادي عشر الهجريّ /السابع عشر الميلاديّ وحتى نهاية الثالث عشر الهجريّ/القرن التاسع عشر الميلاديّ)، والّتي سمّاها "الكنز الذهبي" وقد صرّح كثير من الأدباء العرب بتأثّرهم بهذه المختارات، ومنهم: إبراهيم عبد القادر المازني، وعباس محمود العقاد، وأحمد زكي أبو شادي، و بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة وغيرهم كثير. كما اعترفوا بتأثّرهم بما تم ترجمته من الآداب الغربيّة، ونشره في الصحف والمجلاّت المتنوعة فضلًا عن نشر بعضها في كتب خاصة أو في بعض دواوين الشعراء، كما فعل إبراهيم عبد القادر المازني، إذ ترجم مجموعة قصائد شعرية، ونشرها في مطلع الجزء الثاني من ديوانه.

3. نشوء الوعي الفردي في كثير من المجتمعات الغربيّة، ثم نشوء الطبقة الوسطى جرّاء ظهور النشاط التجاريّ، والصناعيّ، والعلميّ، وقد تأثّر الأدباء العرب بذلك، ودعوا إليه، كما أنّ الاستعمار الغربيّ للدول العربيّة أسهم في تقسيم المجتمع العربيّ إلى طبقات مختلفة.

4. الصراع الّذي أحدثه الاستعمار، والمستشرقون، ودعاة التغريب بين الإسلام والقوميّة.

5. الحملة العنيفة والظالمة التي شنّها المستشرقون وتلاميذهم على الأدب العربيّ ما بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وحتى احتلال نابليون مصر، ووصفه بأحطّ الصفات من دون أي دليل عملي.

مقارنة بين المذهب العربيّ الأصيل (الكلاسيكيّة) والرومانسيّة

قارن دعاة التغريب (التجديد) بين المذهب العربيّ الأصيل والرومانسيّة في الأدب من وجهة نظرهم؛ فادّعوا وجود فوارق كثيرة كلّها تصبّ في مسعاهم لتحطيم الأدب العربيّ الأصيل، وإنهاء التعامل به، وبخاصة الأدب الذي أطلقوا عليه اسم: أدب الانحطاط، والانحدار، والجمود، وهو الذي يُغطي أطول حقبة زمنيّة في التاريخ العربيّ الإسلاميّ، وأهم تلك الفوارق هي:

1. الشعر ينبع من العاطفة الفرديّة سواء أكانت ناتجة عن الحب أم ثوريّة ناتجة عن السياسة. والفردية هي التي تُضفي الشكل والمعنى على مجموع العواطف والأفكار، التي يشترك فيها الشاعر الرومانسي مع جمهوره.

2. الإبداع عند الكلاسيكيّة ينتج عن المعاناة التي تصل إلى أنماط ثابتة ومستقرّة، أمّا الرومانسيّة فتسعى للتضحية بالأنماط الكلاسيكيّة الثابتة، بهدف التغيير والاكتشاف، وهذا هو الجانب الثوري فيها.

3. تهتم الرومانسيّة بوحدة الشكل في القصيدة، أي وحدة الجو النفسي المشحون بدفقه العاطفيّ، لا في الرّقعة المحدودة التي تفرضها القواعد والأصول عند الكلاسيكيّة، ما ينتج عنها تفكك القصيدة، وذلك حسب اعتقادهم.

4. يستخدم الرومانسيون اللّغة البسيطة في نظم أشعارهم، أما الكلاسيكيون فيستخدمون الألفاظ الجزلة، والتراكيب المتينة. وهي عند الرومانسيين ألفاظ مهجورة، وأساليب لا تتصل بالعصر الحديث. وبناء على ذلك فضَّل ميخائيل نعيمة الأفكار على اللّغة بعكس ما قاله الجاحظ، قال نعيمة: "القصد من الأدب هو الإفصاح عن عوامل الحياة كلّها، كما تنتابنا من أفكار وعواطف. وأنّ اللّغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها، وعواطفها. وأن للأفكار والعواطف كيانًا مستقلًا ليس للّغة، فهي أولًا واللّغة ثانيًا. وأنّ كلّ القواميس، وكتب الصّرف والنّحو في العالم لم تُحدث يومًا ثورةً، ولا أوجدت يومًا أُمّة، لكنّ الفكر والعاطفة يُجدّدان العالم في كلّ يوم. وأنّ اللّغة في أدقّ تراكيبها ليست سوى مُستودع رموز نرمز بها إلى أفكارنا وعواطفنا. وأنّه يحسن بنا الاحتفاظ بهذه الرّموز ما دُمنا قاصرين عن استبدالها بأدقّ منها، وأنّ بعض هذه

الرّموز يُصبح على مرّ الأيام طلاسم، فالأجدرُ نبذُهُ. وأنّ الشعراء والكتاب هم واضعوا هذه الرّموز، وهم أولياؤها، وأنّه إذا غيّر شاعر أو كاتب رمزًا من رموزكم المألوفة، أو جاءكم برمز جديد فليس في ذلك ما يدعو إلى القلق والخوف؛ لأنّكم إذا أحببتم الرّمز الجديد ستحتفظون به، رضيَ النُّحاة أم سخطوا، وإذا أعرضتم عنه فسيتلاشى من تلقائه.

وأنّ للأدب ضفادع لن يُدركوا هذه الحقائق ما دامت الألف ألفًا والياء ياءً. وأنّ لهذه الضفادعُ مسالك في درسها تسلية وعبرة"[1].

وميخائيل نعيمة بذلك يرى أنّه لا توجد ألفاظ شعريّة وأخرى غير شعريّة، بل تأثير اللفظة العاطفي يقوى ويتعمّق بمقدار ألفة القارئ لها، وإقباله على استخدامها. وهذا الرأي مُخالف لقواعد بلاغة الكلمة، وفصاحة الكلام كما وضعها علماء البلاغة العرب والمسلمون.

5. الكلاسيكيون يصفون الطبيعة بموضوعيّة كما هي، أما الرومانسيون فيصفونها من خلال ذواتهم؛ لأنّهم يرونها انعكاسًا لما يخالط نفوسهم من انفعالات وأحاسيس.

6. الكلاسيكيون يعتمدون–غالبًا-مصادر التراث العربيّ الإسلاميّ؛ لإثراء مضامينهم الشعريّة، وهي: القرآن الكريم، والسنة النبويّة الشريفة، والمرويات والأمثال، والتّراث الشعبي، والمواقف التاريخيّة، والشخصيات العربيّة الإسلاميّة، والشخصيات الإنسانيّة.

أما الرومانسيون فيعتبرون ذلك من الماضي الذي يجب تجاوزه، وعليه فقد ارتدّوا إلى استخدام الأساطير الإغريقيّة، والرومانيّة، والفرعونيّة، والبابلية وغيرها، ثم اعتمدوا أفكارًا استوحوها من التراث المسيحيّ، واليهوديّ، والوثنيّ، والهندوسيّ، والبوذي وغيرها مما يُحارب الإسلام ويُعاديه، وذلك بادّعاء الإنسانيّة الّتي يفتقدونها في كلّ شيء.

وهنا يجب ملاحظة أنّ رفضهم التراث العربيّ واستبداله بالتراث غير العربيّ هو مناف لدعوتهم القوميّة.

7. يتميّز الشعر الرومانسيّ بسيادة نغمة العذاب الحلو، والألم اللّذيذ، والحزن الوديع، حيث يصف الشاعر عذاب نفسه، وآلام قلبه، وكآبة روحه بسبب انفصاله عن المحبوبة.

---

(1) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص105-106.

8. الشّـاعر الرومانسـيّ ثـائر علـى مجتمعـه أو منبـوذ منـه؛ ولـذلك فإنّـه ينعـزل بنفسـه، فيعيش فـي الماضـي السـعيد، أو الطفولـة البريئـة، أو البلـد البعيـد، أو المنظر الجميل، فيجعله عالمًا مثاليًا له.

من أعلام المدرسة الرومانسيّة

ينتمي عدد غير قليل من شعراء العربيّة، وكتابها إلى الرومانسيّة، وقد رأيت أن أترجم لاثنين من هؤلاء، وهما:

1-جبران خليل جبران ميخائيل، عاش ما بين (1301/1883و1350/1931)[1]

ولد في قرية بشرى قرب نبع قاديشا بلبنان، لعائلة فقيرة، كانت هاجرت من دمشق إلى بعلبك، ومنها إلى بشرى. التحق بمدرسة القرية، وعندما اعتقل الوالي العثمانيّ والده، وتمّ سجنه بتهمة اختلاس أموال الرسوم التي كان يجبيها عن الماشية في منطقته بحكم وظيفته، وصادر ممتلكاته، هاجر-ولمّا يُكمل دراسته الابتدائية -مع أمّه وأخيه الأكبر بطرس، وأختيه ماريانا وسلطانة إلى مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية سنة (1313/1895). وقد سكن في الحيّ الصينيّ الفقير.

في مدينة بوسطن أرسله أخوه بطرس إلى المدرسة؛ ليتعلّم اللّغة الإنجليزيّة، ثم أعاده إلى بيروت ليدرس اللّغة العربيّة، فدرس أربع سنوات في مدرسة الحكمة، ثم عاد إلى بوسطن ليجد مرض السلّ قد انتشر في أسرته، فأخذ أخته الصغيرة سلطانة، وبعد عام قضى على أمه، ثم على أخيه بطرس، وبقيت له أخته ماريانا التي عملت بالخياطة المنزليّة لمساعدته على العيش.

وعندما بلغ جبران خليل جبران العشرين من عمره بدأ الكتابة الأدبيّة، وعمل بالرسم، ولاقت رسوماته نجاحًا في المعارض الّتي كانَ يُقيمها في بوسطن. وفي أحد المعارض تعرّف إلى "ماري هاكسل"[2] الّتي تولّت رعايته ومساعدته في ميدان

---

(1) انظر ترجمته في: ميخائيل نعيمة ، جبران خليل جبران ، ص 13-360؛ أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران: ترجمة جبران،ص11-15؛عمر فروخ، هذا الشعر، ص22؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص334؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ،ص370؛ عز الدّين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،ص343؛ مارون عبود، مجددون ومجترون،ص160؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة،ص71؛أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص295؛ فواز طوقان، أسرار تأسيس الرابطة، ص173.

(2) ماري هاكسل هي: سيّدة أمريكيّة ، ثريّة زارت معرض رسومات لجبران سنة (1322/1904)؛ فأحبّته ، وأرسلته إلى باريس لدراسة مبادئ الرسم سنة(1326/1908) على يدي النّحات أوغست رودان، ورأى عمر فروخ أنه لم يلق رودان فلم يُحقق رغبة هاكسل. انظر: أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص14؛ عمر فروخ، هذا الشعر، ص157؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص355.

الرسم، وفي عام (1908/1326) أرسلته إلى باريس لتعلّم الرسم على كبار رسّامي فرنسا وأوروبا، فتعلم على الرسام "رودان" صاحب تمثال القبلة، وحصل على الدبلوم العالي في الرسم من معهد الفنون الجميلة في باريس.

عاد جبران خليل جبران إلى بوسطن بعد ثلاث سنوات قضاها في باريس، فمكث فيها سنة، ثم انتقل إلى نيويورك سنة (1912/1331) واستقرّ بها، يكتب النثر، وقليلًا من الشعر، ويرسم، لكنّه لم يُحقّق نجاحًا يُلبّي رغباته بسبب عدم رواج كتبه التي ألفها بالعربيّة أو رسوماته.

في عام (1920/1339) أسّس مع ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي "الرابطة القلميّة"، ومنذ ذلك الوقت بدأ يُؤلف باللّغة الإنجليزية، فأصدر ثمانية كتب في ثماني سنوات، لاقت رواجًا كبيرًا في المجتمع الأمريكي، وحقّق منها الثروة الّتي كانَ يسعى إليها، فتغيّرت حياته، وتوقف عن الشكوى، وذِكر ألم الحياة ومرارتها. واستمرّ يمارس الكتابة حتى توفي سنة (1931/1350) في أحد مشافي نيويورك، ونقل جثمانه إلى بلدته بشرى بلبنان، ودُفن فيها.

دعوته إلى التغريب (التجديد)

كان جبران خليل جبران أكثر أعضاء "الرابطة القلميّة" تأثيرًا في الدعوة إلى السير في خطى الآداب الغربيّة من حيث ما أسماه التحرّر من قيود الوزن والقافية، والخروج على قواعد اللّغة، واستخدام الألفاظ العامية، لا بل تحطيم ما أسماه الأدب القديم كلّه، وقد جاء هجومه على اللّغة في مقالات عدّة أهمها مقال بعنوان "لكم لغتكم ولي لغتي"[1].

وقد جاءت دعوة جبران منسجمة مع دعوة ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي التغريبية، وبتأثير واضح من مصادر تكوين ثقافتهم المسيحيّة، واللغات الأجنبيّة التي أتقنوها، ودرسوا آدابها؛ فجبران أتقن الإنجليزية والفرنسيّة ودرس آدابهما، حتى أنّه ألف كتبًا كثيرة بالإنجليزية لاقت رواجًا أكثر من كتبه باللّغة العربيّة. وميخائيل نعيمة درس الروسية في الناصرة بفلسطين، ثم في مدينة "بولتافا" بروسيّا(اليوم هي مدينة في جمهورية أوكرانيا)، ثم أتقن الإنجليزيّة والفرنسيّة، ودرس آدابها، فكانَ أن وضع دستور الرابطة جامعًا فيه رأي جبران إلى رأيه. قالت عزيزة مريدن" لم تكن ثقافة أعضاء "الرابطة القلميّة" واحدة، بل إنّهم تفاوتوا بحسب المدارس التي درسوا فيها،

(1) انظر: أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص93.

والثقافة التي تلقّوها خلال الظروف التي تعرضوا لها، ولكنّهم كلّهم مسيحيون متأثّرون بالإنجيل وتعاليمه –على تفاوت فيما بينهم-إذ تلقّى معظمهم دراسته الابتدائيّة في مدارس القرية الطائفية التي كانت تُدرّس الإنجيل"[1].

آثاره

لم يكتب جبران خليل جبران إلّا ديوانًا شعريًا واحدًا، لا بل قصيدة واحدة جاءت في مائتين وثلاثة أبيات طبعت في كتاب طبعات عديدة بعنوان " المواكب"، وقد زيّنه برسوم رمزيّة.[2] فيما ألف أكثر من عشرين كتابًا نثريًا في موضوعات متنوّعة باللّغتين العربيّة والإنجليزيّة، وأهم كتبه هي:

1-دمعة وابتسامة.

2-العواصف.

3- البدائع والطّرائف. وهذه الكتب الثلاثة ضمّت أغلب ما كتبه جبران باللغة العربيّة، وهو عبارة عن (مائة وثلاثة) مقالات وقطع أدبيّة وقصيدة واحدة فقط[3].

4- الموسيقا.

5- الأجنحة المتكسّرة.

6 - عرائس المروج.

7- النّبيّ.

8- المجنون.

9- رماد الأجيال.

---

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص213.

(2) انظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية،ص254. وذكر أنّ له ديوان شعر، صدر في نيويورك؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص370.وذكر له قصيدة بعنوان "البلاد المحجوبة"، وقال إنه نظم قصيدة بالإنجليزيّة بعنوان" يسوع يقرع الباب"؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة، ص75. وذكر أن قصيدة " المواكب" جاءت على بحر البسيط، ومجزوء الرمل، وأنها القصيدة الوحيدة الموزونة والمقفاة، وأنه سبق ونظم قليلًا من الشعر الموزون في حالات عاطفية.

(3) انظر: فواز طوقان، أسرار تأسيس الرابطة،ص173؛

10- النّار الخالدة.

11- حفّار القبور.

12- آلهة الأرض.

7- يسوع ابن الإنسان.

14-التائه.

15-رمل وزبد.

16-الأرواح المتمرّدة وغيرها.

وقد عرض جبران خليل جبران في كتبه أفكاره التي تراوحت ما بين الإيمان بتناسخ الأرواح، والكفر. وبعض كتبه تُرجم إلى لغات عديدة، وبخاصة كتاب "النّبي" الذي وضّح فيه رأيه في حياة الإنسان؛ كيف ولد، وكيف يأكل، ويشرب، ويُحب، ويتزوّج، ويفرح، ويحزن ويموت؟، وذلك في أمثال ومواعظ.

نموذج من شعره

نظم جبران خليل جبران قصيدته "المواكب" سنة (1918/1337) بُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان ما زال فقيرًا، بل زادت سنوات الحرب فقره وبؤسه، وجعلها على لسان جيلين مُتباعدين، وبصوتين مختلفين هما:

جيل الشيخ وصوته، وهو يخرج من المدينة ينوء بهمومها، ومشاكلها، وآلامها، وهو بذلك يصوّر حقيقة المجتمع البشري، والواقع الذي يعيش.

وجيل الفتى وصوته، وهو يخرج من الغاب عاريًا، فيُمثّل حقيقة الحياة المجرّدة من نفاق المجتمع، وآثامه. وقد زين صفحات قصيدة "المواكب" بأحد عشر رسمًا رمزيًّا لا يكاد أحد يفهمها. وقصيدة " المواكب" عبارة عن سلسلة من صور متعاقبة، تبدأ بالشيخ يقول عن حياة المجتمع التي يعيشها[1]:

الخيرُ في النّاس مصنوع إذا جُبروا والشّرُّ في النّاس لا يفنى وإن قُبروا

وأكثرُ النّاس آلاتٌ تُحرّكها أصابعُ الدّهر يومًا ثمّ تنكسِرُ

فأفضلُ النّاس قطعانٌ يسيرُ بها صوتُ الرُّعاةِ ومَنْ لم يمشِ ينـدَثِرُ

(1) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص378.

وجاء ردّ الفتى الخارج من الغاب عاريًا على الشيخ بقوله:

لـــــيس فـــــي الغابـــــات راع لا ولا فيهـــــــــا القطيـــــــــع

فالشّـــــــتا يمشـــــــي ولكـــــــنْ لا يُجاريـــــــــــه الرّبيـــــــــع

أعطِنـــــــي النّـــــــاي وغـــــــنِّ فالغنـــــــا يرعـــــــى العقـــــــول

وأنـــــــينُ النّـــــــاي أبقـــــــى مـــــــن مَجيـــــــدٍ وذليـــــــل

ويستمر تتابع القصيدة، فكلّما رسم الشيخ صورة سيئة لحياة المجتمع (البشر) بما فيه من: تقاليد، وعادات، وعقائد، يردّ عليه الفتى مُذكّرًا إيّاه بجوهر الحياة النّقي الصافي حيث: لا نفاق، ولا اختلاف في العقائد، والعادات والتقاليد، ولا شيء ممّا أفسده البشر في مجتمعهم.

وفكرة هذه القصيدة في الحقيقة منتحلة من قصة "حي بن يقظان" للفيلسوف المسلم محمد بن عبد الملك الأندلسيّ، المعروف بابن طفيل (ت 1185/581)، لكنّ جبران خليل جبران جعل حياة المدينة الفاسدة بشهواتها وملذّاتها تنتصر على دعوة الفتى الخارج من الغاب، وذلك على عكس فكرة قصة "حي بن يقظان" التي انتصرت فيها حياة الفطرة على الحياة التي أفسدها شياطين الإنس والجن، قال على لسان الشيخ منهيًا القصيدة:

العيشُ في الغاب، والأيامُ لو نُظمت في قبضتي لغدَت في الغاب تنتشرُ

لكن هو الدّهر في نفسي له أربٌ فكلّما رُمتُ غابًا راحَ يعتذِرُ

2-خليل عبده مطران، عاش ما بين (1872/1289 و1949/1369)[1]

(1) انظر ترجمته في: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 703/2؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص259؛ محمد خفاجي، دراسات في الأدب، 305/1؛ سامي الدّهان، قدماء ومعاصرون، ص214، شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص121؛ عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،ص307؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص193، جمال الدّين الرمادي، من أعلام الأدب، ص237.

ولد في بعلبك لأبٍ مسيحيّ كاثوليكيّ، كان من وجهاء المدينة، وأم فلسطينية هي الشاعرة ملكة الصبّاغ، فحبّبت إليه الشعر.

تلقى تعليمه الأول في بعلبك، ثم في زحلة، وأكمل تعليمه المدرسيّ في الكليّة البطريركيّة للروم الأرثوذكس ببيروت، حيث تخرّج فيها سنة (1889/1307) وهو ابن سبعة عشر عامًا، وقد أتقن الفرنسيّة إضافة للعربيّة، وعمل مدرّسًا في الكليّة ذاتها، فعلّم طلبتها اللغتين العربيّة والفرنسية، فيما اهتم بإتقان اللغتين الإنجليزيّة والتركيّة.

وفي الكليّة البطريركيّة بدأ خليل مطران مهاجمة الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، بتأثير من أستاذه إبراهيم اليازجيّ، فنظم عدّة قصائد تدعو إلى التمرّد عليها، وتبثُّ روح العصبية القوميّة، التي استخدمها المبشّرون، وأساتذة المدارس الإرساليات المسيحيّة، وسيلة لتمزيق الدولة العثمانيّة، وخدمة لأهداف الدول الاستعمارية المسيحيّة، وبخاصة بريطانيا، وفرنسا، وروسيّا القيصريّة. قال في إحداها[1]:

بني العرب فيمَ الصّبرُ والحالُ ما نرى ويأبى علينا الخسف تاريخُنا قدما

وحتّامَ نطوي اللّيلَ والليلُ دامسٌ ونحتملُ الإجحافَ والضّيمَ والظّلما

وعندما سمع والي بيروت القصيدة حذّر خليل مطران من الاستمرار في التحريض على الفتنة، لما في ذلك من إضرار بالدولة والمجتمع، وخدمة للاستعمار، إلّا أنّ خليل مطران لم يَرْعوِ، واستمرّ في معاداة الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة. ثم هاجر إلى باريس سنة (1890/1308) ليواصل حملته على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، وهناك اتصل بجمعية "تركيا الفتاة"، المناهضة للدّولة العثمانيّة وعمل معها، وبشّر بأهدافها الداعية لتمزيق الدولة العثمانيّة الإسلاميّة.

وفي مُقابل التحريض على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، كانَ خليل مطران مُغرمًا بنابليون بونابرت (ت1821/1237) الحاقد على الإسلام والمسلمين، فجعل أول قصائد ديوانه في مدحه عندما انتصر على ألمانيا في معركة (يانا) سنة (1806/1221)، والإشادة به باعتباره نموذجًا له ولأمثاله من نصارى الشرق المُستغربين؛ وذلك على الرّغم من أنّ نابليون بونابرت هو الذي احتل مصر؛ فدمّرها، ونهبها، وقتل ثُمْنَ مواطنيها، وأفسدها. ومطلع قصيدة خليل مطران هو[2]:

(1) انظر: أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص270.
(2) خليل مطران، ديوان الخليل، 15/1.

مَشَـتِ الجبـالُ بهـم وسـالَ الـوادي ومضَـوا مهـادًا سِـرْنَ فـوقَ مِهـادِ

ومنها في مدح نابليون وقيادته:

نفـرتْ طلائـع خيلـهِ منـذُ الضّـحى تَتَرقَّـبُ الأعـداءَ بالمرصـادِ

فـاتوا كمـا يجـري الأتـيُّ مُشـعَّبًا فـي غيـر مجـرى مائـهِ المعتـادِ

وكـأنّ نـابليونَ فـي إشـرافهِ علـمٌ علـى علـمِ الزّعامـةِ بـاد

المجـدُ رَهـنُ إشـارةٍ بيمينـهِ والنّصـر بـين يديـه كالمُنقـادِ

والفخـرُ فـي راياتـه متمثّـلٌ وطلائـعُ العُقبـان فـي تـردادِ

فتهيـأ الألمـان لاسـتقباله كالحـائط المرصـوص مـن أجسـاد

ثم قال يفخر بما فعله الجيش الفرنسيّ بالألمان بعدما حقّق النّصر:

مـا زال يفتـك بـالنّفوس زواهـق وكـأنَّ تلـكَ هنيهـةُ الميعـادِ

حتـى تـولّى الـدّعرُ جـيشَ بُروسِـيَا فتفَرَّقُـوا بـينَ القفـار بَـدادِ

فسـعَى الفرنسـيونَ فـي آثـارهم بعـزائمٍ لا ينـثلمْنَ حِـدادِ

يسـتكبرُ الصُّـعلوكُ مـنهم دائسًـا فـي أضـلع الأبطـال والقـوّادِ

واسـتفتَحوا بـرلينَ وهـي منيعـةٌ وقضَـوْا بَهـا الأيّـامُ كالأعيـادِ

وأقـام أصـحابُ الـبلادِ مآتِمًـا وكَسَـوْا علـى القتلـى ثيـابَ حِـدادِ

ناحـت عرائسـهم علـى أزواجهـا والأُمّهـاتُ بكـت علـى الأولادِ

واشـــتدَّ حـــزنهمُ ولـــم يـــكُ مُجـــديًا مـــــن بعـــد فقـــد أحبَّـــةٍ وبـــلادِ

ولا آمـــرًا يدعونَـــهُ فهـــو ســـامعٌ وتســـتمعُ الأقـــدار حـــينَ يقـــولُ

ثم فخر بجيش نابليون، الذي كان احتل مصر، قال:

وتَفْـديكِ جُنـدٌ فـي الحـروبِ أعـزّةٌ وأنـــت بـــلا سَـــهمٍ أصـــابَ قتيـــلُ

ولا شكَّ في أنَّ مَنْ يقول هذا الشعر يكون مؤمنًا بـه، فهو صـادر عن عاطفة صـادقة، وإحسـاس بـالفخر بهذا النصـر. وإن قـال قائل: إنّـه فـي القصـيدة ذاتهـا، أشـاد بانتصـار ألمانيـا علـى فرنسـا فـي عهـد نـابليون الثالـث (ت1290/1873) واحتلالهـا باريس، فالجواب: إنّـه ذكر ذلك فـي ثمانيـة أبيات، وعلـى أنـه ثـأر لمـا كـان فـي وقعـة "يانا" ليس إلّا.

وما يؤكد عمل خليل مطران لصالح فرنسا أنّه لم يُبقِ من شعره في صباه إلّا هذه القصيدة كما قال هو نفسه. فضلًا عن أن مَنْ يُطالع ديوانه يجد أنّه كان غربيَّ الهوى. وإلّا ما الذي يدفعه لرثاء ملكة بريطانيا فكتوريا سنة (1319/1901)، وهي التي كان جيشها يحتل وطنه الثاني مصر، قال[1]:

بَنُـــوكِ فـــروعٌ للعُلـــى وأُصـــولُ ومُلكـــكِ مـــا للشّـــمس عنْـــهُ أُفـــولُ

وسَـعْدُكِ فـي الأمثـالِ سـارَ ولـم يكُـنْ لـــه فـــي ســـعود المـــالكينَ مثيـــلُ

ومـــا شـــهدَ الأقـــوامُ قبلـــكِ ســـيِّدًا يُطـــاعُ مُطيعًـــا قومَـــهُ ويصـــولُ

كما أنّه مدح نابليون حتى وهو يحتضر في منفاه، قال[2]:

قـــالوا لنـــابليونَ ذات عشـــيّةٍ إذ كـــانَ يرقـــبُ فـــي السّـــماءِ الأنجمـــا

هـــل بعـــدَ فـــتح الأرض مـــن أُمنيّـــةٍ فأجـــابَ: أنظـــرُ كيـــفَ أفتَـــتِحُ السّـــما

(1) خليل مطران، ديوان خليل ، 59/1.
(2) خليل مطران، ديوان خليل ، 1/ 133.

وقد أمضى خليل مطران في باريس سنتين، عزّز فيهما ثقافته الفرنسيّة، فدرس التاريخ الفرنسيّ، واطّلع على الأدب الفرنسيّ، ولا سيما أدب "ألفريد دي موسيه"، كما اطّلع على الأدب الإنجليزي وبخاصة أدب "شكسبير"، فقلّد الأدبين، وبدأ هجومه على الشعر العربيّ.

وقد تعلّم خلال وجوده في فرنسا اللّغة الإسبانيّة كي يهاجر إلى أمريكا الجنوبيّة، لكنّه هاجر إلى مصر، وبقي فيها إلى وفاته.

وفي مصر نزل الإسكندرية، فصادف ذلك وفاة " بشارة تقلا " مؤسّس جريدة "الأهرام"، فرثاه بقصيدة أعجبت أخاه "سليم تقلا " الذي عيّنه مساعدًا له في تحرير " الأهرام"، ما زاد في شهرته.

في مصر بدأ حياته صحفيًّا في "الأهرام"، ثم تولّى تحريرها، وشارك في تحرير جريدتي "اللواء" و "المؤيد". ثم في سنة (1900/1318) أصدر مجلة شهرية باسم "المجلة المصريّة" لثلاث سنوات، ثم حوّلها إلى جريدة يوميّة باسم "الجوائب" التي استمرّت خمس سنوات.

وقد أوصلته الصحافة إلى الخديوي عباس الثاني، حيث اصطحبه ممثّلًا لجريدة "الأهرام" في رحلته إلى الآستانة (إستانبول)، كما اتصل بشعراء مصر، والوطن العربيّ، ونادمهم، وراسلهم في شعره، ومنهم: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وأحمد زكي أبو شادي وغيرهم كثير. وعلى الرّغم من شاعرية خليل مطران التي عمّت أغلب أغراض الشعر العربيّ إلّا أنّه لم ينظم بيتًا واحدًا في مأساة فلسطين بعامة، ووعد بلفور بخاصّة، وقد لاحظ ذلك الشّاعر الفلسطينيّ إبراهيم طوقان، فدعاه دعوة صريحة في قصيدته "عتاب إلى شعراء مصر"، للنّظم فيهما، لكنّه لم يستجب للدّعوة.

شاعريته

بدأ خليل مطران نظم الشعر، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد بدأ بنظم الشعر العربيّ الأصيل بألفاظ جزلة، ومعانٍ سهلة واضحة، لكنّه لمّا هاجر إلى فرنسا بدأ ينظم على الطريقة الغربيّة، وحاول نقل أساليب الشعر الغربي إلى الشعر العربيّ، وقد نظم "قصيدة" على ما سُمي الشعر المنثور، أنشدها في حفل تأبين أستاذه إبراهيم ناصيف اليازجي، الذي توفي بالقاهرة سنة (1906/1324). وليس له غيرها على هذا النوع من الشعر[1]، ومع ذلك لم ينقطع عن نظم الشعر العربيّ الأصيل.

(1) انظر: خليل مطران، ديوان الخليل ، 294/1.

مفهومه للشعر

رأى خليل مطران أنّ الشعر هو: وعاء لشعور الشاعر كلّه يُسجّل فيه زفراته وأحلامه، وأحداث الزمان، فهو يمثّل: الحياة، والحقيقة، والخيال، وأنّه يقوله في كلّ وقت يكون فيه خالي الذهن عن طلب الرزق: في الصباح والمساء، وسواء أكان وحيدًا أم مع الأصدقاء.

ومصادر شعر خليل مطران ثلاثة، هي: تقليد السلف مع الاحتفاظ بأصول اللّغة، والفطرة السليمة، ومجاراة مقتضيات عصره، بحيث حاول أن يُدخل فيه كلّ جديد.

وذكر خليل مطران أنّه كان يسعى من نظم الشعر إلى تحقيق هدفين، هما: امتاع نفسه وإرضائها عندما يكون وحيدًا، ووعظ الأمّة، وإرشادها إلى ما فيه الخير، وتحذيرها ممّا فيه إتلافها، بل هو ناصح لها، وشعره دواء لجراحها.

أما مكانة الشّاعر من النّاس عند خليل مطران فقد كانت عظيمة؛ إذ هو الحادي، وهم ركبان الشقاء في الصحراء، قال: "فإنّ النّاس رَكبُ شقاء، وسَفَرُ هيماء، فما أسعدُ حاديهم – وهو الشاعر -إذا حدا، أن يمسَّ لنغماته عند إخوانه في المسير رنّةً وصدى"[1].

وخلاصة الأمر أنّه أراد للشعر أنّ يكون عصريًّا، قال في ردّه على مَنْ هاجم شعره: "فيا هؤلاء: نعم، هذا شعر عصريّ، وفخره أنّه عصريّ، وله على سابق الشعر مزيّة زمانه على سالف الدّهر.

هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصّحيح، باللفظ الفصيح. ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد... بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته، وفي موضعه، وإلى جمال القصيدة في تركيبها وترتيبها، وفي تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التصوّر، وغرابة الموضوع، ومطابقة كلّ ذلك للحقيقة، وشفوفه عن الشعور، وتحرّي دقة الوصف، واستيفائه على قدر"[2]

أمّا في موسيقا الشعر، فكان خليل مطران يرى أنّ الالتزام بالوزن والقافية لا يجب أن يحرف الشاعر إلى غير هدفه. وفي الألفاظ دعا الشاعر إلى الاعتناء باختيار

---

(1) خليل مطران، ديوان الخليل ، 10/1.
(2) خليل مطران، ديوان الخليل ، 9/1.

الأنسب منها لحمل المعنى الّذي يُريد أن يقوله. وفي بناء القصيدة اهتم خليل مطران بتركيبها كلّها بحيث تكون معانيها متناسقة، ومطابقة للحقيقة. ولم ينظر إلى جمال البيت المفرد وحده بل للقصيدة كلها، أي كانَ يحرص على ما أسماه النقاد المحدثون بالوحدة الموضوعيّة للقصيدة.

العوامل المؤثّرة في شاعريّته

أسهمت ثلاثة عوامل رئيسة في تشكيل شاعرية خليل مطران هي:

1- نشأته وتربيته

فقد ولد في بعلبك مدينة الآثار الرومانيّة، ذات النقوش والصّور المنحوتة ببراعة، ومنها صور إله الحرب "مارس" وعليه درعه، وإلهة الصّيد "ديانا"، وإله الخمر، وحول رأسه عناقيد العنب "باخوس"، وإلهة العشق "عشتار"، وبين يديها ولد ذو جناحين هو "كوبيدون" رسول الحب والعشق. فهذه الآثار بعثت في نفسه التاريخ والحزن، والجمال والعظمة، فضلًا عن جمال طبيعة بعلبك، وزحلة، وبيروت حيث تعلّم، فانبعث في نفسه حب الطبيعة ووصفها.

ولمّا هاجر إلى باريس زاده جمالها حبًّا للطبيعة. وفي مصر جمع الأمرين اللذين أثرا فيه في لبنان وفرنسا، حيث الطبيعة والآثار، وبذلك يكاد يقتصر شعره على الوصف والغزل إلى جانب المدح وشعر المناسبات.

2- ثقافته الغربيّة

لقد تثقف خليل مطران ثقافة عربيّة أصيلة على يد أستاذه إبراهيم اليازجي، فقرأ دواوين كبار شعراء العربيّة، ثم قرأ الأدبين الفرنسيّ والإنجليزيّ، وقد انبهر بالأدب الفرنسي، وحفظ كثيرًا من أشعار اللغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة، فارتدّ عمّا نشأ عليه من الأدب العربيّ، وأراد أن ينقل الشعر الغربيّ والمسرح الغربيّ إلى مصر والوطن العربيّ، وعمل ما استطاع لفعل ذلك.

3- هجرته

هاجر خليل مطران وهو ابن ثمانية عشر عامًا، فنزل الإسكندرية في طريقه إلى فرنسا التي عاش فيها عامين، ثم عاد إلى مصر وتخذها موطنًا له، ولم يغادرها إلّا بعد ثلاثة وثلاثين عامًا، فزار لبنان، وسوريا، وفلسطين سنة (1924/1343)، ثم سافر سنة (1929/1348) إلى بيروت ودمشق مع الشاعر حافظ إبراهيم.

وقد أدت هجرته عن وطنه وأهله إلى زيادة حزنه وحنينه، وبالتالي أورثته إحساسًا مرهفًا.

دعوته إلى تغريب (تجديد) الشعر العربيّ

يرى كثير ممّن درسوا الأدب العربيّ الحديث، أنّ خليل مطران مثّل رأس مذهب جديد في الشعر العربيّ الحديث، وأنّه حمل لواء الدّعوة إلى ما يسموّنه التجديد (التغريب)، فيما هو حقيقة كانَ يدعو إلى تغيير الشعر العربيّ بأن يصبح مقلّدًا للشعر الغربيّ، بدل أن يكون استمرارًا للشعر العربيّ الأصيل، وامتدادًا له، كما فعل مَنْ سبقوه وعاصروه من مثل: محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإبراهيم طوقان، وسليم أبو الإقبال اليعقوبي، ويوسف النبهاني، وعبد المحسن الكاظمي، وشكيب أرسلان، وخليل مردم، وخير الدّين الزركلي، ومئات غيرهم. وأهم ما دعا إليه خليل مطران هو[1]:

1. وحدة الموضوع في القصيدة، وادخال الخيال.
2. التجديد في المضمون، والابتكار في المعاني والأفكار.
3. التحرّر من التكلّف، والقافية مع المحافظة على جزالة الأسلوب من خلال اختيار الألفاظ الفصيحة والسليمة.
4. دعا إلى النظم في أغراض جديدة توائم العصر مثل: الشعر القصصيّ، والمسرحيّ، والوجدانيّ، ووصف الطبيعة.
5. الدعوة إلى السير في طريق الأدب الغربيّ؛ فكان يقول: إذا أردنا التجديد في الشعر، فيجب أن نسير في طريق الغرب. وذلك بأن يخلق الشاعر موضوعًا، ويصيغه، ويصوّره ويفصله، فيجمع المعلومات عنه، ثم يرتّب الأشخاص، والحوادث، والأشياء بشكل مُتسلسل حتى ينتهي الموضوع، وفكرته كما أراده الشاعر.
6. دعا إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر والمجتمع، بخيرها وشرّها، مع المشاركة في الأحوال الاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والوطنيّة وغيرها.

أثر خليل مطران في حركات تغريب (تجديد)الشعر العربيّ

أراد خليل مطران للشعر العربيّ أن يقلّد الشعر الغربيّ، ويسير في ركابه، لكي يكون متطوّرًا، وأن ينقطع عن تقليد الشعر العربيّ. وكانت دعوته ذات أثر كبير فيمن جاء بعده من الشعراء، وتحوّلت إلى حركة حمل لواءها شعراء ثلاث مدارس،

(1) انظر: محمد خفاجي، دراسات في الأدب، 300/1؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص135.

هي: الدّيوان، وأبولّو، والمهجر. وقد اعترف أكثر من شاعر بتأثره بخليل مطران صراحة، ومنهم: إبراهيم عبد القادر المازني، أحد رؤوس مدرسة الدّيوان، إذ قال: "أعتقد أني مدين لمطران بأكثر ممّا يعرفه النّاس، ولا سيّما في صدر حياتي، فإنّ خليل مطران هو أول مَنْ أدخلَ شيئًا من التجديد على الشعر في مصر"[1].

ورأى عباس محمود العقاد أنّ أثر خليل مطران كانَ واسعًا في أدباء مصر وشعرائها، بل في الشعر العربيّ كلّه، قال: "صفوة القول في بيان فضله على نهضة التجديد أنّه كانَ منذ نشأته الأولى هاديًا بصيرًا إلى موضوعات الشعر، التي يحسن بالشاعر العصريّ أن ينظم فيها، فنظم في وصف الطبيعة، كما نظم في وصف المجتمع. ونظم في التعبير عن العاطفة، كما في التعبير عن الحياة العامة. ونظم في القصّة التاريخيّة، كما نظم في القصّة الاجتماعيّة"[2].

آثاره

كانَ خليل مطران كاتبًا، وشاعرًا، ومُعلّمًا، وصحفيًّا، ومترجمًا، ولذلك جاءت مؤلفاته موزعة على أعماله، ومهاراته، وهي:

1. في الشعر، ترك ديوانين هما:

أ. ديوان باسم "ديوان الخليل" وقد صدرت طبعته الأولى سنة (1908/1326)، ثم طبع طبعات عدّة منها طبعة دار الهلال، ونشرته دار المعارف بالقاهرة، بعناية لجنة تكريم الشاعر، في آذار سنة (1949/1369). وهي في جزأين، وقد ضمّت الطبعة ما اختاره من شعره حتى سنة (1908/1326).

ب. ديوان باسم "إلى الشباب"، وهو ديوان أراجيز وحكم.

(1) أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص267.
(2) أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص269.

2. **في النثر**

أ. مقالات متنوعة الموضوعات نشرها في الصحف، والمجلات المختلفة.

ب. كتاب "مرآة الأيام في ملخّص التاريخ العام" وهو في التاريخ، صدر في جزأين سنة (1906/1324).

3. جمع ما نظمه كثير من شعراء العربيّة في رثاء الشاعر محمود سامي البارودي في كتاب بعنوان "مراثي الشعراء".

4. ترجم إلى العربيّة عددًا من روايات شكسبير التمثيلية (المسرحيات) ومنها: مكبث، وهملت، وعطيل، وتاجر البندقية وغيرها. كما ترجم بعض مؤلّفات عدد من الكتّاب الفرنسيين.

ثالثًا: مدرسة الدّيوان

تأسيس المدرسة

أسّسها الشّاعر والكاتب المصري عبد الرحمن شكري سنة(1327/ 1909)، ووضع قواعدها الأولى في ديوانه الذي أصدره في تلك السنة بعنوان "ضوء الفجر"، وامتاز شعره في هذا الديوان بثلاث ميزات هي[1]:

1. التجديد في قوافي الشعر، فنظم بعض أشعاره، بحيث تتغيّر القافية في كلّ بيتين من أبيات القصيدة مع المحافظة على وزن واحد، وهذا ما يسمى في الشعر العربي بالشعر المزدوج.

2. التجديد في قوافي الشعر، فنظم بعض أشعاره، بحيث تتغيّر القافية في كلّ بيت مع المحافظة على وزن واحد للقصيدة، وهذا استمدّه من الأدب الإنجليزي، وهو يعرف بالشعر المرسل.

3. جاء شعره في هذا الديوان ارتدادًا وخروجًا على الشعر العربيّ القديم الذي قيل ما قبل القرن الثالث عشر الهجريّ/ التاسع عشر الميلاديّ، والشعر الحديث ممثلًا في مدرسة الإحياء (النهضة)، وقد عمّ خروجه لغة الشعر وقوافيه.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص61.

شارك عبد الرحمن شكري في أفكاره وآرائه الشعرية كلّ من عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وبذلك يعتبران من المساهمين في تأسيس هذه المدرسة، وقد تمثّلت مشاركة كلّ منهما في الآتي:

مشاركة عباس محمود العقاد

جاءت مشاركة عباس محمود العقاد من خلال[1]:

1. عندما نشر عبد الرحمن شكري الجزء الثاني من ديوانه سنة (1913/1331)، كتب مقدّمته عباس محمود العقاد، وفيها مدح طريقة عبد الرحمن شكري في نظم ديوانه، حيث عبّر فيه عن وجدانه بهدوء وتأمّل، فصوّر كلّ خوالج نفسه، وصوامت الكون من حوله.
2. عندما نشر عبد الرحمن شكري الجزء الثالث من ديوانه سنة (1914/1332)، كتب مقدّمته -أيضًا-عباس محمود العقاد، فأوضح فيها المذهب الّذي تتبعه مدرسة الديوان (المذهب الرومانسي) وقال: إنّه مذهب يعتمد على وصف آلام النفس، والتعبير عن أحزانها، في شعر يكون زفرات وعبرات لصاحبه، ودعا إلى عدم التقيّد بالقافية، وإلى الصدق في العواطف، وهاجم مدرسة الإحياء ممثلة بحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ووصفهما بعدم الصدق في شعرهما، إذ يمدحان مَنْ يحتقرانه، ويهجوان مَنْ يحترمانه في دواخلهما. واستمرّ عبد الرحمن شكري يصدر شعره في أجزاء متتابعة ما بين السنوات (1327/1909و1332/1914)، وفي سنة (1338/1919) صدر الجزء السابع، وبعده اختلف مع زميليه، وابتعد عنهما، لا بل وجها له نقدًا قاسيًا.
3. سنة (1334/1916) أصدر عباس محمود العقاد ديوانه الأول، وطبّق فيه مبادئ مدرسة الديوان.

مشاركة إبراهيم عبد القادر المازني

تمثلت مشاركته من خلال كتابة مقالات نقدية على النحو الآتي[2]:

1. نشر إبراهيم عبد القادر المازني سنة (1912/1330) مقالًا في صحيفة "الجريدة"، نقد فيه بشدة أصحاب مذهب الإحياء)، وسخر من طرائقهم في

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص62؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص142.
(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص63.

نظم أشعارهم، فقال: إن استمرارهم في تقليد القدماء يجعلهم نسخًا متشابهة، ودعاهم إلى تصوير خوالج أنفسهم، وتمثُّل روح العصر الّذي يعيشونه، وهي الروح الحزينة المتشائمة.

2. سنة (1914/1332) نشر مقالات عديدة في صحيفة "عكاظ"، بناها على نقد شعر حافظ إبراهيم نقدًا قاسيًا من خلال مقارنته مع شعر زميله ورائد مدرستهم (الديوان) عبد الرحمن شكري، وقال:

أ. شعر حافظ إبراهيم متصنّع لا يَمُتُّ إلى نفس صاحبه بصلات صادقة. أما شعر عبد الرحمن شكري، فشعر مطبوع لا تصنّع فيه، ويُعبّر فيه بصدق عمّا في نفسه.

ب. شعر حافظ إبراهيم سياسيّ، وشعر مناسبات يوميّة طارئة، فهو بذلك عاجز عن استلهام ما في الكون من حقّ وجمال، ويقوم على المبالغة والخروج عن حدّ المعقول، فيأتي كاذبًا غير صادق.

ج. تَتَبّع بعض الأخطاء اللّغوية الّتي وقع فيها حافظ إبراهيم، وما أسماه السرقات الأدبية من القدماء الذين كانَ يقلّدهم في شعره.

انقسام مدرسة الدّيوان (الرومانسيّة)

بعد إصدار عبد الرحمن شكري الجزء السابع من ديوانه سنة (1919/1338) اختلف معه عباس محمود العقاد، وإبراهيم المازني، فَشَنّا على شعر زميلهما عبد الرحمن شكري حملة نقديّة، لا تقلّ عمّا كانَ ثلاثتهم ينتقدون فيه مذهب الإحياء. وفي عام(1921/1340) أصدرا (العقاد والمازني) كتابًا بعنوان "الدّيوان في الأدب والنقد" وقد شنّا فيه هجومًا على أحمد شوقي، أحد أهمّ بُناة مدرسة الإحياء، وعبد الرحمن شكري مؤسّس مدرسة الديوان (الرومانسيّة) الأول، وزميلهما لمدّة تزيد على اثنتي عشرة سنة. وجاء محتوى الكتاب في محورين هما[1]:

1. نقد عباس محمود العقاد للشاعر أحمد شوقي، إذ عقد عدّة فصول في نقده، وبيان رأي الرومانسيين في الشعر، وقد جاء نقده لأحمد شوقي تطبيقيًّا على فن الرثاء، واختار منه قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل، وعابها في أربعة أمور: التفكك؛ أي أن أبياتها تستقل بعضها عن بعض في معانيها، وعليه يمكن تغيير أماكنها في بناء القصيدة. والمبالغة؛ أي رفع المرثي في

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص65؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص148.

صفاته إلى ما هو غير حقيقي. والتقليد؛ أي الحفاظ على عناصر بناء الأغراض الشعرية وهي في الرثاء: الندب (البكاء)، والتأبين، والتّعزية. والاهتمام بالمظهر الخارجي (العرض) دون الجوهر.

والحقيقة أنّ هذا النقد يستند إلى فهم كلّ منهما للشعر، وفي النقد لا يجوز تطبيق مذهب شعري على مذهب آخر، ففي هذا نفي للمذهب مَوْضِع النقد، وهدم كامل له.

2. نقد إبراهيم عبد القادر المازني لزميله عبد الرحمن شكري.

جاء نقده في فصلين اثنين بعنوان: "صنم الألاعيب"، وفيهما اعتبر حديث عبد الرحمن شكري عن آلام البشرية مرضًا.

وقد أدّى الخلاف بين الشاعرين الزميلين المازني وشكري إلى افتراق أحدهما عن الآخر، وهجر كلّ منهما الشعر، فقد ترك المازني الشعر، واتّجه إلى السياسة والصحافة، ولم ينظم الشعر إلّا نادرًا، كما هجر شكري الشعر كليًا. وبذلك تكون مدرسة الديوان قد انتهت سنة (1921/1340).

عباس محمود العقاد ومدرسة الدّيوان

استمرّ العقاد ينظم الشعر، ويصدره في دواوين شعرية متتابعة، وهو في نظمه يمثل آراء مدرسة الدّيوان، وتمثل ذلك في ديوانين مهمّين له، وهما:

1. ديوان "عابر سبيل"، نشره سنة (1937/1356).

تناول العقاد في هذا الديوان الموضوعات التي يُشاهدها أي إنسان في الطريق الذي يسلكه ذهابًا وإيابًا، إذ يفكّر فيها، فتتأثّر نفسه بها، وتنعكس في شعوره، فينظمها لسانه شعرًا بسيطًا.

2. ديوان "هدية الكروان"، نشره سنة (1938/1357).

والكروان: نوع من الطيور المشهورة في مصر، يمتاز بتغريده الشَّجي ليلًا، فَيُثير أحاسيس وانفعالات سامعيه. وقد جعل عباس محمود العقاد أكثر قصائد هذا الديوان في هذا الطائر (أي في تغريداته الشّجيّة)، ولعلّه استوحى فكرته من الشاعر الإنجليزي "شِللي" في قصيدته "القبّرّة".

مارس عباس محمود العقاد بعد سنة (1922/1341) ما كان نقد به شعراء مدرسة الإحياء، فانخرط بالحياة السياسيّة؛ ونظم شعرًا في المناسبات المتنوّعة، ومدح، ورثى مع المحافظة على وحدة القصيدة، وصدق العاطفة، وذلك دليل على

عقم محاولات إحلال الأساليب، والمعاني الغربيّة محلّ الأساليب والمعاني العربيّة، أي محاولات تغريب(تجديد) الأدب العربيّ، وبخاصة الشعر. وغدت مدرسة الدّيوان كأنها لم تكن.

مفهوم الشعر عند مدرسة الدّيوان

الشعر هو: مجموعة عواطف، ومشاعر، وأحاسيس تُعبّر عن النّفس البشرية بمعناها الإنساني العام، بما فيها من خير وشر، وألم ولذّة، كما تُعبّر عن الطبيعة بما فيها من حقائق وأسرار، فيخرجها الشاعر لحنًا موسيقيًّا يُصوّر فيه صلته بالمجتمع والكون[1].

مصادر الشّعر عند مؤسّسي مدرسة الدّيوان

استقى مؤسّسو مدرسة الديوان مفهومهم للشعر، وطبيعته، ودوره من ينابيع عديدة هي[2]:

1. الأدب الإنجليزي بخاصة، والآداب الأوروبيّة بعامة (فرنسيّة، وإيطاليّة، وألمانيّة، وإسبانيّة، وروسيّة)، حيث سيطرت على هذه الآداب في نهاية(القرن الثالث عشر الهجريّ/ التاسع عشر الميلاديّ)، وبداية(القرن الرابع عشر الهجريّ / العشرين الميلاديّ) عواطف الحزن والألم الناتجة عن شعور الفرنسيين بخيبة الأمل من ثورتهم، فنابليون لم يستطع تحقيق أحلامه، وأحلام شعبه في إمبراطورية مترامية الأطراف بما فيها من خيرات، فخرجوا من ثورتهم، وقد سيطر عليهم الحزن والكآبة، كما انتشر الحزن في أوساط شعراء أوروبا انتشار النار في الهشيم، و بالتالي أصابت نزعة الحزن والكآبة تلك الشعراء العرب الذين صادف وجودهم في أوروبا، أو درسوا اللّغات والآداب الأوروبيّة في بلادهم، ومنهم: عبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعباس محمود العقاد، الذين تأثّروا أكثر من غيرهم بسبب الظروف السياسية الّتي كانت تعيشها بلدهم مصر، فقد ضاعت أحلام أهل مصر في تكوين دولة قوية على يد محمد علي باشا في بداية (القرن الثالث عشر الهجريّ / التاسع عشر الميلاديّ)، كما كانت قد ضاعت في (بداية القرن الرابع عشر الهجريّ/العشرين الميلاديّ)،

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص58.
(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص59.

حيث هدم الاحتلال البريطاني أحلامهم في استعادة أمجاد أسلافهم النبيلة، وحقوقهم السياسيّة والاجتماعيّة.

2. الآداب العربيّة القديمة بعامة، والأدب العربي في العصر العباسي حتى نهاية (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) بخاصة.

خصائص مدرسة الدّيوان الشعرية

دعا مؤسّسو مدرسة الدّيوان إلى إحداث تغيير في مفهوم الشعر وطبيعته، وحاولوا قدر استطاعتهم تطبيق ذلك في أشعارهم، كما صبّوا سهام نقدهم على شعراء مذهب الإحياء وغيرهم، ونتيجة ذلك تميّزت مدرستهم بميزات عديدة هي[1]:

1. الشعر في أساسه إلهام، ينبع من القلب، وينتج عن إحساس الشاعر، وشعوره بالكون المحيط به، فيصدر على لسانه نغمة موسيقيّة حزينة ومؤثّرة، وقد عبّر عنها بدقة عبد الرحمن شكري، فقال[2]:

إنّما الشعرُ نغمةٌ من حنين المزامرْ

كلُّ أمرٍ نحسُّهُ فُرصاتٌ لشاعرْ

إنّما الشعر في الحياة كمنظار ناظرْ

وقال في أصل الشعر، وما يؤثر فيه[3]:

والشّعر كالإلهام يأتي النّفس في يَقَظاتها

والكونُ آيةُ شاعرٍ يأتي بمبتكراتها

2. وحدة القصيدة الشعرية، بحيث تكون مترابطة المقاطع، فتنمو الفكرة فيها نموًّا عضويًا، بحيث لا يمكن فصل أجزائها بعضها عن بعض من دون تأثير واضح بوجود نقص أو تشويه.

---

(1) انظر: شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر ، ص59.
(2) عبد الرحمن شكري ، ديوانه ، ص247.
(3) عبد الرحمن شكري ، ديوانه ، ص344.

3. محاربة فكرة القومية في الأدب بمعناها الضيق المؤدي إلى العنصريّة.
4. محاربة فكرة الاشتراكية باعتبارها عقيمة كونها لا تقيم وزنًا للأدب الذي لا يعالج حرب الطبقات الاجتماعية، ولا يطالب بلقمة الخبز للعامة.
5. الدعوة إلى الشعر الصادر عن الوجدان الشخصي للشعراء.
6. الثورة على التقليد والجمود في بناء القصيدة وأفكارها وألفاظها.
7. الإبداع الشعري بخاصة، والأدبي بعامة هو: قدرة نفسية وليس بلاغية.
8. المثل الأعلى لشعراء مدرسة الدّيوان هو: الرومانسية الأوروبية بعامة والإنجليزية بخاصة.

مؤسّسو مدرسة الدّيوان

قام على تأسيس مدرسة الدّيوان في مصر ثلاثة من شعراء وكتاب مصر المعروفين، وهم:

1-عبد الرحمن محمد شكري عيّاد. عاش ما بين (1886/1304و 1958/1378)[1]

ولد في مدينة بور سعيد لأسرة ذات أصول مغربيّة، وقد أرسله والده إلى الكتّاب، ثم تعلّم في مدارس مدينته، وعمد إلى تثقيف نفسه في مكتبة والده التي كانت تضمُّ كثيرًا من كتب الأدب والتاريخ العربيّ والإسلاميّ، وكان والده يحرص على تثقيفه، فعرض عليه كتاب "الوسيلة الأدبيّة إلى العلوم العربيّة" للشيخ حسين المرصفي، وكان يصله بزوّاره من أدباء مصر الذين ينزلون عنده في زيارتهم لبورسعيد، وبخاصة عبد الله النديم، أديب ثورة أحمد عرابي، والشيخ حمزة فتح الله وغيرهما. ولذلك بدأ بنظم الشعر، وكتابة المقالات المتنوعة، وهو لم يزل يدرس في المدرسة الثانوية.

التحق بمدرسة الحقوق مدّة، ثم فُصل منها بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب، فالتحق بمدرسة المعلمين العليا، وفيها قرأ الأدبين العربي والغربيّ،

(1) انظر ترجمته في: عبد الرحمن شكري، ديوانه، ص أ-ن، ص 1-36؛ شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص128؛ محمد خفاجي، حركات التجديد،ص60؛أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر،ص279؛أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ،ص225؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص141.

وبخاصة الشعر الغنائي الإنجليزي. ومارس كتابة المقالات لجريدة "الجريدة"، وزوّدها بأشعاره.

سافر إلى لندن سنة (1909/1327) في بعثة دراسية، وفيها نشر ديوانه الأول بعنوان "ضوء الفجر". ولما عاد عمل في الإسكندرية، ثم نشر ديوانه الثاني سنة (1913/1331)، وقدّم له عباس محمود العقاد بمقدّمة عن الشعر وتطوّره، واستمرّ في العمل معلمًا حتى عام (1944/1364) حيث تقاعد، واكتفى بالكتابة للصحف والمجلّات المصرية مثل: الأهرام، والمقتطف، والرسالة، والهلال. وتوفي بالإسكندرية.

شعر عبد الرحمن شكري

تأثر عبد الرحمن شكري بالأدب الإنجليزي، فاتخذه نموذجًا له في التعبير عن عاطفته، وتأمّل كلّ ما يتصل بالحياة والطبيعة من أفكار وأنغام، كما تأثّر بالأدب العربي، وبخاصة بكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهانيّ، و"الحماسة" لأبي تمّام، وديواني الشريف الرضي، ومهيار الديلميّ، فأعجب بما فيها من غزل وجداني بعيد عن التكلّف.

وقد صبغ شعره بصبغة الحزن المستمد من الينبوع الرومانسي، ومن بيئته المصرية الخاضعة للاحتلال البريطاني؛ حيث: المعاناة، واليأس، وعدم القدرة على تحقيق الآمال، فكثر حديثه عن الحزن والموت، وانعكس ذلك على مشاهد الطبيعة من حوله، كما نظم شعرًا مرسلًا تحرّر فيه من القافية.

وعلى الرّغم من دعوته إلى التجديد إلّا أنّه نظم شعرًا في أهم موضوعين تقليديين هما: المديح، والرثاء.

مؤلفاته

1. أصدر عبد الرحمن شكري سبعة دواوين شعرية ما بين الأعوام(1909/1327و1919/1338)، أوّلها "ضوء الفجر".
2. قصة بعنوان "الحلاق المجنون"، تأثر فيها بالآداب الروسيّة.
3. كتاب "الاعترافات" تأثر فيه بالآداب الفرنسيّة، وبخاصة اعترافات "جان جاك روسو"، و"شاتو بريان". وهو تحليلات وتأمُّلات، وصف فيه الشباب المصري بأنّه عظيم الأمل واليأس.

4. كتب مئات المقالات الأدبيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، ونشرها في الصحف والمجلّات المصرية.

2-إبراهيم عبد القادر المازني، عاش ما بين (1307/1889و 1369/1949)[1]

ولد في القاهرة لأب كانَ يعمل في المحاماة الشرعية، ثم ما لبث أن فقد أباه، فرعته أمه، وحرصت على تعليمه، حتى تخرّج في مدرسة المعلمين الخديوية سنة (1327/1909)، فعُيِّن مدرسًا للترجمة، واللّغة الإنجليزية، ثم ترك التعليم والتحق بالحركة الوطنية المصرية، وكتب مقالات سياسيّة وأدبية واجتماعيّة نشرها في الصحف والمجلّات المصرية. وامتاز أسلوبه الكتابي بتخيُّر ألفاظه، وسعة خياله، وسيادة الأسلوب ذي الصبغة التهكمية السّاخرة.

العوامل المؤثرة في تشكيل فكر المازني وأدبه

أسهمت أربعة عوامل في تشكيل فكر المازني وأدبه، وهي:

1. موت والده، وعدم قدرته على دراسة الطب، والحقوق، وقِصَرُ قامته، وعرجه.
2. قراءاته الواسعة للأدب العربيّ القديم؛ نثرًا وشعرًا.
3. دراسته الأدب الإنجليزيّ وبخاصة الشعر.
4. عمله في الصحافة، حيث تعرّف إلى شريكيه في مدرسة الدّيوان وهما: عبد الرحمن شكري، وعباس محمود العقاد.
5. قراءاته للأدب الروسيّ والأمريكيّ، والترجمة منهما إلى العربيّة، وبخاصة الساخر منه، فانقلب من أديب وجداني تطفح نفسه بالمرارة والألم إلى أديب ساخر يستخفّ بالحياة وما فيها.

شعره

تميّز شعر إبراهيم عبد القادر المازني بمميّزات عديدة منها:

(1) انظر ترجمته في: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص264؛ محمد خفاجي، حركات التجديد،ص82؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص319؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص231؛ إبراهيم خليل ، مدخل لدراسة، ص152.

1. سار على منهج مدرسته في أول الأمر، فتحرّر من شعر المناسبات، واستوحى شعره من موجودات الحياة المحيطة، يتفاعل معها ويتأثر بها، فكان شاعرًا وجدانيًا (رومانسيًّا).
2. تحرّر من الوزن والقافية في بعض أشعاره، ففتح الباب لبناء جديد في الشعر العربيّ.
3. استخدم في أسلوبه بعض الكلمات العامية لتوظيفها في السخرية والفكاهة.
4. هاجم عبد الرحمن شكري في شعره الجديد، ثم هو نفسه لم يعد يؤمن بما يدعو إليه، وتوقف عن كتابة الشعر سنة (1351/ 1932)، واتجه إلى كتابة القصة.

مؤلفاته

1. أصدر ديوانين شعريين، نشر الأول سنة (1913/1332)، والثاني(1919/1338). وله أشعار أخرى لم تصدر في ديوان.
2. شارك عباس محمود العقاد في إصدار جزأين من كتاب "الديوان في الأدب والنقد"، الّذي تَسَمَّت المدرسة باسمه.
3. اتجه للكتابة النثرية، فأصدر قصة طويلة بعنوان "إبراهيم الكاتب"، ومجموعات قصصية منها: إبراهيم الثاني، وخيوط العنكبوت، وفي الطريق، وميدو وشركاه، وعود على بدء، وثلاثة رجال وامرأة، وعَ الماشي، ومن النافذة. وأصدر مسرحية واحدة بعنوان: "بيت الطاعة".
4. كتب كثيرًا من المقالات في: الأدب، والنقد، والسياسة، والاجتماع. ورأى شوقي ضيف أنّه كانَ من السبّاقين للدعوة إلى فكرة جامعة الدول العربية، إذ كتب سنة (1935/1354) مقالاً بعنوان "القوميّة العربيّة"، دعا فيه إلى إيجاد هيئة سياسيّة واحدة تجمع كلمة العرب، وتوحّدهم ضد الاستعمار.
5. ترجم بعض الآداب الغربية منها: قصة ابن الطبيعة، ومسرحية الشاردة، ومختارات من القصص الأدبي.

3-**عباس محمود العقاد. عاش ما بين (1307/ 1889 و1384/1964)**[1]

ولد في مدينة أسوان بمصر لأسرة بسيطة؛ إذ كان والده موظفًا في دائرة الأرشيف، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة في المدرسة الابتدائية، وتخرّج فيها سنة(1321/ 1903)، واطّلع على أفكار محمد عبده، وجمال الدّين الأفغاني، و عبدالله النديم، وذلك بصحبة والده إلى مجلس القاضي أحمد الجداوي، ثم انقطع عن التعليم، وعمل في وظائف حكوميّة، ثم عمل في الصحافة بالقاهرة، ثم عاد للتعليم بالقاهرة، فتعرّف إلى إبراهيم عبد القادر المازني، ثم عبد الرحمن شكري، فألفوا مدرسة "الدّيوان" الرومانسيّة في الأدب.

وقد عمل على تثقيف نفسه من خلال قراءاته المتنوّعة في: الأدب، والفلسفة، والسياسة، والتاريخ العربيّ الإسلاميّ، كما ثقّف نفسه في الآداب الغربيّة، وبخاصة الإنجليزية.

بعد موت والده (1907/1325)، بدأ عباس محمود العقاد العمل في الصحافة، والسياسة، وكتب مقالات كثيرة في كلّ الفنون، ما أدى إلى اعتقاله لمدة تسعة شهور، وتنوّعت كتاباته بتنوّع ثقافته، حتى بلغ ما أصدره أكثر من ستين مؤلفًا.

العوامل المؤثرة في تشكيل فكر العقاد. وأدبه

تشكّل فكر عباس محمود العقاد، وأدبه بفضل عوامل عديدة، أهمها:

1. قراءاته الواسعة في الآداب العربية والغربية، وقدرته الفائقة على تمثّلها، وإثراء معانيه ومفرداته.
2. صفاته الشخصية الخاصة المتمثّلة في: الذكاء، والنّبوغ، والاعتداد بالنفس، والثبات على الرأي.

شعره

يتميّز شعر عباس محمود العقاد بمميزات عديدة، أهمها:

(1) انظر ترجمته في: محمد خفاجي، حركات التجديد،ص74؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص309؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص227؛ إبراهيم خليل ، مدخل لدراسة، ص146.

1. دعوته إلى التجديد في المعاني مع المحافظة على الأوزان والقافية والألفاظ الجزلة، وهو في ذلك يختلف مع عبد الرحمن شكري زميله في مدرسة " الدّيوان" الرومانسيّة (الوجدانية).
2. عدم المبالغة في الحزن والتشاؤم، بل مزجهما بالطموح الذي انتهى به إلى الإقبال على الحياة، وما فيها من نعم.
3. اختيار موضوعات شعره من حياة النّاس البسطاء، ومن الطبيعة.
4. غلبة الفكر والمنطق في كثير من أشعاره على العاطفة والشعور، وهذا ممّا يتعارض مع مدرستي الرومانسية والدّيوان.

وعلى الرغم من دعوته للابتعاد عن شعر المناسبات إلّا أنّ ديوانيه "أعاصير مغرب" و "بعد الأعاصير" يضمّان كثيرًا من شعر المناسبات، وبخاصة في موضوعي الرثاء والمديح.

مؤلّفاته

كانَ عباس محمود العقاد موسوعيّ المعرفة، فكتب في كثير من المعارف، حيث ترك ستين كتابًا منها:

1. أصدر عشرة دواوين شعرية.
2. له عدد من المؤلفات الأدبية منها: مراجعات في الآداب والفنون، ومطالعات في الكتب والحياة، والفصول وغيرها.
3. نشر عددًا من كتب السير والتراجم ومنها: محمد، صلّى الله عليه وسلّم، وعبقرية أبي بكر الصديق، وعبقرية عمر، وعبقرية علي، رضي الله عنهم، وعقائد المفكرين في القرن العشرين.
4. له مئات المقالات في مختلف موضوعات الحياة.
5. له بعض القصص والمسرحيات.

ويمكن القول إنّ نثر عباس محمود العقاد أهم من شعره، وقد امتاز نثره بألفاظ جزلة، وأسلوب رصين يدل على ثقافة واسعة، ومعان عميقة.

نماذج من شعر العقاد

اخترت ثلاثة نماذج من ديوانه "هدية الكَرَوان"، وهي:

النموذج الأول بعنوان "الكروانيات"، قال[1]:

هتفـــات الكِـــرْوان[2]بالليـــل تتـــرى ومعـــاني الربيـــع نـــورًا وعطـــرا

وجمـــال الحيـــاة حبًّـــا وحســـنًا وشـــبابًا يفـــيض عطفًـــا وبِشـــرا

بـــتُّ أُصـــغي لهـــا، وأقـــبس منهـــا ثـــم ترجمتُهـــا لمـــن شـــاء شـــعرا

النموذج الثاني بعنوان: "الكروان"، وقد نَظَمها عباس محمود العقاد، أوّل سماعه ألحان طائر الكروان، فقال[3]:

هل يسمعون سوى صدى الكروان صـوتًا يرفـرف فـي الهزيـع الثـاني؟

مـن كـلِّ سـارٍ فـي الظـلام كأنَّـه بعـضُ الظـلام، تُضـلُّه العينـان

يـدعو إذا مـا الليـل أطبـق فوقـه مـوجُ الـدياجر، دعـوةَ الغرقـان

مـا ضـرَّ مَـن غنَّـى بمثـل غنائـه أنْ لـيس يـبطش بطشـة العِقبـان

إنَّ المزايـا فـي الحيـاة كثيـرة الخـوف فيهـا والسَّـطا سـيّان

***

(1) عباس العقاد، هدية الكروان، ص11.

(2) هذه الأبيات الثلاثة ، افتتح عباس محمود العقاد فيها ديوانه ، وسمّاها باسم "الكروانيات". والقصيدة الثانية نظمها لمّا أُعجب بألحان الكروان عندما استمع لهُتافه، ولمّا استمع له بعد عشرين سنة من نظم القصيدة= =الأولى، وجد أنّ الكروان يُجدّدُ معانيه لسامعيه، من حين لآخر، فنظم القصيدة الثانية ليؤكّد ما فهمه من ألحان الكروان المُجدّدة.

(3) عباس العقاد، هدية الكروان، ص11.

يـــا مُحيـــيَ اللّيـــل البهـــيم تهجُّـــدًا والطيـــــر آويـــــة إلـــــى الأوكـــــان

يحـدو الكواكـب وهـو أخفـى موضـعًا مـــن نـــابغ فـــي غمـــرة النّســـيان

قـــلْ يـــا شـــبيةَ النـــابغين إذا دُعـــوا والجهـــل يضـــرب حـــولهم بجـــران

كـم صـيحة لـك فـي الظّـلام كأنّهـا دقّـــات صـــدر للدُّجُنَّـــة حـــانِ

هُـنَّ اللّغـات ولا لغـات سـوى الّتـي رُفعـــت بهـــن عقيـــرة الوجـــدان

إنْ لـــم تقيِّـــدْها الحـــروفُ فإنَّهـــا كـــالوحي ناطقـــةٌ بكـــلِّ لســـان

أغنـى الكـلام عـن المقـاطع واللُّغـى بـــثَّ الحـــزين وفرحـــة الجـــذلان

النموذج الثالث بعنوان "الكروان المُجدّد"، وقد نظمها العقاد بعد عشرين سنة من نظمه قصيدة "الكروان" السابقة، قال[1]:

زعمـــوك غيـــر مجـــدَّد الألحـــان ظلمـــوك، بـــل جهلـــوك، يـــا كروانـــي

قـــد غيَّرتـــك، ومـــا تُغيِّـــر شـــاعرًا عشـــرون عامًـــا فـــي طـــراز بيـــان

أســمعتني بــالأمس مــا لا عهـد لـي بســـماعه فـــي غـــابر الألحـــان

ورويـت لـي بـالأمس مـا لـم تـروهِ مـــن نغمـــةٍ وفصـــاحةٍ ومعـــان

***

شــكواي منــك، وإن شــكرتك، إنــه ســـرٌّ تصـــرُّ بـــه علـــى الكتمـــان

شــكري إليــك، وإن شــكوتك، إنــه ســـــرٌّ تـــــؤخِّره لخيـــــر أوان

كنـــزٌ يُصـــان فهـــاتِ مـــن حباتـــه ذخـــــر القلـــــوب وحليـــــة الآذان

***

أنــا لا أراك؟! وطالمــا طــرق النُّهــى وحـــيٌ، ولـــم تظفـــر بـــه عينـــان

أنا في جناحك حيث غاب مع الدّجى وإن اســـتقرَّ علـــى الثَّـــرى جثمـــاني

أنــا فــي لســانك حيــث أطلقــه الهــوى مرحًـــا، وإن غلـــب الســـرور لســـاني

أنــا فــي ضـميرك حيـث بـاح فمـا أرى ســـرًّا يغيِّبـــه ضـــمير زمـــاني

أنــا منـك فـي القلـب الصَّـغير، مسـاجلٌ خفـــق الربيـــع بـــذلك الخفقـــان

أنــا منـك فـي العين التـي تَهَـبُ الكـرى وتَضـــنُّ بالصـــحوات والأشـــجان

(1) عباس العقاد، هدية الكروان، ص12-13.

طِرْ في الظلام بمهجة لو صافحتْ حجر الوهاد لهمَّ بالطيران

تغنيك عن ريش الجناح وعزمه فرحات منطلق الهوى نشوان

فرحات دنيا لا يُكدِّر صفوَها بالمَيْن غيرُ سرائر الإنسان

***

علَّمْتني بالأمس سرَّك كلَّه؛ سرَّ السَّعادة في الوجود الفاني

سرُّ السّعادة نفرةٌ ومحبّة فيكم تُؤلَّف نافر الأوزان

الكون أنتم في صميم نظامه وكأنّكم فيه الطَّريد الجاني

أنتم سواءٌ كالصَّديق وبينكم بعدٌ كما يتباعد الخَصمان

لا يحمل الطيار وزر العاني حمل ابن آدم عثرة الإخوان

لا عالمٌ منكم ولا متعلِّمٌ كلا! ولا متقدِّمٌ أو وان

متشابهين على الحياة فكلُّكم ساري ظلامٍ، هاتف بأغان

متفرقين على المُقام ودأبكم عند الرَّحيل تجمع القطان

وكأنَّما نُسخت لكلِّ نسخةٌ من هذه الأجواء والأوطان

فهو الشَّريك على نصيب واحدٍ وهو الوحيد فما له من ثان

ذخر الطبيعة منه تُعْطَوْنَ الحِجى لا من سباق بينكم ورهان

***

أنتم بني الطير المسبِّح في الدُّجى فيكم كهانة صالح الكهَّان

بعتم كرى الغافي وطيب رقاده وبه اشتريتم يقظة اليقظان

قـل مـا اشـتهيت القـول يـا كروانـي فـــي لهـــو ثرثـــار وحلـــم رزان

ســأعيش مثلــك لــي وللــدُّنيا معًــا وأقــول مثلــك: كيــف يزدوجــان؟

وأظــلُّ تــزدحم الحيــاة بمهجتــي أبــدًا ويجتنــب الزّحــام مكــاني

فــي عزلــة أنــا والحبيــب تؤمُّنــا دنيــا الجمــال، ونحــن منفــردان

الخلاصة

إن ما دعا إليه أصحاب مدرسة " الدّيوان" من تغريب(تجديد) في الشعر العربي، لم يلتزموا هم أنفسهم به، فكلٌّ منهم نظم شعرًا فيما أسموه شعر المناسبات، وبخاصة في موضوعي المديح والرّثاء، كما أنّهم لم يستطيعوا التحرّر من الأوزان الشعرية العربيّة المعروفة، وإن كان يُسجّل لعبد الرحمن شكري ريادته في الدعوة إلى الشعر المرسل والحرّ، وأما دعوتهم للتحرّر من القافية، فلم تنجح، وما نظموه في تعدّد القوافي أو المزدوج كانَ موجودًا في الشعر العربيّ في العصور السابقة. وعليه فقد اختلفوا فيما بينهم، فعبد الرحمن شكري المؤسّس الأول للمدرسة ابتعد عن الحياة الأدبيّة، وإبراهيم عبد القادر المازني توقف عن نظم الشعر بعد عام (1919/1338)، وعباس محمود العقاد غلب فكره وجدانه.

وقد جاءت دعوتهم بتأثرهم السّريع بالآداب الغربيّة، وإيمانهم بأفكار المستشرقين الذين حصروا الآداب العربيّة في الحقبة (ما بين الجاهلية والقرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلاديّ)، على أبعد تقدير، واعتبروا ما بعد ذلك –من غير دراسة- عصور انحطاط وجمود في كلّ شيء.

رابعًا: جماعة أَبولّو

معنى أبولّو

أبولّو أو أبولون هو: اسم إله الشعر، والموسيقي، والفنون، والجمال، عند اليونانيين القدماء، كانَ له معبد في جزيرة "دلفي" باليونان، واشْتُهر كمركز للتكهّن (التنبؤ).

وقد أخذ مؤسّس الجماعة اسمها من الأساطير (الميثولوجيا) اليونانيّة (الإغريقيّة)، بهدف إعطاء الجماعة اسمًا فنيًا عالميًا – حسب اعتقاده-لعلَّ شعر جماعته يكتسب هذه العالميّة[1].

المؤسّس

أسّسها الطبيب الشاعر أحمد زكي محمد أبو شادي في القاهرة في شهر (جمادى الأولى 1351الموافق لشهر أيلول سنة 1932)، وتولّى هو منصب أمين السر بصفة دائمة، والشاعر أحمد شوقي رئاسة الجماعة، لكنّ القدر عاجله، فتوفاه الله، سبحانه وتعالى، في (12جمادى الآخرة/14 تشرين الأوّل) من السنة نفسها، فتولى رئاسة الجماعة الشاعر خليل مطران. واستمرّت الجماعة حتى سنة (1935/1354) حيث انتهى دورها[2].

عضوية الجماعة

فتحت الجماعة الباب لعضويتها في مصر والوطن العربي للشعراء بخاصة والأدباء ومحبي الأدب بعامة، ومَنْ كانوا يؤمنون بأهدافها بخاصة، ومن هنا تم تعيين الشاعر أحمد شوقي رئيسًا لها، وخليل مطران وأحمد محرّم وكيلين(أي نائبين للرئيس)، أما أعضاء أول مجلس إدارة للمجلة، فهم: إبراهيم ناجي، وعلي العناني، وكامل كيلاني، ومحمود عماد، ومحمود صادق، وأحمد الشايب، وسيّد إبراهيم(الخطاط)، وعلي محمود طه(المهندس)، ومحمود أبو الوفا، وحسن القاياتي، وحسن كامل الصيرفيّ. وبعد وفاة أحمد شوقي بأسبوع أي في(22جمادى الآخرة 1351 الموافق 1932/10/22) اختير الشاعر خليل مطران رئيسًا للجماعة، وقد انتسب إليها عدد غير قليل من شعراء مصر، وحتى من شعراء حركة المذهب العربيّ الأصيل(البعث والإحياء) وغيرها[3].

---

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70؛ المنجد في الأعلام، ص19؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص99.

(2) انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص 5-32؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70؛ محمد خفاجي، دراسات في الأدب العربي، ص249؛ حركات التجديد، ص97.

(3) انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص5-32؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70، 145؛ يوسف داغر، مصادر الأدب، 55/2؛ محمد خفاجي، حركات التجديد ، ص97؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر،ص247؛مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد،ص168، وقال إن شعر أحمد زكي أبي شادي

مجلّة الجماعة

أصدر أحمد زكي أبو شاوي مجلّة للجماعة تحمل اسم "مجلة أبولو"، وفتح صفحاتها للأدباء والشعراء الشباب في مصر، وفي أوّل عدد أوضح فكرة الجماعة، وغايتها، وسبب تسميتها بـأبولو[1]؛ فالفكرة قامت على أساس الرقي بالشعر، ورفع مستواه في الشكل والمضمون، والغاية هي رعاية الشعراء والعناية بهم ماديًا وأدبيًا. وأما سبب التسمية فسبق الإشارة إليه في معنى اسم الجماعة.

وكانت "مجلة أبولو" أوّل مجلة تُخصّص للشعر ونقده في مصر والوطن العربي، وهدفها نشر أدب الجماعة وأفكارها. وقد حيّا أحمد شوقي الجماعة ومجلّتها بقصيدة لاميّة نشرت في عددها الأول، ومنها قوله[2]:

أبولـــو!! مرحبًـــا بـــكِ يـــا أبولـــو ... فإنّـــكِ مـــن عُكـــاظِ الشّـــعر ظِـــلُّ

عكـــاظُ وأنـــتِ للبلغـــاء ســـوقٌ ... علـــى جَنباتهـــا رحَلـــوا وحلُّـــوا

وينبـــوعٌ مـــن الإنشـــاء صـــافٍ ... صـــدى المتـــأدبينَ بـــه يُقـــلُّ

ومضـــمارٌ يســـوقُ إلـــى القـــوافي ... ســـوابقها إذا الشّـــعراءُ قلُّـــوا

يقـــولُ الشِّـــعرَ قـــائلهم رصـــينًا ... ويُحســـنُ صـــيفَ يُكْثِـــرُ أو يُقِـــلُّ

ولـــولا المحســـنونَ بكـــلِّ أرضٍ ... لمـــا ســـادَ الشُّـــعوبُ ولا اســـتقلُّوا

عســـى تأتيننـــا بمُعلّقـــاتٍ ... نـــروحُ علـــى القـــديمِ بهـــا نُـــدِلُّ

لعـــلّ مواهبًـــا خَفِيـــتْ وضـــاعَتْ ... تُـــذاعُ علـــى يَـــديكِ وتُسْـــتَغَلُّ

صـــحائِفُكِ المدبّجـــةِ الحواشـــي ... رُبـــى الـــوُرودِ المفـــتَّحِ أو أجـــلُّ

مؤسّس الجماعة جمع بين مذاهب عديدة؛ مصطفى هدارة، دراسات في الأدب،ص34، وقال: إن أبولو رابطة للشعراء أكثر مما هي مدرسة فنية ذات اتجاهات متميزة.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70.

(2) أحمد شوقي، الشوقيات، 86/4.

رياحينُ الرِّياضِ يُمَلُّ منها ورَيحانُ القرائح لا يُمَلُّ

يُمَهِّدُ عبقريُّ الشّعر فيها لكلٍّ ذخيرةٍ فيها مَحَلُّ

ولـيس الحقُّ بالمنقوصِ فيها ولا الأعراضُ فيها تُسْتَحَلُّ

وليستْ بالمجال لنقدِ باغٍ وراءَ يَراعهِ حسدٌ وغِلُّ

واستمرّت المجلة تصدر حتى سنة (1354/ 1935)، وصدر عوضًا عنها مجلتا: أدبي والإمام، أصدرهما أبو شادي في الإسكندرية لكن خفَتَ دورهما، وأثرهما في الشعر والأدب، ولم يعد موجودًا. وقد اهتمت الجماعة بنشر كثير من كتب أعضائها ودواوينهم الشعريّة[1].

العوامل التي ساعدت على تشكيل جماعة أبولّو

أسهمت عوامل عديدة في تشجيع أحمد زكي أبو شادي على تشكيل هذه الجماعة الشعرية، وأهمها[2]:

1. اتساع التعليم وانتشار الثقافة في مصر.
2. اتصال الأدباء والشعراء والمثقفين في مصر بالآداب الغربيّة مباشرة، أو من خلال الترجمة عبر الجامعة المصرية، ومن خلال ما كتبه الجيل الجديد من الأدباء المصريين في الصحف والمجلّات من آراء جديدة في الأدب والشعر، فضلًا عن نشر ترجمات لنماذج من أشعار الشعراء الغربيين بعامة والشعراء من: بريطانيا، وفرنسا بخاصة.
3. لجوء الملك فؤاد ورئيس الحكومة المصرية إسماعيل صدقي وبالاتفاق مع الاحتلال البريطاني إلى التضييق على حرية النّاس، وبخاصة من خلال تشديد الرقابة على ما ينشره الأدباء والكتاب، والشعراء من مقالات متنوّعة في الصحف والمجلّات المصرية، فأصاب الشعراء اليأس، وسيطر عليهم الحزن. وقد قيل إنّها صدرت بدعم من الملك ورئيس الحكومة لصرف

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص99.
(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص73.

الشباب عن ظلم الحكومة، ومشاكل البلاد، وإلهائهم بقضايا الحبّ والهيام التي شغل بها شعراء المجلة[1].

قال شوقي ضيف وكأنّه يُبّرر سلوكهم: "فكان طبيعيًّا أن ينطوي الشعراء على أنفسهم، وأنْ يجترُّوا الألم والحزن، ويعكسوهما على ما حولهم من الطبيعة؛ فإذا هم رومانسيون في جمهورهم. وهي رومانسية تتّضح أصداؤها في أشعارهم، وفي نفس عنوانات دواوينهم؛ فلأبي شادي "الشعلة" و "فوق العباب"، ولإبراهيم ناجي "من وراء الغمام"، ولعلي محمود طه "الملاح التائه"، ولحسن الصيرفيّ "الألحان الضائعة"، ولمحمود أبي الوفا "الأنفاس المحترقة"[2].

4. عناية المجلّات والصحف في مصر بالأدب، سواء من حيث الكتابة في ماهية الأدب والقيم التي يجب أن يتضمّنها، أم من حيث التعريف بكبار شعراء أوروبا مع نماذج من أشعارهم وتوضيح مذاهبهم الأدبية، أم من حيث التعريف بشعراء المهجر، ونماذج من أدبهم. وبذلك وفّرت المجلّات والصحف لأدباء جماعة "أبولّو" وغيرهم أربعة نماذج من الأدب، هي: أدب مدرسة النهضة (الإحياء)، وأدب مدرسة الديوان، والأدب الغربيّ، وأدب المهجر.

هذه النماذج أدت إلى اطّلاع شعراء جماعة "أبولّو" على نماذج شعرية كثيرة، فجاء شعرهم في نماذج وأغراض عديدة، وقد ظهر هذا التأثير بوضوح في دواوين أحمد زكي أبو شادي حيث جاء شعره في أغلب موضوعات الشعر العربي المعروفة قديمًا، وتلك الحديثة؛ فقد ضمّت دواوينه مواضيع: الحب والطبيعة، والأسواق بما فيها من بشر وأغراض، والأساطير اليونانية، والمخترعات الحديثة، والتاريخ، والحضارة المصرية الفرعونية، والشعر الوطنيّ، والقوميّ والإنسانيّ، والإسلاميّ وغيرها.

أما أساليب أدب الجماعة فقد تراوحت بين المحافظة على أساليب مدرسة النهضة، وبين أساليب مدرسة الديوان فلم يُشكّل أصحاب هذه الجماعة مذهبًا خاصًا بهم، وذلك على الرغم من وضوح النزعة الرومانسيّة في أدب أدبائها.

---

(1) انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص15-16.

(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص71-74؛ أحمد هيكل، موجز الأدب الحديث، ص194-206.

نقد جماعة أبولّو

انتقد عدد من دراسي الأدب جماعة "أبولّو" في أمرين هما[1]:

1. افتقار الجماعة للتخطيط الفني.
2. لم يكن لها هدف شعريّ واضح، ولا مذهب أدبيّ محدّد، بل اعتبرت نفسها جماعة كلّ شاعر مصري.

أهداف جماعة أبولّو

حدّدت الجماعة لنفسها ثلاثة أهداف عامة، هي[2]:

1. الرُّقي بالشعر العربي، وتوجيه جهود الشعراء توجيهًا شريفًا.
2. مُناصرة النهوض الفني في الشعر العربي.
3. رعاية الشعراء والعناية برفع مستواهم ماديًا واجتماعيًا، وأدبيًا والدّفاع عن كرامتهم.

خصائص جماعة أَبولّو

على الرّغم من عدم وجود مذهب واضح لجماعة "أبولّو"، وعدم وجود تخطيط فني لها إلّا أنّ معالم الرومانسيّة الأوروبيّة كانت بارزة في شعر كثير من الشعراء الذين نالوا عضوية الجماعة، ويمكن توضيح خصائص الجماعة في محورين، هما[3]:

الأول: مضمون الشعر

شاع في شعر أغلب شعراء جماعة "أبولّو" مضامين شعرية عديدة أهمها:

1. الاهتمام بالحب مع إضفاء الطابع الروحيّ.
2. الحنين للوطن بعامة، ومواطن الذكريات منه بخاصة، وصبغ حنينهم بالحزن والشكوى؛ وذلك تعبيرًا عن خيبة أملهم.

---

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70-71.
(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70؛ محمد خفاجي، الأدب العربي الحديث، ص250، حركات التجديد، ص97.
(3) انظر: أحمد هيكل، موجز الأدب الحديث، ص221-229.

3. الإكثار من ذكر الطبيعة بعامة، والمناطق الريفية منها بخاصة، مع ما في هذا الريف من طبيعة بسيطة، وأناس بسطاء.

4. سيادة قضايا الحياة والموت، والإيمان والكفر، واليقين والشك في أشعارهم مع ما يرافق هذه القضايا من تأمّل وإطالة نظر وتفكير أدى ببعضهم إلى الزهد.

5. معالجة قضايا الوطن العربيّ والإسلاميّ، وبخاصة الجهاد ضد الاستعمار في: فلسطين، وسوريا، وليبيا، والجزائر، والمغرب وغيرها.

6. الإيمان بأنّ الحزن والألم هو مصدر الإبداع الشعري؛ لذلك كثرت في أشعارهم الشكوى سواء أكانت من الوحدة، أم الفشل في علاقة الحب، أم خيبة الألم.

الثاني: بناء القصيدة

اعتمد شعراء جماعة "أبولّو" عناصر جديدة عديدة في بناء قصائدهم، ومنها:

1. استخدام الرمز في شعرهم؛ وذلك بسبب الأوضاع السياسية، وخوفًا من مواجهة الأنظمة الحاكمة.
2. استخدام التشخيص (التجسيم) في نقل المعاني المقصودة للقارئ، فهم يُحوّلون بهذه الطريقة المعنوي المجرّد إلى مادي حسيّ، وبذلك بعثوا الحياة في مواد الطبيعة.

من أعلام جماعة "أبولّو"

ضمّت جماعة "أبولّو" عددًا كبيرًا من شعراء مصر من كلّ الأطياف: الثقافيّة، والسياسيّة، والدينيّة، كما نشرت لشعراء من الوطن العربي ومن المهجر[1]، وسأتحدّث عن اثنين ممّن كانوا أكثر استيعابًا لآراء الجماعة، وتمثيلًا لها، وهما:

1-أحمد زكي أبو شادي، عاش ما بين (1310/1892و1375/1955)[2].

ولد أحمد زكي محمد أبو شادي في القاهرة لأب محام، وخطيب مفوّه، وأم أديبة وشاعرة، وكان خاله شاعرًا، وهو: مصطفى نجيب. وتعلّم في مدارس القاهرة، وفي سنة (1330/ 1912) سافر إلى لندن لدراسة الطب، فلمّا تخرّج حصل على منحة لدراسة علم الجراثيم، واستمرّت إقامته في لندن عشر سنوات، وفي لندن اطلع على الأدب الإنجليزي، وأنشأ "جمعية آداب اللّغة العربيّة"، وعمل في: التصوير، وتربية النحل، وغيرها من الأعمال التي أتقنها.

شاعريته

تفجرّت موهبة أحمد زكي أبو شادي الشعرية، وهو في ريعان شبابه، وقد نشر ما كانَ ينظمه أو يكتبه في المجلات والصحف المصرية، وأصدر أول دواوينه

---

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص98-99.

(2) انظر ترجمته في: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص5-32؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 55/2؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص145؛ محمد خفاجي، حركات التجديد،ص101؛ قصة الأدب المهجريّ، ص398؛ مع الشعراء المعاصرين، ص17-25.

الثلاثة والعشرين بعنوان " أنداء الفجر" وهو ابن ثمانية عشر عامًا، وذلك سنة (1327/ 1909)[1].

وقد تأثّر كثيرًا بخليل مطران، والشعر الإنجليزي، ونظم شعره في كلّ موضوعات الشعر العربيّ مع الاهتمام بوصف الطبيعة والغزل، والشعر القصصي والتمثيلي، والشعر الوطني والقومي. ويمثل شعره أهداف وآراء الجماعة التي أسّسها أصدق تمثيل، فهو على الرغم من شيوع سمات الرومانسيّة في كثير من أشعاره إلّا أنّه لم يلتزمها التزامًا واضحًا[2].

أما أساليب أبي شادي، فيغلب عليها السهولة في الألفاظ، والوضوح والبساطة في المعاني، وقد نظم في الشعر المرسل نماذج عديدة بثّها في دواوينه المختلفة[3].

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص16، 18. ذكر له وديع فلسطين خمسا وثلاثين ديوانًا منها اثنان باللغة الإنجليزية. انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص13-14.

(2) انظر: مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص169؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص19 وهو يعتبره رائد المدرسة الرومانسية في مصر.

(3) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري،ص453، وقد سمّاه الطليق، وقال إنه تحرّر فيه من قيد القافية لكنه التزم بالوزن الواحد، كما أنه نظم شعرًا متنوّع الوزن؛ مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص170-173؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص148.

مؤلّفاته

كتب أحمد زكي محمد أبو شادي في مجالات العلم المتنوّعة؛ إذ كانَ موسوعيّ المعرفة، فهو طبيب، وعالم في علم الجراثيم، وفي النباتات والحيوانات، وأديب؛ شاعر وناثر، ومؤرّخ، ومفكر، وعالم باللغات، فترجم كثيرًا من الآداب والعلوم الّتي رأى حاجة لمجتمعه في ترجمتها. وفي الشعر صدر له ثلاثة وعشرون ديوانًا.

تشكيل شاعرية أبي شادي

أسهمت عوامل عديدة في تشكيل شاعرية أبي شادي المتنوّعة والواسعة، وأهمها[1]:

1. موهبته الشعرية المتدفّقة، وسرعة بديهته، حتى أنه كانَ يستطيع أن ينظم شعرًا في أي موضوع يخطر بباله، أو يثير اهتمامه.
2. تنوّع مصادر ثقافته، وعدم تعصبه لثقافة بعينها، فكانَ يبحث عمّا يُوسّع مداركه، ويُنمّي فكره، ويُرضي ذوقه؛ فأخذ عن أحمد شوقي وحافظ إبراهيم أصول الشعر العربي؛ في بناء القصيدة، ووزنها وقافيتها، وألفاظها ومعانيها، وعن خليل مطران التجديد في الشعر من حيث الوزن والقافية والموضوعات؛ إذ كانَ خليل مطران يميل للشعر المرسل، ومن رواد الرومانسية؛ واطّلع على الآداب العربيّة القديمة، والآداب الأوروبية بعامة، والأدب الإنجليزي بخاصة حيث أمضى عشرة أعوام من كهولته في بريطانيا، وكذلك الحال مع الأدب الأمريكي حيث عاش آخر تسع سنوات من حياته في أمريكا، فاطّلع على نتاج هذين الأدبين، واتصل بأدبائهما اتصالًا مباشرًا، فأخذ عنهما المفهوم الغربي للشعر، وأنواع الشعر ومذاهبه، فعرف الشعر القصصي، والتمثيلي، والغنائي. والمذاهب الرومانسية، والرمزية، والواقعية.
3. وظائفه العديدة، والمتنوّعة، فهو طبيب، وعالم في علم الجراثيم، ونحّال (مُربي نحل)، وعالم في النبات، وصحفي، ومصوّر، وموسيقي، فضلًا عن قيامه بتأسيس جمعيات تهتم بالعلوم الّتي كانَ يتقنها والوظائف الّتي عمل

(1) انظر: محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18-19؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص153؛ مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص168-181.

فيها، وهذا التنوّع في الوظائف والعلوم انعكس على نتاجه الشعري، فلم تخل دواوينه الشعرية من أي من موضوعات الحياة.

ولأن موضوع البحث هو الأدب بعامة والشعر بخاصة، فالأهم هو ذكر بعض آثاره فيها، فهو ترك ثلاثة وعشرين ديوان شعر، وعشر مسرحيات، وعددًا من القصص، فضلًا عمّا كتبه من مقالات أدبية ونقدية نشرها في الصحف والمجلّات المختلفة، وهذا الانتاج الأدبي الغزير جعل النّقاد ودارسي الأدب يختلفون في أحكامهم عليهم، فمنهم مَنْ عدّه "درّة متألّقة في جبين الشعر المعاصر، وفيه روائع من القصيد، لم تَجُدْ بها قريحة شاعر"[1] ومنهم مَنْ رأى أنه:"لم يترك بابًا من أبواب الشعر إلّا وأفاض فيه؛ فله الشعر الوجدانيّ والغزليّ، والوصفيّ، والتصويريّ، والفلسفيّ، والصّوفيّ، والقصصيّ، والتمثيليّ"[2]. وقد اتبع أبو شادي ثلاثة مذاهب فنية، ففي مرحلة الصبا كانَ رومانسيًا، وفي مرحلة الكهولة ظهرت عليه نزعة صوفية واجتماعية وإنسانية، وفي مرحلة الشيخوخة والنضج سادت في شعره النزعة الواقعية والتقدّميّة[3].

ومنهم مَنْ رأى أنّ أبا شادي قدّم للأدب العربيّ الحديث خدمات جليلة، وأنّ شعره مفخرة للأدب العصري، لكنّ غزارة انتاجه، وعدم دراسة أدبه دراسة وافية من قبل بعض الدارسين جعلت هؤلاء لا يُقدّرون أدبه التقدير اللازم الذي يستحقّه، وهو جمع في أدبه بين ثلاثة مذاهب أدبية كانت سائدة في عصره هي الكلاسيكية، والرومانسية، والواقعية، مع غلبة الرومانسية على شعره حتى عدّه رائدها في مصر، وقد ضرب أمثلة على ذلك من دواوين شعره، مع الإشارة إلى أن شعره لا يخلو من بعض العيوب سواء أكانت في الصياغة، أم الوزن أم القافية أم غيرها من العيوب التي لا تقلل من قيمة أدبه[4].

وأخيرًا يرى شوقي ضيف أنّ غزارة انتاج أبي شادي الشعرية، وسرعة بديهته في النظم في أي موضوع يخطر بباله، جعل تجاربه الشعرية – في أكثر الأحيان-غير ناضجة، وبالتالي لم يستطع النهوض بالشعر فنيًّا[5].

نماذج من شعره: اخترت خمسة نماذج من شعره، وهي:

---

(1) محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18.
(2) يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 56/2. وانظر: محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18.
(3) انظر: محمد خفاجي ، مع الشعراء المعاصرين ، ص18-19.
(4) انظر: مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص168-181.
(5) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص153.

النّموذج الأوّل بعنوان: "أنداء الفجر"، قال[1]:

مِنْ دُموعِ النّجومِ، مِنْ سَهرِ العا ... شقِ صِيغتْ ومِنْ رجاءِ الحياةِ

في حَنانٍ ورقّةٍ وهي لا تم ... لكُ مِنْ عمرها سوى لحظاتِ

في ثُغورِ الأزهارِ في ألقِ العُش ... بِ وفوقَ الغصونِ تحيا وتَفْنَى

وهَبتْ حُسنَها الضّحية للشّم ... سِ كأنّ الفناءَ للشّمسِ أغنَى

ويعود الفجرُ الوفيُّ بها بَع ... دًا، ولكنْ تعود تمضي الضّحِيهْ

هي مِلْكٌ لنا حياةً وموتًا ... وهي بالرُّوحِ صورةُ الأبدَّيهْ

النّموذج الثاني بعنوان: "حَياتان"، قال[2]:

أمَي (الطبيعة)! في نجواكِ إسعادي ... وفي ابتعادي أُعاني دهريَ العادي

وفي حمى إخوتي من كلّ طائرةٍ ... وكلّ نْبتٍ نبيلٍ وحيُّكِ الهادي

ما بالها هي صفوي وحدَها فإذا ... رجعتُ للنّاس لم أظفر بإسعادِ؟

كأنّما النّاسُ أعداءٌ: فبعْضُهمُ ... حربٌ لبعضٍ وحُسّاد لحسّادِ!

النّموذج الثالث بعنوان: "حظُّ النّاقمين"، قال[3]:

فؤادي برغمِ الحادثاتِ كبيرُ ... وطرفِي وإنْ عزَّ العفافُ كسيرُ

---

(1) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص35.

(2) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص37.
(3) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص37.

تَلـــينُ لـــيَ الأيّـــامُ فـــي كـــلّ شـــدّةٍ ولـــــو أن جُـــــلَّ الفـــــاتحين أســـــيرُ

سـلختُ مـن الأعـوام بعضًـا وعشـرةً أُقـــيم علـــى ديـــن العُلـــى وأســـيرُ

وفي النّفسِ حاجاتٌ وفي القلبِ لوعةٌ علـــى أنّ كلّـــي همـــةٌ ومَريـــرُ[1]

ومـا انقطعـتْ أسـبابُ أنـسٍ ونعمـةٍ ولكـــنَّ حـــظَّ النـــاقمينَ عَســـيرُ!

النّموذج الرّابع بعنوان: "النّاس"، قال[2]:

أسـيرُ فـلا أرَى فـي النّـاسِ ناسًـا ولكنّـــي أرى صُـــورًا أمـــامي

إذا كثُـــر الزّحـــامُ وخفـــتَ منهـــا فأقواهـــا ضـــعيفٌ فـــي الزّحـــام

شُـخوصٌ لا يُصـانِعها سـوى مَـنْ يَـذلُّ عـن الشّـخوصِ مـن الأنـام

ومـــا يُجـــدي لهـــا أبـــدًا مَـــلامٌ فمـــا هـــي فـــي اليقـــينِ ولا المَـــلام

لقـد سـادَ الطَّغـامُ الـدّهرَ حتـى حَسـبنا المجـدَ مِـن فضـلِ الطّغـام

فَـــدَعْنِي لا أُحـــاذرُ أو أُبـــالي بأوبـــاشِ المناكيـــدِ اللئـــام

لقـد قتلـوا كـرامَ النّـاس قتلًـا فحسـبي إنْ أمُـتْ مـوتُ الكـرام

ودَعْنـي فـي إبـائي فهـو عنـدي أجَـلُّ مِـنَ انتقامِـكَ وانتقـامي

النّموذج الخامس بعنوان: "القرد والسمكة"، قال[3]:

أمُشَـبِّهًا بـالقردِ مَـنْ هـو ربُّـهُ فضـلًا، أبَيْـتُ لمثلـكَ التّشـبيها

---

(1) المرير: العزم، والإصرار. اللسان: مادة مرر.
(2) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص298.
(3) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص452-453.

فـــالقردُ جَـــلَّ مِثالـــهُ ووفـــاؤُهُ مـــن أن يكـــونَ لـــه الخـــؤونُ شَـــبيها!

أعَلِمـــتَ أنّـــكَ مثـــلُ أســـماكٍ لهـــا قـــاعُ المحـــيطِ مَبـــاءَةٌ وحيـــاةُ

فـــإذا سَـــمتْ ماتَـــتْ كـــأنَّ هوانَهـــا عَـــيْشٌ، وغايـــاتِ السُّـــمُوِّ مَمَـــاتُ؟!

خامسًا: مدرسة شعراء المهجر[1]

إحدى مدارس حركة التّجديد (التّغريب) في الشعر العربيّ، التي ظهرت في بداية (العقد الخامس من القرن الرابع عشر الهجريّ/ العقد الثاني من القرن العشرين الميلاديّ)، بتأثير من شعراء مدرسة الدّيوان في مصر، ودعوتهم التغريبيّة (التجديديّة)، القائمة على الدّعوة للمذهب الرومانسيّ الابتداعيّ، وهدم ما أسموه المذهب الكلاسيكيّ الإتباعيّ، مُمَثّلًا في مدرسة الشعر العربيّ الأصيل (الإحيائيين أو البعثيين) الّذين قادهم: محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإبراهيم طوقان، وسليم أبو الإقبال اليعقوبيّ، وإبراهيم الدّباغ، وعبد الرحيم محمود، ويوسف النبهاني، وبدر الدّين النعسانيّ، وبدر الدّين الحامد، وشكيب أرسلان، وعمر أبو ريشة، وعبد المحسن الكاظمي، وجميل صدقي الزّهاويّ، ومحمد سعيد الحبوبي، ومحمد علّال الفاسي، ومحمد الجزولي، وخالد الفرج، وسعيد المسعودي، وسليمان الباروني، وفؤاد الخطيب، ومحمد سعيد العباسي، وعبد الله البنا، ومحمد العيد خليفة، ومفدى زكريا، والمختار بن حامد الديماني، وصالح الحامد وغيرهم مئات بل آلاف الشعراء ممّن ساروا على مذهب الشعر العربيّ الأصيل، الذين حرص أصحاب المذاهب التغريبيّة على عدم ذكرهم، والاكتفاء بذكر البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم .

بعد مُضيِّ عقد على بداية ظهور مدرسة المهجر، أي في (أوائل العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجريّ / العقد الثالث من القرن العشرين الميلاديّ)، علا صوت شعراء هذه المدرسة، وذاع صيتهم في أنحاء العالم بعامة، والعالم العربي

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر،ص17-45؛ محمد خفاجي، حركات الشعر،ص171؛ قصة الأدب المهجريّ،ص71؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة،ص38؛ محمد هدارة، دراسات في الأدب،ص32؛ عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،ص324؛فواز طوقان، أسرار تأسيس الرابطة، ص25.

بخاصة، وذلك من خلال تشكيلهم جمعيات، ونشرهم صحف ومجلّات؛ يلتقون فيها، وينشرون أدبهم وآراءهم فيها. و قد عُرف أدبهم بأدب المهجر.

ويُقصد بأدب المهجر: الأدب الذي أنتجه الأدباء العرب؛ شعرًا ونثرًا، الذين هاجروا من بلاد الشام بعامة؛ وسوريا ولبنان بخاصة إلى أمريكا الشماليّة، والوسطى، والجنوبيّة.

وقد بدأت هجرة أهل الشام بعامة، والأدباء منهم بخاصة إلى أمريكا في أواخر القرن الثالث عشر الهجريّ/ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، واستمرّ حتى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجريّ/بداية النصف الأول من القرن العشرين، حيث أخذ جدول أدب هؤلاء الأدباء في الجفاف، ثم توقف عن التأثير، والجريان لرفد نهر الأدب العربي الكبير.

وقد ذهب بعض الدارسين إلى تشبيه هذا الأدب بالأدب العربي في الأندلس، بجامع البيئة الجديدة التي نشأ فيها، والأثر الذي تركه في حياة الأدب العربيّ[1]. والحقيقة أنّ وجه الشبه بسيط لا يكاد يُذكر، وهناك مناطق كثيرة هاجر إليها الأدب العربيّ، وأثّر فيها منذ هاجر إليها في بداية (القرن الأول الهجريّ/ السابع الميلاديّ)، وحتى يومنا هذا (القرن الخامس عشر الهجريّ/ الحادي والعشرين الميلاديّ)، ويتمثل ذلك في هجرته المشرقيّة، حيث آثاره لا تزال ماثلة في الآداب الفارسيّة، والتركيّة، والهنديّة.

أما الأدب المهجريّ، فمدّته لا تزيد عن قرن من الزمن، وأدبه انصبّ على اتجاه محدّد، وهو يكاد ينحصر في العنصر الأقل تأثيرًا في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وهو العنصر المسيحيّ، كما أنّه حاول نقل مظاهر الحضارة الغربيّة المسيحيّة للحضارة العربيّة الإسلاميّة، خدمة للتبشير المسيحيّ، والاستعمار المسيحيّ في العالم الإسلاميّ؛ ولذلك لا أحد يذكره إلّا في بلاد الشام ومصر من خلال بعض المناهج الدراسيّة. أما الأدب الأندلسيّ، فهو وليد العرب والمسلمين، وامتدّ ثمانية قرون ونيّف، وآثاره لا تزال قائمة، وستبقى في كلّ مناحي الثقافة العربيّة الإسلاميّة بعامة، وفي الأدب العربيّ منها بخاصة، وذلك على الرّغم من قيام الكنيسة الكاثوليكيّة الإسبانيّة بحملات تنصير شاملة للمسلمين، ومحو كلّ ما استطاعت من آثار الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

1- أسباب الهجرة إلى أمريكا

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص173-175؛ مارون عبود، مجددون ومجترون، ص155.

هناك أسباب عديدة دفعت أهل الشام بعامة، والنّصارى منهم بخاصة إلى الهجرة من بلادهم إلى أمريكا منذ (أواخر القرن الثالث عشر الهجريّ/منتصف القرن التاسع عشر)، وتتمثل هذه الأسباب في[1]:

1. حرمان أهالي جبل لبنان–وفق النظام الخاص، الذي شَرّعته له بريطانيا وفرنسا بالضغوط المتواصلة على الدولة العثمانيّة، حماية للنّصارى- من السهول الصالحة للزراعة، ومن ارتياد البواخر التجاريّة ساحله، فيما كانت ترسوا في موانئ: بيروت، وطرابلس، وصيدا وغيرها، وهذا الحرمان أدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية في أوساط أهالي جبل لبنان النّصارى، فسعوا إلى الهجرة بكلّ السّبل الممكنة من أجل تحسين أوضاعهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة. قال يوسف الحكيم: "وكانَ اللبنانيون أسبق إخوانهم السّوريين في هذا المضمار، نظرًا لحرمان جبلهم من السّهول الصّالحة للزّراعة، ومن ارتياد البواخر ساحله بمقتضى نظامه الخاص"[2]

وقد عبّر عن ذلك إيليا أبو ماضي، فهو يحنّ إلى وطنه، ويتمنى العودة إليه، لكنّ خوفه من عودة الفقر الّذي كانَ سبب هجرته، يمنعه من العودة، قال[3]:

أرومُ إلى رُبى لبنان عودًا فيمنعني عن العودِ افتقارُ

ولو خُيّرتُ لم أهجُر بلادي ولكن ليس في العيشِ اختيارُ

2. تمكن كثير من المهاجرين من الثّراء والحصول على ثروات كثيرة، فقاموا بتحويل بعضها إلى ذويهم في جبل لبنان، الّذين بدأوا بإعمار أراضيهم، وزرعوها بأشجار الزيتون، وأنواع الفواكه، وبنوا البيوت الفاخرة، فأوحى ذلك الثراء في جبل لبنان إلى أهالي القرى المجاورة بالهجرة على خطى

(1) انظر: أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبيّة، 68/2؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص13-25. وقد وضع إحصاء لعدد المهاجرين العرب إلى دول القارات الأمريكية، وأستراليا، ونيوزلندا حيث قُدّر عددهم بأكثر من مليوني مواطن. كما فصّل في موجات الهجرة من كلّ من سوريا ولبنان؛ يوسف الحكيم، سوريا والعهدالعثماني،ص240؛يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية،473/2و527و531و584وغيرها؛عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82؛ إيليا أبو ماضي، ديوانه: دراسة عن إيليا شاعر المهجر الأكبر، ص17؛محمدقوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة،ص38.

(2) يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص240؛ إيليا أبو ماضي، ديوانه: دراسة عن إيليا شاعر المهجر الأكبر، ص19.

(3) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82.

أهالي الجبل. وذلك على الرغم من كلّ الصعوبات التي كانوا يلاقونها من الدولة العثمانيّة، التي كانت تمنع الهجرة؛ لحاجتها للشباب في: فلاحة الأرض، والخدمة العسكرية. قال يوسف الحكيم: "ممّا أوحى فكرة الهجرة التي اتّبعوها إلى أهل القرى المجاورة لجبل لبنان، رغم الصعوبات التي كانوا يُلاقونها من رجال الحكومة، بناء على الأوامر الصادرة من العاصمة، ولعلّ أهم موجباتها هي حاجة البلاد العثمانيّة والسُّوريّة منها خاصة إلى الأيدي العاملة لاستغلال الأراضي الواسعة، وضرورة قيام أبنائها بالخدمة العسكرية المفروضة عليهم"[1].

3. التعصّب الدينيّ عند بعض الطوائف المسيحيّة الشرقيّة، والخلاف بينها وبين الإرساليات التبشيريّة المسيحيّة الكاثوليكيّة، والبروتستانتيّة المدعومة من الدول الأوروبية وأمريكا، حيث كانت هذه تعمل على تحويل نصارى الشرق إلى مذاهبها، ومن ذلك قيام بطريرك الموارنة في لبنان باعتقال أسعد الشّدياق بسبب تحوّله إلى البروتستانتية، حيث قام البطريرك بتعذيبه حتى الموت، وذلك كان سببًا في هجرة شقيقه أحمد فارس الشدياق، ثم تحوّله إلى الإسلام، كما أنّ القس السرياني لويس صابونجي هاجر إلى أوروبا، ثم أمريكا بسبب خلافه مع الموارنة حيث ألف رسالة بعنوان" النّحلة الفتيّة" جعلها في الطعن بالطائفة المارونيّة[2].

4. تشجيع الدول الأوروبيّة للنصارى في بلاد الشام، والأقليات الأخرى الذين درسوا في مدارس الإرساليات التبشيرية أو في الغرب، وأتقنوا لغاته على الهجرة إليها، أو البلاد التي احتلتها للعمل لديها بوظيفة مترجم، أو عميل لنشر ثقافته، وعاداته وتقاليده، والمساهمة في تغيير المجتمع المسلم تحقيقًا للأهداف الاستعمارية، وقد أكّد أكثر من دارس للأدب هذا الأمر، ومن أهم هؤلاء مارون عبود، إذ قال: "أجل كانَ اللبناني رسول ثقافة بين الشرق والغرب، فأنشأ في سفوح جبله، وعلى قممه مدارس تُعلّم لغات الغرب على حقّها... وكانَ الذين تعلّموا في تلك المدارس تراجمة الأجنبيّ حين جاء مصر غازيًّا، ثم انكفأ عنها بعدما ألقى فيها بذور علمه ومدنيته"[3].

---

(1) يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص240.
(2) انظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 2/473و527.
(3) مارون عبود، الرؤوس، ص286.

وهذا ما يقوم به كثيرون من هؤلاء مع أمريكا، وأوروبا، وروسيّا في غزوهم الجديد للوطن العربيّ والإسلاميّ بعد قرن ونيف من الزمن، حيث بدأ غزوها الجديد باحتلال أفغانستان سنة (2001/1431)، ثم العراق، ثم سوريا، ثم ليبيا.

5. الرّغبة في الثراء، وبخاصة عندما اتصل النّصارى العرب، والمسلمون من أبناء العائلات المتنفّذة بالأوروبيين في مدارس الإرساليات التبشيريّة، حيث عرفوا الكثير عن العالم الجديد، والفرص المتاحة فيه، كما أنّ بعضهم سافر إلى أوروبا، فزادت معرفته عن العالم الجديد، وفرص العمل والثراء فيه، لذلك فقد كانَ طلب المال والثّراء عاملًا مهمًّا من عوامل الهجرة.

6. تدهور الأوضاع السياسيّة في بلاد الشام، جرّاء الفتن الدّينيّة، والمذهبيّة، والعرقية الّتي أثارها قناصل الدول المسيحيّة الأوروبيّة، والولايات المتحدة، وروسيا القيصرية بالتعاون مع المبشرين ومدارس الإرساليات التبشيريّة، والمستشرقين، وذلك لزيادة تدخّل تلك الدول في شؤون الدولة العثمانيّة، والحصول على مزيد من الامتيازات. ولاستغلال بعض هؤلاء المهاجرين في الإساءة للدولة العثمانيّة، والحطّ من شأنها، وبناءً على ذلك وجدنا كثيرًا من هؤلاء المهاجرين قد أنشأوا صحفًا ومجلّات بمساعدة حكومات الدول الاستعمارية المسيحيّة، وفتحوا صفحاتها للطعن في الدول العثمانيّة، والدّعوة إلى توفير الحماية للنّصارى، والأقليات العرقيّة والمذهبيّة في الدولة العثمانيّة بحجة حرية التعبير، والدّين، وحماية ما تُسمّيه حقوق الإنسان، فظهر هؤلاء وكأنّهم يعيشون في واحة من الحرية فيما هم يُمارسون الخيانة العظمى لوطنهم، ويُقدّمون خدمات جليلة للدول الاستعمارية بجامع الدّين، أو المصلحة الشخصيّة.

7. حبّ المسلمين بعامة، وأهل الشام بخاصة للرّحلة، والسياحة في الأرض، فمنذ الفتح الإسلاميّ في (القرن الأول الهجريّ/ السابع الميلاديّ)، شكّل أهل الشام جزءًا مهمًا من حملات الفتوحات الإسلاميّة في كلّ الاتجاهات، ومع دخول الشام في إطار الدولة العثمانية، وزيادة مساحة رقعة دولة الخلافة العثمانية زاد سفر أهل الشام إلى كلّ المناطق، حتى إن أغلب علماء الشام الذين ظهروا في حقبة الدّولة العثمانية ألفوا رحلات إلى المناطق الّتي زاروها. وكثير من هذه الرحلات ما زالت مخطوطة.

ولذلك لمّا عرف أهل الشام العالم الجديد، هاجر قسم منهم حبًّا في المغامرة، ورغبة في بناء حياة جديدة، أو في جمع المال والثروة مع المحافظة على الثقافة، والتراث، والدّين.

8. سهولة الهجرة إلى أمريكا؛ إذ لم تكن الولايات المتحدة، ودول أمريكا الجنوبية تفرض أية شروط صعبة، أو قيود على الهجرة إليها، والعيش فيها، كما أنّ تلك الدول لم تكن تضع أية قيود على الأعمال الّتي يقوم بها هؤلاء المهاجرون.

9. تشجيع إمبراطور البرازيل اللبنانيين على الهجرة إلى بلاده، وتسهيل حياتهم في بلاده؛ فعندما زار الإمبراطور البرازيلي "إلدون بدرو الثاني" لبنان، استقبله اللّبنانيون بحفاوة، فأُعجب بهم، وبحيويّتهم، وأبدى رغبته في أن يُهاجر إلى بلاده عدد منهم، مع الوعد بتقديم كلّ مساعدة ممكنة لهم. ويُروى عن هذا الإمبراطور أنه التقى بلبنانيين اثنين في "سان باولو"، فلمّا لم يستطعا إجابته؛ لعدم معرفتهما باللّغة البرتغالية، وحداثة عهدهما في البلاد، منحهما بطاقته الشّخصية، وطلب منهما مقابلته في القصر، فلمّا ذهبا إليه أحسن استقبالهما، ووفّر لهما عملًا، ومنحهما مبلغًا من المال.

10. قيام سلطات الاحتلال البريطاني في مصر سنة (1300/ 1882) زمن ثورة أحمد عرابي، بتوجيه إنذار إلى بعض اللبنانيين والسوريين المهاجرين إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن المصريّة بضرورة مغادرة مصر إلى أمريكا وأستراليا، فكانت هذه أول هجرة شبه جماعية إلى العالم الجديد. وذلك من أجل خدمتها في تلك البلدان بوسائل متنوّعة، وأهم الأعمال التي قاموا بها هي: الترجمة في الجيش المحتل، وفي القنصليات البريطانيّة للتعامل مع العرب والمسلمين، وتجنيدهم لصالح الدول المستعمرة. فقد ذكر يوسف الحكيم أن قنصليات معظم الدول الأوروبيّة وروسيّا في طرابلس الشّام – عندما كانَ هو نائبًا عامًا في المدينة - كانت بعهدة آل كاتفليس قال: "فأحدهم جورج هو قنصل روسيا، وشارلو قنصل إيطاليا، وجواني قنصل النمسا، وابنه رودولف قنصل بلجيكا بالإضافة إلى قنصلية النمسا التي عُهد بها إليه بعد وفاة والده، وكان كلّ منهم يقوم بواجباته نحو الدولة التي يُمثّلها... وكانَ لديهم تراجمة فخريّون من كِرام الطرابلسيين؛ بشارة كرم في القنصلية الروسيّة، ومحمد البابا في القنصلية الإيطالية، ووديع طربيه وجورج صعب في القنصلية الفرنسيّة"[1].

11. تشجيع الناجحين من المهاجرين ذويهم، وأقاربهم ومعارفهم على اللّحاق بهم، وتقديم الخدمات الأولى لهم في المهجر.

(1) يوسف الحكيم ، سوريا والعهد العثماني، ص236.وانظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية،342/2، حيث ذكر أن جرجي زيدان عمل مترجمًا للجيش البريطاني الذي احتل السودان.

12. تشجيع بعض الحجّاج المسيحيين من أوروبا–الذين كانوا يشترون المصنوعات الفلسطينية-بعض الفلسطينيين المهرة في الصناعة على الاتجار بمصنوعاتهم في أوروبا وأمريكا، وبخاصة أنّها تأتي من بلاد مقدّسة (فلسطين).

13. قيام أغنياء التجار في بعض موانئ بلاد الشام بعامة، وفي ميناء بيروت بخاصة، وبالتعاون مع سماسرة في تلك المدن بتشجيع النّاس على الهجرة، رغبة في الحصول على أموال المهاجرين، حيث كانوا يستغلونهم أبشع استغلال. قال يوسف الحكيم: "قام سماسرة من الشّجعان ذوي النّفوذ والخبرة بمهمة تسهيل أمر السّفر لمن أراد الهجرة، وإيصالهم ليلاً إلى البواخر، التي تنتظرهم في عرض البحر، بواسطة بَحارة أُطلق عليهم اسم مهرّبين؛ وذلك لقاء مبلغٍ من المال من كلّ مسافر"[1]. وهذا كانَ يتم كما يقول يوسف الحكيم في أول الأمر باتفاقات سريّة بين المهرّبين، وبعض موظفي وقادة الأمن، وخفر السواحل الشاميّة، كما أنّه كان يتم بالاتفاق مع قادة السفن الحربيّة البريطانيّة والفرنسيّة، التي كانت تُراقب سواحل الشام. ويؤيّد ذلك ما نقله عيسى الناعوري عن يعقوب ضعّون حول منع الدولة العثمانية الهجرة، وتعامل المُهرِّبين بها بالاتفاق مع الدول الغربيّة المسيحيّة، قال: " إنّ الهجرة في زمن العثمانيين كانت محظورة رسميًّا، ومُباحة عمليًّا بواسطة المهرّبين، حيث يصل المسافر إلى جنوة، أو مرسيليا، وهناك يستلمه سمسار جديد، ويُنزله في خان[فندق] قذر! ولا يحمله إلى باخرة تنقله إلى أمريكا إلّا حينما يُفرغ جيبه من الفلس الأخير"[2]

وهذا التهريب لا يختلف عمّا يجري من تهريب المواطنين من العالم العربيّ وأفريقيا إلى أوروبا عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط منذ (بداية العقد الثالث من القرن الخامس عشر الهجريّ/ العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين) أي بعد قرن كامل، حيث تتم عمليات التهريب باتفاقات ورشاوٍ بين المهرّبين، وخفر السواحل، وموظفي الجمارك في البلدان العربيّة المُشاطئة للبحر الأبيض المتوسط، وبين قيادات في الأساطيل الغربيّة المسيحيّة الموجودة في البحر الأبيض المتوسط.

14. تشجيع الدول الأوروبيّة للدّروز، والنّصيريّة، والإسماعيليّة، والنصارى اللاتين والروم على العصيان والتمرّد على الدولة العثمانية، وبالتالي توفير

(1) يوسف الحكيم ، سوريا والعهد العثمانيّ، ص24.
(2) محمد خفاجي، قصة الأدب الهجريّ، ص18.

الحمايـة لهـم فـي بلـدانها عنـدما تـتمكن الدولـة العثمانيّـة مـن القضـاء علـى تمـرّدهم، أو اكتشـاف مخطّطـاتهم الهدامـة كمـا حصـل فـي تمـرّد النصـيرية، والإسـماعيلية، والفتنـة بـين الـدروز والموارنـة وغيرهـا مـن الأحـداث الّتـي استغلّتها الدول الأوروبيّة للتدخل في شؤون الدولة العثمانيّة.

15. خيانة بعض النصارى ممّن كانوا يعملون موظفين في سلك الدّولـة العثمانيّـة الإسـلاميّة، الأمانـة الوظيفيّـة، وتعرّضـهم للاعتقـال، والمحاكمـة بسـبب مـا ارتكبوه من جرائم، والحكم عليهم بالسجن، فكانوا يهربون إلـى خـارج البلاد العثمانيّة بمساعدة القناصل الأجانب، أو تقوم عـائلاتهم بـالهجرة، كمـا حصـل مـع عائلـة خليـل جبـران، الـذي كـان يعمـل مُحصّلًا للرسـوم التـي تُجبـى عـن المواشـي فـي منطقـة "جـرود" شـمالي لبنـان، وتـمّ اعتقالـه ومحاكمتـه، ثـم مصادرة أمواله وسجنه؛ لقيامه باختلاس وسرقة الرسوم التي كـان يُحصّلها، فقامـت عائلتـه المكوّنـة مـن: زوجـه، وأولاده الأربعـة ومـنهم ابنـه جبـران بـالهجرة إلـى أمريكـا: "لـم ينعم جبـران طويلًـا فـي حداثتـه...لأنّ الأب اتُّهـم باختلاس ما كان يجبيه من الرسوم، وسُجن، وحُجزت أملاكـه، فمـا كـان مـن الأمّ إلّا أن غادرت الوطن، ومعها أولادها الأربعـة قاصـدة الولايـات المتحدة الأمريكيّـة، حيـث نزلـت فـي حـي الصّـينيين فـي بوسـطن، وكـان ذلـك سـنة(1895)". [أي1312هجريّـة]" [(1)].كمـا أنّ الشـاعر والصـحفي رزق الله حسون، الحلبي المولد، والأرمنيّ الأصل، عمل في الجمارك حتى ترقّى إلـى نظـارة (إدارة)جمـارك الـدّخان، وقرّبـه فـؤاد باشـا الصـدر الأعظم(رئـيس الـوزراء) إليـه، لكنـه اختلس أمـوال الجمـارك، فاعتقل وحكم بالسـجن؛ لكنّـه هرب إلى روسيا القيصرية، ومدحها وحثها على احتلال إستانبول عاصمة الخلافة، ثم هاجر إلى بريطانيا، وسخَّر قلمه مع مجموعة من أمثالـه لمعـاداة الدولة العثمانية، والطعن بها، ووصل به الأمر إلـى تـأليف كتـاب فـي الطعن بالدّين الإسلامي بعنوان"حسر اللثام عن الإسلام". وقد أكد سرقته الشـاعر والأديب أحمد فـار الشدياق؛ إذ قـال عنـدما عرّض بـه فـي كتابـه " النفثـات": "كان حسّون لصًّا وله سرقات، فأصبح صلًّا وله نفثات"[(2)]. وعلى الرغم من هذه العداوة التي مارسها رزق الله حسون للدّولـة العثمانيّـة الإسـلاميّة إلّـا أنّنـا نرى أكثر دارسي الأدب العربـي يعدّونـه مُصلحًا، ومـن كبـار أحـرار الأمـة،

(1) أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران،ص12.
(2) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، 162/2. والصّل: الحيّة التي تقتل إذا نهشت من ساعتها. انظر: لسان العرب: مادة صلل.

وصاحب دور مهم في نهضة الأدب، فيما هو ليس أكثر من خائن للأمة، ودينها، وتاريخها، وحضارتها، وخادم للاستعمار الأوروبي، والروسيّ[1].

16. الفرار من الخدمة العسكرية الإلزاميّة في الجيش العثماني، فبعد صدور التنظيمات العثمانيّة أصبح التجنيد يشمل رعايا الدولة غير المسلمين، ولمّا اشتدّت حروب الدول الأوروبيّة وروسيّا القيصرية على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة فرضت الدولة الخدمة العسكرية الإلزامية على الشباب، فكانَ كثيرون من نصارى الشام، والشيعة يتهرّبون من أداء الخدمة بالهجرة؛ نصارى الشام وشيعته يُهاجرون إلى القارات الأمريكيّة، والشيعة في العراق يهاجرون إلى إيران ويدّعون أنهم فرس، حتى روى محمد القزويني قصة مُضحكة حول تهرّب شيعة العراق من الخدمة العسكرية في الجيش العثمانيّ، فقد قام عدد من شيعة مدينة الحلّة بالحصول على الجنسيّة الإيرانية، للتخلّص من الخدمة العسكرية في الجيش العثمانيّ، ولكي يبعدوا التهمة عنهم، خرجوا في موكب أسموه "موكب الإيرانيين" بمناسبة ذكرى عاشوراء، إثباتًا لفارسيّتهم. وقاد الموكب رجل اسمه " قاسم" لم يكن يعرف لا هو، ولا مَنْ يسير معه في الموكب شيئًا من اللّغة الفارسيّة، فكتب بعض الردّات المطعّمة بالنكهة الفارسيّة؛ ليردّدها أصحابه في موكبهم، ويُثبتوا أنهم فرس، وليسوا عربًا، وممّا نظمه، قوله[2]:

اليـــــــوم عاشـــــــوراس يـــــا معشـــــر العـــــدواس

فلما وصل الموكب بيت الشيخ محمد القزويني، وهو من كبار الشيعة، كما هي عادة المواكب العاشورائيّة، خمّس الشيخ محمد القزويني له الردّة، بقوله:

اليـــــوم قاســـــم قاســـــي يمشـــــي بـــــلا مـــــداس

يصـــــرخُ بـــــين النّـــــاس اليـــــوم عاشـــــوراس

يا معشر العدواس

(1) انظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية،315/2.
(2) انظر: محمد القزويني، طروس الإنشاء، ص61؛ يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص241.

2- بدايات الهجرة[1]

أول مَنْ بدأ الهجرة من بلاد الشام، هم أهل فلسطين؛ إذ كانوا يزورون البلدان الأوروبية المطلّة على البحر الأبيض المتوسط لبيع ما يصنعونه من: مسابح، وأيقونات، وتعاويذ، ثم سافروا إلى معرض شيكاغو سنة (1893/1311)، وحقّقوا أرباحًا كثيرة، فمكث بعضهم في الولايات المتحدة، ثم انتشروا في دول أمريكا الجنوبية والوسطى، وقد كثروا في أمريكا الوسطى، وفي جمهورية تشيلي حيث يعملون بكثرة في التجارة والصناعة.

ثم كانت هجرة اللبنانيين الذين رافقوا يوسف كرم إلى منفاه في إيطاليا، فلمّا توفي فضّلوا الهجرة إلى أمريكا الجنوبية على العودة إلى وطنهم لبنان.

والهجرة الجماعية الأولى كانت هجرة اللبنانيين والسوريين الذين طردهم الاحتلال البريطاني من القاهرة والإسكندرية، حيث أنذرتهم سلطات الاحتلال البريطاني بالهجرة إلى أمريكا وأستراليا. ثمّ تتالت الهجرات؛ فردية وجماعية إلى العالم الجديد حتى (العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجريّ / العقد التاسع من القرن العشرين الميلاديّ)، حيث أخذت دول بلدان الهجرة تفرض قيودًا صارمة على الدخول إليها، فقلّت أعداد المهاجرين بشكل كبير.

ويقال إن أول مهاجر عربي إلى أمريكا الشمالية هو اللبناني أنطون البشعلاني الذي أقام في نيويورك سنة (1854/1271)، وبقي فيها حتى توفي.

على الرّغم من سهولة الهجرة، وعدم وجود عوائق كبيرة أمام المهاجرين في البلدان الّتي هاجروا إليها، واستقرّوا فيها، إلّا أنّ أكثر المهاجرين عانوا كثيرًا في بداية حياتهم، وكانت معاناتهم مادية، وروحية؛ روحية من حيث شعورهم بالاغتراب في المجتمعات الّتي حلّوا فيها، سواء أكان ذلك في اللّغة، أم العادات والتقاليد، أم المناسبات الاجتماعية، أم الملابس، والطعام والشّراب، ومن خلال الحنين إلى الأهل، والأحبّة، والأصدقاء، ومواطن الذكريات، والقرى، والبلدات، والمدن، الّتي درجوا فيها منذ قدومهم إلى هذه الحياة، بل إلى الوطن الأول بكل ما فيه من طبيعة دنيا وعليا (الأرض والسماء). ومعاناة مادية من حيث البحث عن الأعمال المناسبة، وبناء الحياة الجديدة، فعمل أغلب المهاجرين في كلّ أنواع الأعمال، من: زراعة، وتجارة، ووظائف مختلفة، حتّى أنّ بعضهم التحق بجيوش البلدان الّتي هاجروا إليها، فعملوا بها مرتزقة.

(1) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص20-25.

وقد عبَّر بعض الشعراء المغتربين عن قسوة الحياة الّتي عاشوها في بداية الهجرة، من أجل تحقيق أحلامهم في بناء حياة أفضل في المهجر، ومن هؤلاء الشاعر مسعود سماحة الذي مارس أعمالاً كثيرة –من تلك التي تسمى الأعمال الحقيرة-قبل أن يصبح ضابطًا كبيرًا في الجيش الأمريكي، قال[1]:

كم طويتُ القِفارَ مشيًا وحملي ... فوق ظهري ويكاد يقصم ظهري؟

كم قرعتُ الأبوابَ غيرَ مُبالٍ ... بكلال، وقرٍّ فصلٍ، وحرٍّ؟

كم توغّلتُ في البراري وقلبي ... سابح مثل زورقٍ في نهر؟

كم تعرَّضتُ للعواصفِ حتّى ... خلت أنّ الثلوجَ في القفر قبري؟

كم توسّدتُ صخرةً وذراعي ... تحت رأسي، وخنجري فوق صدري؟

فالشاعر هنا يشكو بحرقة، وحسرة ما عاناه في المهجر، فهو عمل عتّالًا، وكانَ يبحث عن عمل بذل وهوان، صيفًا وشتاء، ما جعله في كثير من الأوقات يهيم على وجهه في الغابات هربًا من حياة الذل والهوان؛ فينام وهو يفترش الأرض، ويلتحف السماء، وهو غير آمن على نفسه من فساد المجتمع وعصاباته؛ لذلك كانَ يحمل خنجرًا، أو غيره ممّا يعتقد أنه به يستطيع الدّفاع عن نفسه إذا ما فاجأه مُعتدٍ.

ولكنَّ صَبْرَ أغلب المهاجرين على قسوة الحياة، ومتاعبها، وإصرارهم على النجاح، مع حسن أخلاقهم، وإتقانهم أعمالهم، وصدق معاملاتهم مكّنت كثيرين منهم من النّجاح في بناء حياتهم الجديدة، والتقدّم بحيث أصبح بعضهم من أثرياء البلدان الّتي هاجروا إليها، كما أنّ مناطق كاملة في بعض المدن صُبغت بالصبغة العربيّة، وظهر منهم علماء ومُخترعون، وصُناع، وتجار، ومؤلّفون كثر.

وقد ألف بعض المهاجرين كتبًا تحدّثوا فيها عن حياة المهاجرين؛ قسوتها، ونجاحها، ومن هؤلاء عبد اللطيف اليونس، الّذي ألف كتابًا بعنوان "المغتربون" ذكر فيه بعض أحوال المغتربين، ومنه قوله يصف قسوة الحياة، والمصاعب الّتي واجهها كثيرون، حتى عدّ حياتهم بالجهاد، قال: "لا يستطيع كاتب، مهما أوتي من قوة البلاغة أن يُصوّر تلك الفترة القاسية الّتي مرّت على المغتربين، في المراحل الأولى من اغترابهم، ومَهَرت حياتهم بنضال دونه قدرة الإنسان العادي، وطبعته بطابع الكفاح

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص49.

البطوليّ، والجهاد في سبيل وضع أفضل، وعيش أجمل، وحال أكمل، وقد كانَ شعار كلّ منهم، قول "بدوي الجبل":

والعـــــيشُ معنـــــاه الكفـــــاح فهالِـــــكٌ مَـــــنْ لا يُكـــــافح "[1]

وذكر يعقوب ضعّون في كتابه "ذكرى الهجرة" بعض معاناة المهاجرين، وتلاعب السماسرة والمهرّبين بهم حتى كانوا يسلبونهم كلّ أموالهم قبل وصولهم إلى مقصدهم فقال: "إن الهجرة في زمن العثمانيين كانت محظورة رسميًا، ومُباحة عمليًا بواسطة المهرّبين، حيث يصل المسافر إلى جنوة أو مرسيليا، وهناك يستلمه سمسار جديد، ويُنزله في خان [فندق] قذر، ولا يحمله إلى باخرة تنقله إلى أمريكا إلّا حينما يفرغ جيبه من الفلس الأخير، وفي تلك الباخرة يلتقي بأمثاله الذين قضى عليهم القدر بالاغتراب، وكانَ أسعدهم حظًا مَنْ يجد على المرفأ إنسانًا ينتظره، أو إنسانًا يتكلّم العربيّة، فيأنس به، أو يعرف عنوانًا لنسيب أو صديق، أو يحمل كتاب توصية يؤمّن له الطعام والمأوى في الليلة الأولى، ومَنْ لم تتوفّر له إحدى هذه الوسائل يكون فراشه رصيف الشارع، وطعامه الكسرة الباقية من زاد المسافر في جعبته"[2].

وقد أحسن وصف حال المهاجرين، وكفاحهم الشاعر شفيق المعلوف، قال[3]:

دُرْ مـعَ الـدّهرِ خلـفَ شَـعبٍ شـرود مُلْكُنـا الضّـخمُ حـولَ كُـلّ الحـدود

يـومَ سَـدُّوا عليـه للـرّزقِ بابًـا شـقَّ بـالمنكبينِ بـابَ الخُلـود

وقد استطاع كثير من المهاجرين التغلّب على الصعوبات التي واجهوها في حياتهم، وسجلوا نجاحًا في ميادين الحياة المختلفة، وقد ذكر عبد اللطيف اليونس في كتابه "المغتربون" أن المدن والأرياف المهجريّة شاهدة على ذلك النجاح، قال: "امتلأت المدن والأرياف بأصحاب الأعمال الناجحة من المغتربين، فشيّدوا المعامل، وأنشأوا المزارع، وأسّسوا الشركات والبنوك، وسيطروا في كثير من المدن على مجالات العمل والانتاج، حتى إنك تمرُّ بشارع واسع في مدينة "سان باولو"، وهي

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري ، ص17-18.
(2) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص18.
(3) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص23.

المدينة الصناعية الأولى في البرازيل، بل وفي أمريكا الجنوبية كلّها، فلا تجد متجرًا لغير عربيّ، وذلك فضلًا عن متاجر عربيّة كثيرة منتشرة في أكثر أحياء المدينة"[1].

وقال يعقوب ضعّون في كتابه "ذكرى الهجرة": "إنّه زار مدينة في جمهورية "تشيلي" تدعى "إليابل" وقد استلفت نظره شارعها الرئيس الذي يخترقها من الشمال إلى الجنوب، وقد انتظمت المخازن العربيّة للفلسطينيين واللبنانيين على جانبيه"[2].

وقد تحدّث دارسون كثر عن قصص نجاح رائعة، سجّلها المغتربون العرب في المهجر، في مجالات الحياة المختلفة، لكنّ هؤلاء المغتربين مع مرور الزمن أخذوا في الانصهار والذوبان في المجتمعات الّتي هاجروا إليها، حتى أنّ أحفادهم، أو أبناء أحفادهم لم يعودوا يتكلمون العربيّة بسهولة، بل إنّ بعضهم يكاد لا يعرف له صلة بالعرب إلّا من خلال ما تبقى له من اسمه، أو أحد أسماء عائلته، وبعض الذكريات، وقد أشار إلى هذا المستقبل عبد اللطيف اليونس في كتابه "المغتربون"، فقال: "المغتربون يذوبون تدريجيًّا في المحيط الأجنبيّ، وينصهرون في بوتقته الجبّارة الرّهيبة، وهم لا يستطيعون بإمكانياتهم وحدها أن يُقاوموا تيار الزّمن، ولا أن يحولوا دون سيره المضطرد الحثيث؛ يتزوج المغترب، ويُنجب أطفالًا، يصبحون بحكم القوانين المرعية من أبناء البلاد الّتي وُلدوا فيها؛ يحملون جنسيتها، ويسجلون بين أفراد رعيّتها، وينشأ هؤلاء وهم يجهلون اللّغة العربيّة، وقد يكونون توّاقين لمعرفتها، وقد يكون آباؤهم أكثر توقًا منهم، وأكثر اهتمامًا ولكن لا الآباء يبذُلونَ جهدًا لتعليمهم اللّغة العربيّة، ولا الأبناء يعرفونَ الطّريق السّويّ"[3].

3- العوامل الّتي أسهمت في ظهور مدرسة شعراء المهجر

أدى تدفق المهاجرين إلى القارات الأمريكية الثلاث منذ (أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري / أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي)، إلى تشكيل جماعات عرقية عربيّة مترابطة في البلدان الّتي هاجروا إليها، حيث نقل هؤلاء معهم اللّغة العربيّة، والآداب العربيّة، والعادات، والتقاليد العربيّة، وكانَ من بين المهاجرين أدباء؛ شعراء وكتاب على حدّ سواء، فأنشأوا أدبًا جميلاً، نشروه في الصحف والمجلّات الّتي أسّسوها في مهاجرهم، أو في كتب تمّ طباعتها، وتوزيعها على المهاجرين، وفي أحيان كثيرة تم ترجمة بعضها إلى لغات البلدان الّتي هاجروا إليها، وقد عبّر هؤلاء الأدباء في أدبهم عن مشاعرهم، وأحاسيسهم، وعواطفهم، وتجاربهم الجديدة، كما سردوا في ذلك الأدب آثار غربتهم،

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري،ص44-45.
(2) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص45.
(3) محمد خفاجي ، قصة الأدب المهجريّ ، ص68.

وحنينهم للوطن، ووصفوا ما تعرّضوا له من عناء وشقاء، وتجارب مريرة ومثيرة في الغربة.

شكّل هذا الأدب ما عُرف بأدب المهجر، الذي أصبح مدرسة من المدارس الشعرية العربيّة الّتي ظهرت في مصر –غالبًا-مع بعض الامتداد إلى عدد من الدول العربيّة المختلفة، وقد عُني النّقاد والدّارسون الأكاديميون العرب بهذا الأدب، فنما وازدهر في (العقود الخامس والسادس والسابع من القرن الرابع عشر الهجريّ/ الثالث والرابع والخامس من القرن العشرين)، ثم أخذ يخفت تدريجيًّا، حتى لم يعد يذكر مع (العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجريّ/ نهاية القرن العشرين) تقريبًا.

لا شك في أنّ عوامل عديدة أسهمت في ظهور أدب المهجر، وبالتالي ما عرف بمدرسة شعراء المهجر، وقد اختلف الدارسون في تحديد تلك العوامل، الّتي يمكن إجمالها في الآتي[1]:

1. الشعور بحرية في التعبير أكثر ممّا كانَ مُتاحًا لهم في بلدانهم، وقد انخدع شعراء المهجر الشمالي، الذين زاروا، أو سكنوا مدينة نيويورك، بتمثال الحرّية، فظنوّها كاملة، ما دفعهم إلى تمجيد قيمة الحرّية في مهجرهم، فهذا الشاعر أمين الريحاني قال عندما شاهد تمثال الحرية: "متى تحوّلين وجهُك نحو الشّرق أيّتها الحرّية؟!، متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر، فيدور معه حول الأرض، ويضيء ظلمات كلّ شعب مظلوم؟ أيتأتى أن يرى المستقبل تمثالًا للحرية بجانب الأهرام؟ أيمكن أن نرى لك في بحر الرّوم مثيلاً؟ أممكن أن يُولد لك أخوات في الدّردنيل، وفي بحر الهند، وفي خليج الصين؟ أيّتها الحريّة: متى تدورين مع البدر حول الأرض لتنيري ظلمات الشعوب المقيّدة، والأمم المستعبدة؟"[2].

وهذا الشاعر رشيد أيوب، يقول[3]:

وحقّكِ يا حرّيةً قد عَشقتُها وأنفقتُ عُمري في هواها مُحاربا

لأنتِ مُنَى الدُّنيا وغاية سؤلها وأفضلُ شيء قد رأيتُ مُناسِبا

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص173؛ قصة الأدب المهجري، ص18؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص17.
(2) أمين الريحاني، من على جسر بروكلن: الريحانيات، ص51.
(3) عبدالله حمد، قضايا الشعر العربي، ص50.

2. تأثر شعراء المهجر بالثقافة الغربية بعامة، والأدب بخاصة، في الشكل والمضمون، وتأثُّر المهاجرين بسكان القارات الأمريكية ذوي الأعراق، والعادات والتقاليد، والقيم والأفكار المتنوّعة، وامتزاج كثيرين منهم بهؤلاء السكان حتى بالزّواج، وتكوين الأسر الجديدة، ما أدى إلى ظهور أدبهم المهجريّ الجديد، الذي جمع بين ملامح الشّرق والغرب.

3. محافظة أغلب شعراء المهجر على صلاتهم، وروابطهم مع وطنهم الأم، وأهلهم، وذويهم، ما جعلهم على تواصل دائم مع ما يحدث في أوطنهم من أحداث: سياسيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة؛ فانعكست تلك الأحداث بشكل، أو بآخر في أدبهم، شعرًا ونثرًا، وكانَ لها صدى متفاوتًا عند هذا الأديب، أو ذاك، بل إنّ بعض أدباء المهجر شاركوا في أحداث وطنهم بقدر استطاعتهم، ومثال ذلك: مشاركة الشعراء في الصراع الذي دار بين مؤيدي القومية، والجامعة الإسلاميّة (الخلافة العثمانية)، وإعلان الدستور العثماني، وانقلاب ضباط الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد الثاني وخلعه، والحرب العالمية الأولى، ومشاركة الدولة العثمانية الإسلاميّة فيها، وتحالف الشريف حسين بن علي مع بريطانيا والحلفاء ضد الدولة العثمانية، ونقض بريطانيا والحلفاء وعودهم للشريف حسين بن علي، شريف مكّة المكرّمة، وإصدار وعد بلفور، وما تبعه من أحداث، وتقاسم بريطانيا وفرنسا البلدان العربيّة في المشرق واحتلالها، ثم ما حدث من ثورات في أرجاء الوطن العربي ضد الاستعمار الأوروبيّ المسيحيّ بدءًا من المغرب العربي مُمثّلًا في ثورة الريف المغربي بقيادة محمد عبد الكريم الخطابي، ومرورًا بالثورات والجهاد المتتابع في كلّ من: الجزائر، وتونس، وطرابلس (ليبيا)، ومصر، والسودان، وبلاد الشام، والعراق وغيرها.

4. الشعور بالاغتراب في بلدان المهجر، والحنين إلى الوطن بكل ما فيه من طبيعة، وإنسان وحيوان، ما جعل أكثر الأدباء يتطلّعون باستمرار إلى وطنهم الأم، وقوميتهم والتغنّي بها، والشعور بفقدها، وذلك على الرغم من واقعهم المعيش الأفضل في مهجرهم؛ فهذا الشاعر شكر الله الجرّ، يتذكر وطنه لبنان، فيحنّ إلى طبيعته المفتقدة في مهجره، فيقول في طبيعته الدنيا، والعليا[1]:

حبّذا الأرز في الذّرى يتهادى كلّلت أنجم السّماء هضابه

(1) عبد الله حمد ، قضايا الشعر العربي ، ص50.

5. الصدمة التي أصابت عددًا منهم، بعد سنوات من حياتهم في المهجر، أمضوها في غفلة من التفكير في مصيرهم؛ فقد وجد هؤلاء أنفسهم في خضم مجتمع ماديّ، يُمارس في تفاصيل الحياة تمييزًا عنصريًا بغيضًا على أساس: العرق، واللّغة، واللّون، والدّين وغيرها، فانعكس ذلك حيرةً، وقلقًا في حياة الأدباء، الذين شعروا بفقد القيم والمثل العليا التي حملوها من وطنهم في عقولهم، وقلوبهم، وكانت لا تزال تنمو بسبب تواصلهم المستمر مع وطنهم ومجتمعهم، ففرّوا إلى الطبيعة؛ يُناجونها، ويصفونها، لعلّهم يستطيعون تخفيف آثار الصدمة الحضارية التي أصابتهم، يقول إيليا أبو ماضي[1]:

نسيَ الطينُ ساعةً أنّه طي نٌ حقيرٌ فصالَ تيهًا وعَرْ بَدْ

وكَسَا الخزُّ جسمَهُ فتباهى وحوى المالَ كيسَهُ فتمَرّدْ

6. تأثر شعراء المهجر بالحركات الفكرية، والثقافية التي ظهرت في الوطن العربي، وأثارت جدلاً كبيرًا بين أوساط المثقفين، فهزّت قناعات فئات واسعة، وقد شارك بعض شعراء المهجر في هذه الحركات، وذلك الجدل، وتأثروا به، وانعكس في شعرهم، ومن ذلك: ما أثاره مصطفى عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" حيث نفى أن يكون نظام الخلافة، والخليفة شرطًا لا يتم الإسلام الحقيقيّ إلاّ بوجوده. وما أثاره طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي شكّك فيه بصحة أكثر الشعر الجاهلي، وبكونه يمثل حياة العرب الجاهلية في مظاهرها المتنوّعة، بهدف الوصول إلى التشكيك في صحة القرآن الكريم؛ وذلك سيرًا على خطى أساتذته المستشرقين، ونفخًا في أفكارهم الهدّامة. وما أثاره عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني في كتابهما "الدّيوان في الأدب والنقد" الذي شكّكا فيه – تأثرًا بالأدب الغربي بعامة والإنجليزي بخاصة-بالقيم الجمالية والفنية التي قام عليها الشعر العربيّ، منذ نشأته إلى عصرهما، فيما اعتبر غيرهما من الشعراء وبخاصة محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم في مصر، وأغلب شعراء العربيّة في باقي الوطن العربيّ الشعر العربيّ بقيمه الجمالية والفنية نماذج للمحاكاة، والإبداع، مع مراعاة مستجدات العصر الذي يعيشونه في كلّ مجالات الحياة.

(1) إيليا أبو ماضي، الجداول: من أعمال الشاعر، ص39.

7. تأثر شعراء المهجر بفكرة القومية العربيّة، الّتي نادت بخلافة عربيّة، ثم دولة عربيّة بجامع التراث العربيّ، واللّغة العربيّة، والوحدة الترابية، والمصير المشترك، الّتي بثها الغرب المسيحي في العالم العربيّ، كما بث الطورانية في تركيا، والفارسيّة في إيران، وغيرها من القوميات في الشعوب الإسلاميّة بهدف مساعدته في هدم الخلافة العثمانية الإسلاميّة.

وكانَ أكثر مَنْ نظّر لفكرة القومية العربيّة من نصارى العرب مثل: ميشيل عفلق، وأنطون سعادة، الذي التحق بالمحفل الماسوني برئاسة والده خليل سعادة في "سان باولو" بالبرازيل، وهو شاب، وقدّم استقالته منه في (3 ذو القعدة 1344الموافق 5/14 /1926)، وهو حتى في كتاب الاستقالة يفخر بالمحفل الماسونيّ [1]، أو من الشيعة النّصيريّة (العلويين) والإسماعيلية مثل زكي الأرسوزي، أو من المسلمين الذين تعلّموا في الغرب، وتأثروا به مثل: صلاح الدين البيطار وغيرهم.

وكانت الغالبية العظمى من شعراء المهجر من النصارى العرب، الذين هاجموا الخلافة العثمانية، ونذّدوا بها، ودعوا إلى الثورة عليها، وهدمها باعتبارها احتلالًا، فيما مجّدوا القوميّة العربيّة، ودعوا إلى اعتمادها رابطة بديلة عن رابطة الجامعة الإسلاميّة الّتي دعا إليها السلطان عبد الحميد الثاني، واستمرّت دعوتهم حتى سقوط الخلافة.

8. تأثر شعراء المهجر بالأفكار العلمية الّتي ظهرت في الغرب، وأثارت جدلًا واسعًا على أساس أصل الجنس البشري، وعلاقة الإنسان بالله، سبحانه وتعالى، وتحليل تصرفات الإنسان وأعماله من مثل: نظرية النشوء والارتقاء لداروِن، وعلم النفس التحليلي لسيجموند فرويد وغيرهما من النظريات، الّتي تُشكك في القيم الدينية والإيمانية، وقد انعكست تلك الأفكار على نتاج عدد من شعراء المهجر الذين وصل شعرهم إلى موطنهم الأصل؛ فأثر في الشعراء والمجتمع على حدّ سواء.

ما سبق من عوامل، وغيرها أثر في الشّعر المهجريّ، وكانَ شعراء المهجر أسبق من غيرهم في التأثر بالمذاهب الأدبيّة الغربيّة مثل: الرومانسيّة، والرمزية، والواقعية، والسّريالية وغيرها.

---

(1) انظر: كان أنطون سعادة ماسونيًّا ومن أب ماسونيّ : موقع جريدة البيان (جريدة أسبوعيّة ، سياسيّة ، مستقلة) طرابلس ، لبنان، حيث نشرت نص الخطاب الذي ألقاه سعادة في احتفال تكريسه ماسونيًّا في محفل "نجمة سوريا" سنة (1926/1344) وكتاب سعادة إلى عميد الداخلية سنة (1949/1368) يتنكر فيه للماسونيّة. www.albayanlebanon.com.news.php? .

4- النّدوات، والنوادي، والرّوابط، والجمعيّات الأدبيّة في المهجر

شكّلت الصحف والمجلات التي أنشأها أدباء المهجر مكانًا مفتوحًا، للقاء شعراء المهجر، وتبادل الأفكار، والقيم، والأساليب فيما بينهم ومن دون شروط على هذا اللقاء، ثم ما لبث أن بادر عدد من الأدباء إلى عقد ندوات، وتأسيس روابط، وجمعيات أدبيّة، وثقافيّة، يلتقي فيها أدباء المهجر، ويتبادلون الآراء والأفكار في كلّ الموضوعات. وقد تفاوت عمر تلك الندوات، والروابط، والجمعيات ما بين سنين معدودة وعقود معدودة، وكلّها اختفت مع (بداية عقد السبعينيات من القرن الرابع عشر الهجريّ / بداية النصف الثاني من القرن العشرين)، ما يدلُّ على محدودية تأثير مدرسة شعراء المهجر في حركة الشعر العربيّ بعامة، والحركة التغريبيّة (التجديدية) فيه بخاصة، وأهم التّجمعات الأدبيّة والثقافيّة التي شكّلها شعراء المهجر هي:

أوّلًا: النّدوات

عمد المهجريون إلى عقد ندوات أدبيّة، وثقافيّة، في دور المطابع أو الصحف والمحافل العامة، والنوادي الأدبيّة، والجمعيات العربيّة والإسلاميّة المنتشرة في أماكن كثيرة من المهجر، وأحيانًا في منازل الأدباء وأماكن سمرهم ولقاءاتهم العامة.

وقد كانت تلك الندوات بمثابة أسواق أدبيّة، أسهمت في ازدهار الأدب، وتنوّع فنونه، وتهذيب لغته، وأساليبه، وفي رعاية المواهب الناشئة، وتعليم أبناء الجالية العربيّة اللغة العربيّة، وتذوّق الأدب.

وقد أُقيمت النّدوات في مُناسبات كثيرة منها: الأدبيّة، والدّينيّة، والقوميّة، والاجتماعيّة، وغيرها ومن تلك الندوات:

1- رواق المعرّي[1]

ندوة أدبية أنشأها الشاعر قيصر المعلوف في البرازيل، (أواخر العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجريّ/ أوائل القرن العشرين الميلاديّ)، وسمّاها بهذا الاسم تيمُّنًا بالشاعر والفيلسوف المسلم أبي العلاء المعرّيّ (ت 449/1057). وضمّت في عضويتها عددًا من شعراء المهجر في البرازيل ومنهم: جورج عسّاف، ونعوم لبكي، وفارس نجم وغيرهم. وقد عملت الندوة على نشر نتاج شعراء المهجر وبخاصة من

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص179 ؛ قصة الأدب المهجريّ ، ص111؛ ممدوح محمود، تطور الشعر العربيّ، ص61.

أعضـائها، وأول مـا نشـرته هـو ديـوان "المُهـاجِر" لمؤسّـس النـدوة الشـاعر قيصـر المعلوف.

2- ندوة الأدب العربيّ[1]

نشـأت فـي "بيـونس أيـرس" عاصـمة الأرجنتـين، بعـد انفـراط عقـد الرابطـة الأدبيّة سنة (1951/1371)، ولعلّها ضمّت عددًا من الأدباء الذين كانوا أعضاء في الرابطـة الأدبيّـة، أو أكثرهم، وكانـت موجـودة حتـى سنة(1968/1387) حيث احتفلت بالذكرى المئويّة لميلاد الشاعر أحمد شوقي.

ثانيًا: النوادي الأدبيّة

أسّس أدباء المهجر عددًا غير قليل من النوادي الأدبيّة التي كان لها دور مهم في تفعيل حركة الأدب العربيّ في المهجر، ورعاية المواهب الشّابة، وتوجيه الأدب؛ ففـي كـلّ مدينـة كبيـرة سكن المهجريـون كـانوا يُشـكّلون جمعيـات ونـواد، وينشـرون الصحف والمجلّات، وكانوا يقيمون في الجمعيات والنوادي الحفلات المختلفة، وأحيانًا يؤجّرونها للحصول على عائد مالي. قال الشاعر القرويّ (رشيد سليم الخوري) يصف بيئة مدينة "سان باولو": "كانت هناك جالية لها أندية، وجمعيات، وصحافة. وكانـت تُقيم الحفلات بكثـرة، فـي سـبيل الأغـراض الاجتماعيّـة، والوطنيّـة، وكـانوا يدعوننـي لأقول شيئًا من الشعر، فـألبّي دعوتهم، وكنت أرقب هذه الأحداث بنفس ثائرة، وأُصوّرها بشعري"[2]. ومن تلك النوادي:

1- النادي الحمصي[3]

أُنشئ في مدينة "سان باولو" سنة(1920/1330)، وكانت له قاعة فسيحة تتسع لثلاثة آلاف كرسي، فضلًا عن الأروقة، والغرف، والصالونات الواسعة الفخمة.

وكـان للنـادي مجلس إدارة مـن اثنـي عشـر عضـوًا، يـتم انتخـابهم كـلّ سـنة، ويُشـترط أن يكـون أحـد الأعضـاء مـن الأدبـاء البـارزين، يُطلـق عليـه لقـب" خطيـب النادي"، ومن أشهر مَنْ تولّى خطابة النادي الحمصي الأديب نظير زيتون الذي كان قوميّ الهوى.

---

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص50؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري،ص111.
(2) محمد خفاجي، حركات التجديد، ص108.
(3) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص108.

وكانت حكومة الولاية في "سان باولو" والمؤسّسات الكبرى فيها تستأجر قاعة النادي، وبعض مرافقه لإقامة احتفالاتها ما يعود على النادي بعوائد مالية تساعده في مواصلة نشاطاته المتنوّعة.

2- النادي العربي[1]

أُسّس في "بيونس أيرس" عاصمة الأرجنتين، وكانت تُشرف عليه نخبة من الشباب، والأدباء، ويعقدون فيه لقاءات أدبية وثقافيّة واجتماعيّة متنوعة، وغلب على نشاط النادي النزعة القوميّة.

ثالثًا: الرّوابط والجمعيات الأدبيّة

لجأ عدد من أدباء المهجر إلى تأسيس روابط وجمعيّات أدبيّة في أماكن وجودهم؛ بهدف تدارس أوضاع الأدب واللغة العربيّة في جالياتهم، والعمل على نشر اللغة العربيّة، والأدب العربيّ، ورعاية شؤون الموهوبين وتشجيعهم على الإبداع. وقد أسهمت هذه الروابط والجمعيات بعامة، والرابطة القلميّة، والعصبة الأندلسيّة بخاصة في تشكيل ما عُرف بالأدب المهجريّ، وأهم تلك الروابط والجمعيات هي:

1. رابطة منيرفا[2]

أسّسها الشاعر المصري الطبيب أحمد زكي أبو شادي في شهر (جمادى الأولى 1365 الموافق لشهر نيسان 1946) في نيويورك عندما هاجر إليها جرّاء خلافاته مع أدباء مصر، حيث استقرّ فيها حتى وفاته فجأة في واشنطن سنة (1955/1375)، وقد عمل أمينًا للسّر في الرابطة، فيما رأسها الشاعر نعمة الحاج الذي شارك أبا شادي في تأسيس الرابطة. وكانت على غرار جماعة أبولّو في مصر.

وكانت الرابطة تعقد اجتماعًا لأعضائها مرّة في الشهر في جامعة كولومبيا بنيويورك، كما كانت تهتم بألوان الأدب العربيّ الأصيل. وقد ضمّت الرابطة في عضويتها شعراء ومفكّرين من العرب والأمريكيين، ومنهم الشاعرة صفيّة أبو شادي، وهي زوج مؤسّس الرابطة.

---

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص110.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص61؛ قصة الأدب المهجريّ ، ص106. وفيه كان الشاعر عبد المسيح حدّاد نائب رئيس الرابطة، ونعمة الحاج أسهم بجهد كبير في أعمال الرابطة؛ ممدوح محمود، تطور الشعر العربيّ، ص61، وفيه أنها تأسست سنة (1948م). ومنيرفا هو: اسم إلهة الحكمة عند الإغريق.

2. الرابطة الأدبيّة[1]

أسّسها جورج ميخائيل صيدح، الشاعر السوري المهجري (ت1398/1978)، سنة (1368/1949) في مدينة " بيونس إيرس " عاصمة الأرجنتين، وكانت على غرار الرابطة القلميّة، والعصبة الأندلسيّة. واستمرّت لمدّة سنتين حيث انفرط عقدها عام (1371/1951) عندما عاد مؤسّسها إلى بيروت، حيث مكث فيها سبع سنوات، ثم هاجر إلى فرنسا سنة (1379/1959)، حيث عاش فيها تسعة عشر عامًا، وبها توفي.

وقد ضمّت الرابطة مجموعة من أدباء العربيّة في عاصمة الأرجنتين، الذين كانوا يجتمعون مساء كلّ يوم أربعاء من الأسبوع، في منزل مؤسّس الرابطة الذي اعتبر بمثابة مقرّ لها، وكانوا يناقشون في اجتماعهم قضايا الأدب في المهجر بهدف الترويح عن أنفسهم. ومن أعضائها: يوسف الصّارميّ صاحب مجلة " المواهب" الشهريّة، وعبد اللطيف الخشن، صاحب جريدة " العلم العربيّ" الأسبوعيّة، وكتاب" المغتربون"، وزكي قنصل، وغيرهم.

وقد غلب على شعر مؤسّس الرابطة، جورج صيدح موضوعا الحنين للوطن، والشعر القوميّ، حيث نظم كثيرًا من شعره في قضية فلسطين، ومنه يصف جهاد شعب فلسطين ضد الاحتلال البريطاني، ووعد بلفور، ويحثّه على السير على خطى صلاح الدّين من أجل تحرير وطنه، قال:

أرضٌ تحجُّ لها الدّنيا مبايعة ... بيعتْ بفلس مُرابٍ غير محتشم

واهًا فلسطين كم غازٍ قَهَرْتِ وكم ... جيشٍ رَدَدْتِ عن الأسوار منهزم

حتى لُطمْتِ بكفٍّ لا سِوارَ لها ... شعبٌ بلا وطنٍ، جندٌ بلا علم

فأينَ سيف صلاح الدّين يَرْدَعُهُمْ ... أمَا لهُ خَلَفٌ في العُرْبِ كلْهم

وقد أصدر جرائد عديدة، وخمس مجموعات شعرية، وعدّة دراسات أكاديمية، أهمها: "النوافل" طبعها في "بيونس أيرس" سنة (1347/1947)، و "أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية". وهي محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربيّة العالية في القاهرة، وطبعه المعهد سنة(1376/1956).

---

(1) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص107؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص50و427.

3. جامعة القلم[1]

دعت إلى تأسيسها الصحفية والأديبة اللبنانية مريانا دعبول فاخوري سنة (1964/1384)، حيث جعلت دارها مكانًا لاجتماع أعضاء الجامعة، وفتحت صفحات مجلة "المراحل" التي كانت تُصدرها منذ سنة (1954/1374) لنشر أدب أعضاء الجامعة. وقد تولّى رئاسة الجامعة دواد جرجس الخوري حتى شهر (جمادى الأولى 1387 الموافق لشهر آب 1967)، حيث خلفه الأديب فيليب لطف الله.

وما دفعها لإنشاء هذه الجماعة هو: جمع شمل أدباء المهجر الجنوبي بعد أن انفرط عقد العصبة الأندلسية، وتوقفت مجلتها عن الصدور، ثم ايجاد حلقة وصل بين أدباء المهجر والمشرق العربي بما تنقله من مقالات وقصائد عن صحف المشرق.

وقد نشرت خبر إنشاء رابطة "جامعة القلم" في مجلة "المراحل" في العدد المزدوج للمجلة ذي الرقمين (108 و109) من السنة العاشرة للمجلة، الصادر في (ذو القعدة وذو الحجة 1384الموافق لشهريّ آذار ونيسان1965). وجاء في الخبر أن "جامعة القلم" تأسّست بناء على اجتماع عدد من أدباء العربيّة في "سان باولو" عاصمة البرازيل يوم (22 صفر 1384 الموافق 1964/7/2) في منزل السيدة مريانا دعبول، حيث ناقش الحضور مصير اللّغة العربيّة في المهجر، وضرورة الدفاع عنها ونشرها، وتعزيز الأدب العربيّ والحفاظ على تراثهما. وتم تكليف الأديبين يوسف الفاخوري، وشاكر الدّبس بوضع قانون الجماعة، وأهدافها.

أهداف "جامعة القلم"

نشرت مجلة المراحل الناطقة باسم "جامعة القلم" سبعة أهداف تسعى الجامعة إلى تحقيقها، وهي:

1. تعزيز الأدب العربيّ، ونشر اللّغة العربيّة في المهاجر.
2. توثيق روابط الأدب العربيّ بين المغتربين والمقيمين في الوطن الأم.
3. نشر الأدب العربيّ في بلدان الاغتراب.
4. إنشاء ناد باسم "نادي الأدباء" يضم عشّاق الأدب من المغتربين، وفروعهم.
5. إنشاء مكتبة تضم ما يمكن من كتب الأدب العربيّ والعالمي.

---

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص46-50، 592-594؛ محمد خفاجي ، قصة الأدب المهجريّ، ص107.

6. إنشاء مجلة أدبيّة لنشر نتاج أعضاء "جامعة القلم"، والتعبير عنهم.
7. إقامة حفلات أدبيّة، وترجمة كتب قيّمة.

شروط العضوية في الجامعة

وضع مؤسّسو الجامعة شروط عدّة، رأوا أنّه يجب توافرها في الراغب بالانضمام إليها، والحصول على عضويتها سواء أكانَ مقيمًا في البرازيل والمهجر أم مراسلاً للجامعة من المشرق العربيّ، وهي:

1. أن يتمتع بالحقوق المدنية (غير محكوم بجناية).
2. أن يكون أديبًا منتجًا لأدب ذي قيمة في عالم الأدب.
3. يتم قبول العضو بموافقة أكثرية أعضاء الهيئة الإدارية للجامعة.

4. الرابطة القلميّة[1]

جماعة أدبيّة تأسّست في مدينة "نيوريوك" بالولايات المتحدة الأمريكية من قبل عدد من الأدباء السوريين واللبنانيين سنة (1920/1339)، في الوقت الذي ظهرت فيه دعوة عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني التغريبيّة (التجديدية) في مصر، وبتأثير من الحرب العالميّة الأولى، التي أسهمت في إنشائها كما أسمت الثورة الفرنسيّة في إنشاء الرومنطيقية في فرنسا[2].

(1) انظر عن الرابطة: ميخائيل نعيمة ، جبران ، ص232 ؛ محمد خفاجي ، قصة الأدب المهجريّ ، ص82؛ إيليا أبو ماضي ، ديوانه: دراسة عن إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر لزهير ميرزا ، ص37-92؛ أنطوان القوال ، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ، ص14 ؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص175؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص22؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص209؛ ؛ مارون عبود، مجددون ومجترون، ص155؛ محمد قوبعة ، الرومنطيقيّة ومنابع الحداثة ، ص53.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد،ص9و173؛ مارون عبود، مجددون ومجترون،ص156.

ظروف النشأة

انتشرت أخبار دعوة مدرسة الدّيوان التغريبيّة (التجديدية) في الأدب في أصقاع الأرض، فوصلت مدينة "نيويورك"، فلاقت صدى في قلب ميخائيل نعيمة، وعقله؛ إذ علم بوجود مَنْ يماثله في ضرورة اعتماد مقاييس جديدة في الأدب، فكتب مقالًا حيّا فيه مدرسة الدّيوان وأصحابها، وقد نشر المقال في مجلة الفنون المهجريّة[1]، التي كانَ يُصدرها نسيب عريضة. وممّا قاله في تحيّة الدّيوان وأصحابه: "ألا بارك الله في مصر، فما كلّ ما تنشره ثرثرة، ولا كلّ ما تنظمه بهرجة، وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام، وتؤلّه رصف القوافي... غير أني عرفتُ اليوم بالحسّ ما كُنتُ أعرفه بالرّجاء؛ عرفتُ أنَّ مصرَ مصران لا واحدة؛ مصر ترى البعوضة جملًا، والمدَرة[2] جبلًا، ومصر ترى البعوضة بعوضة، والمدرة مدرة... إنّ مصر هذه، مصرَ الثانية قد قامت تُناقش الأولى الحساب، فانتصبت وإيّاها أمام محكمة الحياة، وسلاحها الوجدان الحيّ، ومحكّها الحقّ، كأنّها تقول لها: إمّا أن تثبتي لي حقك باعتباري فأسكت، أو أُريك كلّ ما فيك من زيف فتسكتين، وبعبارة أُخرى إنّ مصر تُصفّي اليوم حسابها مع ماضيها"[3].

ثم انتشرت أخبار مدرسة الدّيوان بين الأدباء، ومحبي الأدب في "نيويورك"، واجتمعوا على إنشاء جمعية أدبية، تكون مهمّتها النهوض بالأدب العربيّ.

---

(1) جمع ميخائيل نعيمة عددًا من المقالات النقديّة التي كانَ ينشرها في مجلة الفنون وغيرها مع هذا المقال، ونشرها في كتاب سمّاه "الغربال"، حيث أوضح فيها نظرته للأدب والأديب، ودورهما في المجتمع، وعلاقتهما بالماضي والحاضر.

(2) المدَر: قطع الطّين اليابس وهي كالقرميد إلاّ أنّها من الجص. اللسان: مادة مدر.

(3) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص207.

تأسيس الرابطة

أول مَنْ دعا إلى إنشاء الرابطة هما الشاعران: عبد المسيح حدّاد، وجبران خليل جبران، حيث التقى في نيويورك عشرة من أُدبائها هم: جبران خليل جبران، وعبد المسيح حدّاد، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، ورشيد أيوب، وندرة حدّاد (شقيق عبد المسيح)، ونسيب عريضة، ووليم كاتسفليس، ووديع باحوط، وإلياس عطا الله– مساء يوم (2شعبان 1338 الموافق 20/ 4/1920)، وناقشوا أوضاع اللّغة والأدب في المهجر، واتفقوا على تأسيس جمعية أدبيّة.

بعد أسبوع من اللقاء أي في (9 شعبان 1338 الموافق 1920/4/27) التقى العشرة ثانية، وأعلنوا تأسيس الجمعية رسميًا، وسمّوها "الرابطة القلميّة"، وانتخب جبران خليل جبران رئيسًا، وميخائيل نعيمة مستشارًا، ووليم كاتسفليس خازنًا (أي أمين الصندوق). والسبعة الباقون عمّالاً (أعضاء)[1].

لسان الرابطة

اتّخذ أعضاء الرابطة مجلة "الفنون" لصاحبها نسيب عريضة ميدانًا لنشر نتاجهم الأدبيّ، وآرائهم النقديّة، لكنّها توقّفت بسبب الضائقة المالية[2].

بعد ذلك اتّخذت الرابطة جريدة السائح، لصاحبها عبد المسيح حدّاد[3] لسانًا لها، ينشرون فيها نتاجهم الأدبيّ، وآراءهم النقديّة، وأحوال الحركة الأدبيّة في المهجر. وكانت الجريدة تُصدر-كلّ عام-عددًا ممتازًا، يكون له صدى واسعًا في الصحف والمجلات، وعند الأدباء، ما أكسب الرابطة، وأعضاءها شهرة واسعة في المهجر الشمالي والجنوبي والوطن العربيّ على حدّ سواء.

وفي سنة (1921/1340) أصدرت الرابطة مجموعة أدبيّة دورية باسم "مجموعة الرابطة الأدبيّة" ضمّت عددًا من المقالات والقصائد الشعريّة لتسعة من أعضائها، فيما لم يشارك فيها إلياس عطاالله، وصدرت في "نيويورك"، وبيروت،

---

(1) انظر: ميخائيل نعيمة ، جبران ، ص232؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص175-176؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص22؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص209.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص176؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص210؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص23. وفيه أن المجلّة توقفت عن الصدور قبل نشوء الرابطة.

(3) كانَ الشاعر عبد المسيح حدّاد هاجر إلى نيويورك سنة(1907/1325)، وأنشأ جريدة السائح سنة (1912/1330)، وهي جريدة كانت تصدر مرّتين في الأسبوع، كما كانت تُصدر عددًا ممتازًا في كلّ سنة.

ولاقت رواجًا واسعًا، واهتمامًا كبيرًا من الأدباء العرب الذين عكف بعضهم على دراسة ما فيها من أدب[1]، لكنّها لم تصدر إلّا مرّة واحدة بسبب نقص التمويل، ثمّ صدر لعدد من أعضائها نتاج أدبيّ كثير[2].

مفهوم الرابطة للأدب والشعر

وضّحت الرابطة مفهومها للأدب؛ شعرًا ونثرًا، في دستورها الذي كتب مقدّمته مستشار الرابطة ميخائيل نعيمة، حيث نفى أن يكون كلّ ما يكتب على الورق أدبًا، وكلّ مَنْ كتب مقالاً، أو نظم قصيدة موزونة أديب، بل الأدب هو: ما يأخذ معانيه وأفكاره من الحياة كما هي. والأديب هو: مَنْ تميّز برقة الإحساس، ودقة الفكر، وعمقه، وفوق ذلك لديه القدرة على التعبير عن الحياة.

قال ميخائيل نعيمة: " ليس كلّ ما سُطّرَ بمداد على قرطاس أدبًا، ولا كلّ مَنْ حرّر مقالاً أو نظم قصيدة موزونة بالأديب؛ فالأدب الذي نعتبره هو: الأدب الذي يستمدّ غذاءه من تربة الحياة، ونورها، وهوائها. والأديب الذي نكرِّمه هو: الذي خُصَّ برقّة الحسّ، ودقّة الفكر، وبعد النّظر في تموّجات الحياة وتقلّباتها، وبمقدرة البيان عمّا تحدّثه الحياة في نفسه من التأثير"[3].

أهداف الرّابطة وغاياتها

وردت أهداف الرّابطة، وغاياتها في كتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة، وهي[4]:

1. بثّ روح جديدة في الأدب العربيّ بحيث يتم نقله من مرحلة التقليد والجمود إلى الابتكار والإبداع في الأساليب والمعاني.
2. الإفصاح عن خلجات نفس الشاعر من: رجاء ويأس، وفوز وفشل، وحبّ وكُره، ولذّة وألم، وفرح وحزن، وطمأنينة وخوف (أي الثنائية).
3. الحقيقة عند أدباء الرابطة هي: النور الذي يهديهم في الحياة.

---

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص177؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص23؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص210.
(2) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، 24-27؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص212-213.
(3) ميخائيل نعيمة ، المقاييس الأدبية: الغربال ، ص77.
(4) انظر: ميخائيل نعيمة ، المقاييس الأدبية: الغربال ، ص70؛ وانظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص178؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص211، 215.

4. البحث عن الجمال في كلّ شيء.
5. البحث عن الموسيقى.
6. عدم قطع الصّلة مع القدماء لمجرد قدمهم؛ ففيهم من الشعراء والمفكرين الذين يمكن اتخاذ آثارهم مصدر إلهام مستمر من غير داع للتقليد والمحاكاة.
7. الاهتمام بحاجات الأدباء في الحاضر، والمستقبل؛ لأن ذلك يعني المحافظة على استقلالية الإنسان.

ميزات أدب الرابطة

تلتقي دعوة الرابطة القلميّة التغريبيّة (التجديديّة)، والابتداعيّة (الرومانسيّة)، مع دعوة شعراء مدرسة الدّيوان في مصر إلى حدّ كبير، حيث أشاد عباس محمود العقاد في مقدّمته لكتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة، بالكتاب، ومؤلفه، والرابطة القلميّة، وأعضائها، ودعوتها التغريبيّة (التجديديّة)، حتى أنه قال: " لو لم يكتب قلم النعيميّ هذه الآراء، لوجب أن أكتبها أنا "[1]. وهذا دليل على قوة العوامل المشتركة بينهما في دعوتهما التغريبيّة (التجديديّة).

وقد وجّه جبران خليل جبران شعراء الرّابطة نحو ما يسمى "الرومانسيّة المجنّحة" من خلال ما نظمه من أنواع الشعر مثل: الموزون، والمنثور، والمهموس (المناجاة) وهو الذي أوجده حديثًا كما يدّعي، فيما هو موجود منذ قرون في الشعر العربيّ، وحتى في النثر، وبخاصة في أدب الصوفية.

وقد دعا جبران خليل جبران كغيره من نصارى الشرق، والمستشرقين، وبعض تلاميذهم المسلمين إلى الخروج على قواعد اللّغة العربيّة بحجة الواقعية، والتزام حاجات الأديب وعصره، فقال لمن سمّاهم المحافظين على قواعد اللّغة: " لكم منها ما قاله سيبويه، وأبو الأسود الدؤلي، وابن عقيل، ومَنْ جاء قبلهم وبعدهم، ولي منها ما تقوله الأُمُّ لطفلها، والمتيّم لسكينة ليله "[2]. كما دعا ميخائيل نعيمة في مقال له بعنوان " الشعر والشاعر" إلى تحطيم القافية؛ لأنّها ليست من ضروريات الشعر، واعتبرها قيدًا حديديًّا يُقيّد قرائح الشعراء، قال:" الوزن ضروريّ، أمّا القافية فليست من ضروريّات الشعر، لا سيّما إذا كانت كالقافية العربيّة برويّ وحد ... فلا مناص لنا من الاعتراف بأنّ القافية العربيّة السّائدة إلى اليوم سوى قيدٍ من حديد تربط به قرائح شعرائنا، وقد حان تحطيمه من زمان"[3]، ثمّ دعا في مقال بعنوان " الزحافات والعلل: الشعر والعروض" إلى ترك الأوزان والقوافي باعتبار أنّ علم العروض والقافية ليسا ضروريين، بل هما أساءا للأدب، قال: " فلا الأوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر، كما انّ المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة، فرُبَّ عبارة منثورة، جميلة التنسيق، موسيقيّة الرّنة كان فيها من الشّعر أكثر ممّا في قصيدة من مائة بيت بمائة قافية ...العروض لم يسئ إلى شعرنا فقط، بل قد أساء إلى

(1) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص7؛ وانظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص173.
(2) جبران خليل جبران، لكم لغتكم ولي لغتي: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ، ص94.
(3) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص85.

أدبنا بنوع عام "[1]. فانظر إلى هذه الدّعوات التي يعتبر أصحابها عند كثيرين من دارسي أدبنا العربيّ قِممًا أدبية !!.

ومن خلال استقراء ما كتبه أدباء الرابطة بعامة، وشعرائها بخاصة، يمكن القول إنهم تميّزوا في أدبهم عن غيرهم بثلاث ميّزات هي[2]:

1. الاتجاه إلى النزعة الرومانسيّة، التي تأثروا بها كثيرًا في أفكارهم، وأساليبهم، وظلوا يدعون إليها حتى بعد أن انتهت في الغرب" أمّا ادب المهجر المُمثّل في الرابطة، فظلّ ينحو نحو ذلك الأدب الأوروبيّ الذي هجره أصحاب"[3].
2. الدّعوة إلى التّحرّر ممّا أسموه قيود التقاليد الشّعريّة، أي الوزن والقافية، وهذا ما لم يلتزموه هم أنفسهم في كثير من نتاجهم؛ إذ كثير من شعرهم موزون، لكنّهم خرجوا كثيرًا عن القافية الموحّدة.
3. الدّعوة إلى الابتكار والإبداع في الأدب بعامة، وفي الشعر بخاصة؛ وهذا أيضًا لم يلتزموا به؛ ففي شعرهم موضوعات: المديح، والرثاء، والوصف، والحنين للوطن، والحماسة (الوطنيّ والقوميّ)، مع التجديد في بعض المعاني والصور بما يلائم عصرهم.

أثر شعراء الرابطة في الشعر العربيّ الحديث

اتفق كثيرون ممّن درسوا شعر شعراء الرابطة القلميّة على أنّهم تركوا آثارًا واضحة في الشعر العربيّ، تمثلت في مجالين هما:

1. **المضمون**

ظهرت آثار شعراء الرابطة في مضمون الشعر العربيّ في موضوعين هما[4]:

أ. الشعر التأمليّ والإنسانيّ

---

(1) ميخائيل نعيمة، الغربال،ص116-118.
(2) انظر: عيسى الناعوري ، أدب المهجر ، ص22؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص214؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص183.
(3) مارون عبود، مجددون ومجترون،ص156.
(4) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص217.

اهتم شعراء الرابطة بالبحث عمّا وراء الكون، والطبيعة، والحياة من أسرار، بحثًا عن الحقيقة، ففكّروا في الخالق، وأصل الإنسان وماهيته؛ ونهايته، وطبيعة حياته أمُسَيَّر هو أم مُخيّر؟! والحياة والموت، والخير والشّر وغير ذلك من قضايا فكرية تأملية.

ورأى بعض الدارسين أن أبرز التأمليين من شعراء الرابطة القلميّة هو إيليا أبو ماضي، وقد ظهر تأمّله في قصيدة "العنقاء"، حيث قال[1]:

صفرت يدي منها وبي طيش الفتى وأضللني عنها ذكاء الألمعي

حتى إذا نشرَ القنوطُ ضبابَهُ فوقي فغيّبني، وغيّبَ موضعي

وتقطّعت أمراسُ آمالي بها وهي التي من قبل لم تتقطّع

عصَرَ الأسى روحي فسالت أدمعًا فلمَحْتُها ولمستُها في أدمعي

وعلمتُ حينَ العلم لا يُجدي الفتى أنّ التي ضيّعتها كانت معي

فالشاعر إيليا أبو ماضي، بحث عن الحقيقة، وساءل عنها النور والظلام، وتحرّى عنها في الرّبيع والشتاء، فلم يجدها، لكنّه لمحها (وجدها) في دموعه عندما عصر الأسى روحه.

وهو في هذه القصيدة متأثر بقصيدة الفيلسوف الحسين بن سينا (ت 1035/427)، التي تحدّث فيها بتأمل أوضح عن الروح، ومنها قوله[2]:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ورقاءُ ذات تعزّز وتمنّع

وقد قلّدها كثير من الشعراء، أشهرهم شهاب الدّين يحيى بن حبش السّهروردي (ت 1191/587)، في قصيدته الحائية التي مطلعها[3]:

أبدًا تَحنُّ إليكم الأرواحُ وَوصالكم رَحيانها والرَّاحُ

(1) إيليا أبو ماضي، العنقاء: ديوانه ، 3 /492.
(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 422.
(3) السهروردي، ديوانه، ص259.

ب. الشعر الإنساني

ويقصد به الدّعوة إلى حرّية الإنسان، والحق والسلام، والعدل والمساواة؛ فقد استطاع شعراء "الرابطة القلميّة" نقل روحانية الشرق إلى البيئة الأمريكية المادية، وأكثر مَنْ عبّر عن ذلك إيليا أبو ماضي في قصيدة سمّاها "الطين"، وفيها يُظهر ما عاناه من حياة مادية في المهجر الأمريكي، وغياب المشاعر الإنسانيّة، ودعوته تمثّل حال المهاجرين المتّهمين أبدًا في انتمائهم للمهجر من قبل الإنسان الأمريكي، منذ زمن إيليا أبو ماضي وزملائه في الرابطة حتى يومنا هذا (2017/1439)؛ حيث تُطلّ العنصرية برأسها بين الفينة والأخرى، فتظهر بأبشع صورها، وبخاصة ضد المهاجرين المسلمين والعرب منذ تدمير برجيّ التجارة في نيويورك (المعروفة بأحداث الحادي عشر من أيلول) يوم الثلاثاء(26 رمضان 1422الموافق 2001/9/11). قال أبو ماضي[1]:

نسيَ الطّينُ ساعة أنَّه طي ... نٌ حقيرٌ فصالَ تيهًا وعَرْبَدْ

وكسا الخزُّ جسمَهُ فتباهى ... وحوى المالَ كيسَهُ فتمرَّدْ

يا أخي لا تَمِلْ بوجهكَ عنّي ... ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فرقَدْ

أنتَ لم تصنع الحريرَ الذي تَلْ ... بَسْ واللؤلؤَ الذي تَتَقَلَّدْ

أنتَ لم تأكل النّضار إذا جع ... تَ ولا تشرب الجُمانَ المنضّدْ

ثم يُذكّر المتكبّر على إنسانيته بالمساواة في الإنسانيّة، ويستنكر عليه تكبّره، فيقول:

أنتَ مثلي من الثّرى وإليه ... فلماذا يا صاحبي التّيه والصّدْ

وفي قصيدة بعنوان "فلسفة الحياة" يُظهر إيليا أبو ماضي كثيرًا من المعاني الإنسانيّة، حيث يدعو الإنسان إلى الابتعاد عن الشكوى، والإقدام على التفاؤل، وتأمل جمال الحياة، وعدم التفكير في نهاية الحياة قبل نهايتها الفعلية، يقول[2]:

(1) إيليا أبو ماضي، الجداول: من أعمال الشاعر إيليا أبي ماضي ، ص39.
(2) إيليا أبو ماضي، ديوانه، 604/3.

أيهـــذا الشـــاكي ومـــا بـــكَ داءٌ كيـــف تغـــدو إذا غـــدوتَ علـــيلا؟

إنّ شـرَّ الجنـاةِ فـي الأرض نفـسٌ تتـــوقى قبـــل الرّحيـــل الـــرّحيلا

وتـرى الشـوكَ فـي الـورود وتعمـى أن تَـــرى فوقهـــا النّـــدى إكلـــيلا

ثم يقول عن المتشائم، حائًا إيّاه على التفاؤل:

هـــو عـــبءٌ علـــى الحيـــاةِ ثقيـــلٌ مَـــنْ يظـــنُّ الحيـــاةَ عبئًـــا ثقـــيلا

والـــذي نفســـه بغيـــر جمـــالٍ لا يَـــرى فـــي الوجـــود شـــيئًا جمـــيلا

وينهي قصيدته الطويلة بإجمال فلسفته في الحياة، وهي فلسفة قائمة على التفاؤل الكامل، بقوله:

أيهـــذا الشـــاكي ومـــا بـــكَ داءٌ كُـــنْ جمـــيلاً تَـــرَ الوجـــودَ جمـــيلا

جـ. الحنين إلى الوطن

موضوع قديم من موضوعات الشعر العربيّ، نظم فيه الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي، ولا يزالون، وسيستمر طالما بقي الإنسان، نظموا فيه أبياتًا مفردة، ونتفًا، ومقطوعات، وقصائد؛ وجاء نظمهم غرضًا مستقلاً، أو مبثوثًا في الموضوعات الأخرى.

وقد كانَ حنينهم للوطن بسبب عوامل عديدة، فمنهم مَنْ اغترب طلبًا للرّزق، أو العلم، أو السياحة، أو السياسة؛ أو هربًا وخوفًا، أو نفيًا وعقوبة، وغيرها، وقد تأثرّوا بمؤثرات عديدة، فشعروا بالغربة الروحيّة والماديّة، واشتاقوا لكل ما كانوا ألفوه في أوطانهم[1].

وانظر إلى هذا البيت المفرد الذي نظمه ابن جبير الأندلسي (ت 614/1217) عندما وصل قرية "زريران" على شط نهر دجلة قرب مشهد الصحابيّ سلمان الفارسيّ، رضي الله عنه، على مسافة قريبة من بغداد، فثار حنينه، فتمنى لكلّ مغترب عودة آمنة إلى وطنه[2]:

سقى الله بابَ الطّاق صوبَ غمامة ... وردَّ إلى الأوطان كلَّ غريبِ

ومن شعر المهجريين في الحنين للوطن، قصيدة إيليا أبو ماضي بعنوان "الشاعر في السماء" التي حنّ فيها إلى لبنان، قال[3]:

تحنُّ نفسي إلى السواقي ... إلى الأقاحي إلى الشذاء

إلى الرّوابي تعرى وتكسا ... إلى العصافير والغناء

إلى العناقيد والدّوالي ... والماء والنّور والهواء

فأشرف الله من علاه ... يشهدُ لبنانُ "في المساءْ"

فقال: ما أنت ذو جنون ... وإنّما أنت ذو وفاءْ

---

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص231 وقالت رأيًا آخر حيث ذهبت إلى أنّ غرض الحنين في الشعر العربيّ القديم لم يكن غرضًا مستقلاً بذاته؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص189.

(2) منجد بهجت، ابن جبير الأندلسي شاعرًا: آداب الرافدين، عدد (9)، ص489.

(3) إيليا أبوماضي، الشاعر في السماء: ديوانه ، 3/ 125.

فـــــإنّ لبنـــــانَ لـــــيسَ طـــــودًا ولا بـــــــلادًا لكـــــــن ســـــــماءْ

وعندما هطل الثلج هيّج ذكريات الشاعر رشيد أيوب، فحنّ لأهله ووطنه، فقال[1]:

يـــا ثلـــجُ قـــد هيّجـــتَ أشـــجاني ذكّرتنـــــــي أهلـــــــي بلبنـــــــانِ

بـــــالله قُـــــل عنّـــــي لإخـــــواني مـــــا زال يرعـــــى حرمـــــة العهـــــد

يـــا ثلـــج قـــد ذكّرتنـــي الـــوادي مُتنصِّـــــئًا لغـــــديره الشّـــــادي

كـــم قـــد جلســـتُ بحضـــنه الهـــادي فكـــــأنّني فـــــي جنّـــــة الخُلْـــــدِ

والشاعر السوري ندرة حدّاد يحنُّ لوطنه وأهله، كلمّا التقى مع واحد من أهل وطنه، بل مِنَ العرب الذين يُبادلونه التحيّة العربيّة بلفظ عربيّ مُبين، قال[2]:

مـــــا قيـــــل لـــــي مرحبًـــــا فـــــي كُـــــلِّ أســـــفاري

إلاّ وقلبـــــــــي صـــــــــبا للأهـــــــــل والـــــــــدّاري

2. في الشكل وطرائق التعبير

تمثّل تجديد شعراء الرابطة القلمية في شكل الشعر وطرائق التعبير به في ثلاث قضايا هي:

أ. الخروج على قواعد اللّغة

دعا عدد من شعراء "الرابطة القلميّة"، وكتّابها إلى التساهل في استعمال اللّغة، وعدم الاهتمام بالألفاظ القاموسيّة، والقياس عليها ما دام الغرض منها واضحًا، واللفظ المستخدم يؤدي معنى مفيدًا، وممّن دعا إلى الخروج على قواعد اللّغة:

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص233.
(2) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص233.

1. ميخائيل نعيمة، فقد سمّى العلماء الذين يدعون إلى المحافظة على اللّغة العربيّة باعتبارها لغة شريفة "ضفادع الأدب"، الذين يترصّدون الألفاظ الّتي يستخدمها الأدباء، ولا تلتزم بقواعد اللّغة وفق مقاييس القدماء كالثعالبي والزمخشري وغيرهما، فيجيزون ما أجازه القدماء، ويمنعون ما لم يرد في كتبهم، أو يتفق مع مقاييسهم. وقال إنّ الأديب في حلّ من الخطأ ما دام غرضه مفهومًا، ولفظه مفيدًا[1].

2. جبران خليل جبران، هاجم علماء اللّغة الدّاعين للمحافظة على قواعدها، وألفاظها، وأساليبها، في مقال بعنوان " لكم لغتكم ولي لغتي" حيث ميّز بين اللّغة الّتي يدعو هو إلى استخدامها (لغته)، واللّغة الفصيحة (لغة غيره) بقوله: " لكم منها القواميس، والمعجمات، والمطوّلات، ولي منها ما غربلته الأذن، وحفظته الذاكرة من كرم مألوف مأنوس تتداوله ألسنة النّاس في أفراحهم وأحزانهم، ... لكم منها قاله سيبويه، والأسود، وابن عقيل، ومَنْ جاء قبلهم، وبعدهم من المُضْجِرين المُمِلّين، ولي منها ما تقوله الأمّ لطفلها، والمحبُّ لرفيقته، والمتعبّد لسكينة ليله.

لكم منها الفصيح دون الركيك، والبليغ دون المبتذل، ولي منها ما يُتَمْتمهُ المستوحش وكلّه فصيح، وما يغصُّ به المتوجّع وكلّه بليغ، وما يلثغ به المأخوذ، وكلّه فصيح وبليغ "[2].

3. إيليا أبو ماضي، مارس ما سمّاه دُعاة الخروج على قواعد اللّغة (تجديدًا) في شعره، ودعا إليه، فقال من قصيدة له بعنوان"الفاتحة " [3]:

لستَ مِنّي إن حسبتَ الشْ ... شِعْرَ ألفاظًا ووزنا

خالَفتْ دربُكَ دربي ... وانقضى ما كانَ مِنّا

واتخذ غيري رفيقًا ... وسوى دنياي مغنى

فانطلق عني لئلا ... نقتني همًّا وحزنا

(1) انظر: ميخائل نعيمة، نقيق الضفادع: الغربال، ص90.
(2) جبران خليل جبران، لكم لغتكم ولي لغتي: المجموعة الكاملة، ص93-95.
(3) إيليا أبوماضي، الفاتحة: ديوانه ، 744/3؛ الجداول: من أعمال الشاعر إيليا ، ص7.

وقال: إنّ الشعر هو أفكار ومعانٍ، وشعور وإبداع، لا تقيّده الألفاظ والقواعد اللّغوية، بل يجب أن يتّسع لمضامين الحياة كلّها، ببساطة ووضوح.

الحقيقة أنّ هذا ما نجده في أغلب الشعر العربيّ طوال رحلته من الجاهلية حتى يومنا، مع ملاحظة أنَّ لكلّ زمن ألفاظه، وأساليبه، وتراكيبه، وحتى معانيه الخاصة، وهناك ألفاظ وأساليب وتراكيب ومعان تبقى قادرة على الجريان في مسار تطور اللّغة عبر رحلتها الزمنية الطويلة بوضوح وسهولة، وليس أدل على ذلك من القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشّريف، وكثير من الشعر العربيّ. وهناك ألفاظ وأساليب يتوقف الناس عن استخدامها في حقبة زمنية ما، ويعودون لاستخدامها في حقبة أخرى وفق مستجدات عصرهم، فاللغة كائن حي، لكنّ حياتها بيد أهلها والناطقين بها، وليست حياتها بيدها.

ويستدل مؤيدو دعوة الشاعر إيليا أبو ماضي على ذلك، بقوله من قصيدة بعنوان " وطن النّجوم " يخاطب وطنه لبنان، بعدما عاد إليه كهلًا، وكانَ غادره صبيًا يافعًا[1]:

وطنُ النّجومِ أنا هنا ... حدِّق أتذكُر مَنْ أنا؟

ألمحت في الماضي البعيد ... فتًى غريرًا أرعنا!

جذلان يمرح في حقولك ... كالنسيم مُدَنْدنا

ثم يقول:

أنا ذلك الولد الذي ... دنياه كانت ها هنا!

أنا من مياهك قطرةً ... فاضت جداول من سنا

أنا من ترابك ذرّةً ... ماجت كواكب من منى

أنا من طيورك بلبل ... غنّى بمجدك فاغتنى

حمل الطلاقة والبشاشة ... من ربوعك للدّنا

(1) إيليا أبو ماضي، وطن النّجوم: ديوانه، 3/ 736؛ تبر وتراب: من أعمال الشاعر إيليا، ص453.

والحقيقة، أن هذا شعر جميل، وسهل، وواضح، ولا خروج فيه على قواعد اللّغة، بل فيه عودة للتراث العربيّ، وفيه استخدام لفظة موقع "منى" وهو من مناسك الحج، الّتي لم يعشها الشاعر كونه مسيحيًّا، لكنه استدعاها من موروثه الثقافيّ التاريخيّ، ووظّفها توظيفًا سليمًا – إن كان يقصد مِنى التي هي من مناسك الحج، إذ هناك من يضبطها مُنى، وهذا بعيد -.

3. التجديد في الأسلوب

استخدم أدباء الرابطة القلميّة بعامة اللفظة السهلة، والعبارة الرقيقة الواضحة[1]، وابتعدوا عمّا سمّوه جزالة اللفظ، وفخامة التعبير كما فعل محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وعبد المحسن الكاظمي، وفؤاد الخطيب، وسليمان الباروني، وسليم أبو الإقبال اليعقوبي، وإبراهيم الدّباغ وغيرهم كثير من شعراء العربيّة، الذين يُتّهمون بالسير على خطى شعراء العصر العباسي وغيرهم.

وادّعى محمد مندور أن شعر شعراء " الرّابطة القلميّة "؛ لسهولته هو شعر مهموس، حيث اعتبر أنّ الشاعر القويّ "هو الذي يهمس، فتحسُّ صوته خارجًا من أعماق نفسه في نغمات حارة"[2]. ومثّل عليه بقول ميخائيل نعيمة.

أخـــي إن عـــاد يحـــرثُ أر ضَـــهُ الفـــلاّح أو يـــزرعْ

ويبنـــي بعـــد طـــول الهـــج رِ كوخًـــا هـــدّه المـــدفعْ

فقَـــدْ جفّـــت ســـواقينا وهـــدَّ الـــدّلَّ مأوانـــا

ولـــم يتـــرك لنـــا الأعـــدا ءُ غرسًـــا فـــي أراضـــينا

سوى أجياف موتانا

والحقيقة أنّ هذا الشعر سهل وواضح، لكنّنا لا نعدم مثله في العصور السابقة، وبخاصة عند الشعراء الشعبيين، وبشار بن برد، وأبي فراس الحمداني،

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص238.
(2) محمد مندور، في الميزان الجديد، ص48. وانظر حول الشعر المهموس: مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد، ص199.

والعباس بن الأحنف، وحتى عند البهاء زهير، وماماي الرّومي وغيرهم عبر كلّ عصور الأدب العربيّ.

كما أنّ بعض شعراء الرابطة نظموا شعرًا بألفاظ جزلة وعبارات فخمة في الموضوعات: الوطنيّة، والقوميّة، والحنين للوطن وغيرها. فالذي يُحدّد طبيعة الألفاظ والتراكيب هو موضوعها. ومثال ذلك قول نسيب عريضة، وقد استخدم الألفاظ الجزلة والتراكيب القوية[1]:

يـا أخـي يـا أخـي المصـاعب شـتّى وبعيـــــدٌ مرادنـــــا والمـــــوارد

وأمـــــام العيـــون دربٌ عســـيرٌ لـــم تَسِـــرْ قبلنـــا عليـــه الأوابـــد

مظلـــمٌ مـــوحشٌ كثيـــرٌ الأفـــاعي والســـعالي المســـتهويات الطّرائـــد

4. التجديد في الوزن

الحقيقة أن شعراء " الرابطة القلميّة " لم يخرجوا على الأوزان العروضية الستة عشر، إنّما لجأوا إلى استخدام الأوزان الشعريّة القصيرة، والمجزوءة، والمشطورة، كما استخدموا الموشّح لما وجدوه فيه من تغيير في أوزانه وقوافيه. وقد ذكر ميخائيل نعيمة أن جبران خليل جبران كانَ يرى: " أنّ تعدّد الأصوات يزيد في وقع القصيدة ومداها، ويسترعي انتباه القارئ أكثر من صوت واحد"[2].

ولكن أكثر شعراء " الرابطة القلميّة " جدّدوا في استخدام القافية الواحدة، فغيّروها بين مقطع وآخر. وأمثلة ذلك في شعرهم كثيرة، إنّما يجب ملاحظة قضيّة مهمّة في هذا الموضوع، وهي أن لجوء شعراء " الرابطة القلميّة " إلى استخدام الأوزان الخفيفة، والمجزوءة، والمشطورة، أدّى بالشاعر نسيب عريضة إلى نظم قصيدة بعنوان "النهاية" تعتبر المرحلة الأولى والمبكّرة من ظهور شعر التفعيلة، وذلك قبل ظهور الجدل حول أول مَنْ قاله بثلاثة عقود تقريبًا، فقد قال[3]:

كَفِّنُـــــــــــــــــــــــــــــــوه

وادْفنـــــــــــــــــــــــــــــــوه

(1) نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص201.
(2) ميخائل نعيمة ، جبران ، ص234.
(3) نسيب عريضة ، الأرواح الحائرة ، ص65.

أســـــــــــــــــــــــــــــــــكنوه

هـــــــــوّة اللّحـــــــــــد العميـــــــــق

واذهبـــــوا لا تنـــــدبوه فهـــــو شـــــعب

ميّـــــــــــت لـــــــــــيس يفيـــــــــــق

وهي قصيدة وطنيّة، عبّر فيها عن حزنه وأساه، بل نقمته على شعبه، وأمته لقبولهما بالخضوع للاستعمار، والعيش بذل وهوان.

شعار الرابطة

كان شعر الرابطة القلميّة عبارة بليغة تدلُّ على مدى تقديرها للشعراء، ودورهم في الحياة البشريّة، وهو:" لله كنوزٌ تحت العرش، مفاتيحها ألسنة الشُّعراء"[1].

(1) ميخائيل نعيمة ، جبران ، ص237.

انفراط عقد الرابطة

ولدت الرابطة في يوم الثلاثاء (2شعبان 1338 الموافق 1920/4/20)، ونمت وازدهرت حتى بلغت من العمر إحدى عشرة سنة، ثم ماتت فجأة عندما مات رئيسها جبران خليل جبران يوم الجمعة (22 ذو الحجة 1349 الموافق 1931/4/10) في نيويورك، ثم عاد ميخائيل نعيمة إلى قريته بسكنتا في لبنان سنة (1932/1351)[1]، وبدأ الموت يأخذ أعضاء الرابطة المؤسّسين العشرة الواحد تلو الآخر، فكانَ أولهم رشيد أيوب سنة (1941/1360)، وآخرهم ميخائيل نعيمة سنة (1988/1406)، وقد عُمِّر (99) سنة.

5. **العصبة الأندلسيّة**[2]

جماعة أدبيّة تأسّست في مدينة "سان باولو" بالبرازيل من قبل عدد من الأدباء العرب الشاميين سنة (1933/1351).

ظروف النشأة

انصبّت جهود عدد من الأدباء، والصحفيين، والمثقفين العرب الذين هاجروا إلى أمريكا الجنوبيّة بعامة، والبرازيل والأرجنتين بخاصة، في أول هجرتهم على إنشاء الصحف والمجلاّت بهدف التعبير فيها عن أفكارهم وآرائهم في كلّ شيء، وعن أحداث وطنهم العربيّ، وأمتهم العربيّة بشكل خاص، فظهرت مجلة "الجالية" لصاحبها سامي يواكيم الرامي، و "الشرق" لصاحبها موسى كريم، و "الأندلس الجديدة" لصاحبها شكر الله الجرّ، التي كانت تصدر في "ريودي جانيرو" بالأرجنتين.

وقد أسهمت تلك الصحف والمجلاّت في نشر أدب أدباء المهجر الجنوبي، وآرائهم فازدهر، ونما، وبلغ أوج ازدهاره في أثناء الحرب العالمية الأولى، أي في(بداية العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجريّ/ نهاية العقد الثاني من القرن العشرين الميلاديّ)، وتركّز وجود الأدباء في البرازيل ثم الأرجنتين، ثم دعا شكر الله الجرّ إلى جمع شمل الأدباء وتعزيز أدبهم، فالتقت دعوته مع دعوة الشاعر ميشال معلوف في "سان باولو"، الذي آلمه وضع الأدب في المهجر بعامة والجنوبي فيه

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص348؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص212.
(2) انظر: عزيزة، مريدن، حركات الشعر، ص258؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص181؛ قصة الأدب المهجريّ،ص91؛عيسى الناعوري،أدب المهجر،ص27-28؛ مارون عبود، مجددون ومجترون،ص163.

بخاصة، واتفقوا على تشكيل جماعة أدبيّة تسدّ الفراغ الذي تركه انفراط عقد "الرابطة القلميّة" في "نيويورك"، فسافر شكر الله الجرّ إلى "سان باولو"، والتقى ميشال معلوف وصحبه، واتفقوا على تأسيس العصبة[1].

تأسيس العصبة[2]

لاقت دعوة الأديب شكر الله الجرّ استحسانًا، فقبولًا من زملائهّ؛ شعراء وكتّابٍ، وفي يوم الخميس (4رمضان 1351 الموافق 1933/1/1) تمّ الإعلان عن تأسيس الجماعة الأدبيّة، وأطلق عليها اسم "العصبة الأندلسية".

وانتخب الشاعر ميشال معلوف رئيسًا للعصبة، واستمرّ حتى وفاته سنة (1938/1357) في بلدته زحلة بلبنان، فخلفه الشاعر رشيد سليم الخوري الملقب "بالشاعر القروي"، ثم خلفه شفيق معلوف وهو ابن أخت ميشال معلوف، أول رئيس للعصبة، واستمرّ رئيسًا للعصبة حتى تشتّت شملها؛ بوفاة بعضهم، وانفضاض بعضهم، وعودة أكثرهم إلى وطنهم الأم.

وانتخب داود شكّور نائبًا للرئيس، ونظير زيتون أمينًا للسّر، ويوسف البعيني أمينًا للصندوق، وجورج حسون معلوف خطيبًا للعصبة. وقد ضمّت في عضويتها أكثر من عشرين أديبًا، تفاوتت ثقافتهم ما بين مَنْ يُتقن لغة أجنبية مثل: شفيق المعلوف، ومَنْ يُتقن العربيّة ويُلمُّ بلغة بلده في المهجر بما يُساعده على التحدّث بها، وبين مَنْ يعرف قواعد العربيّة، وأوزان الشعر، ومَنْ لا يعرف ذلك إلاّ معرفة سطحية، لكنّهم كانوا مُقبلين على تثقيف أنفسهم تثقيفًا ذاتيًا، لصقل مواهبهم الفذّة، ولعلّ ذلك كانَ سببًا مهمًّا في دعوتهم للحفاظ على اللّغة والشعر العربيّ.

لسان العصبة[3]

اتّخذ أعضاء العصبة مجلّة "الأندلس الجديدة" وسيلة للتّعبير عن آرائهم، ونشر أدبهم، وكانَ رئيس تحريرها وصاحبها الشاعر شكر الله الجرّ، وذلك حتى

---

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص28؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص259؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص181.

(2) انظر: محمد خفاجي ، قصة الأدب المهجريّ،ص91؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص27؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص258؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص179؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر، ص311.

(3) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص28؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص180؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص259؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر، ص312 وقد أخذ عن عيسى الناعوري أغلب ما كتبه.

عام(1935/1354). ثم أصدروا مجلّة خاصة بالعصبة أسموها "العصبة"، وعهدوا إلى الصحفي والأديب حبيب مسعود برئاسة تحريرها، فكانت ملتقى أفكار أعضائها، ومسرح خواطرهم، فأسهمت ببلورة الأدب العربيّ في البرازيل، بحيث انتشر في المهجر والوطن العربيّ، وأخذ يؤثر في الأدب العربيّ الحديث، لكنّها توقفت عن الصدور سنة (1941/1360) مع غيرها من الصحف العربيّة. بناء على أمر رئيس جمهورية البرازيل الذي حظر صدور أي صحيفة، أو كتاب، أو منشور بغير اللّغة الرسمية للبرازيل.

وفي عام (1947/1367) أعاد إصدار المجلة الشاعر شفيق معلوف بماله الخاص، وكانَ هو رئيس "العصبة الأندلسيّة"، وأُسند تحرير المجلة للأديب والخطاط حبيب مسعود، الملقب بابن نقطة العصر[1]، الذي واصل تحريرها إلى قبيل توقفها النهائي عن الصدور عام (1954/1374)، حيث عمل في التجارة مدّة يسيرة، ثم رأس تحرير مجلة "المراحل" الأدبيّة الّتي كانت تصدرها الأديبة مريانا دعبول فاخوري.

وقد تشتّت شمل أعضاء العصبة مع الزمن، حيث توفي بعضهم، وأولهم مؤسّسها وأول رئيس لها ميشال معلوف، وانفض بعضهم عن العصبة، وعاد بعضهم إلى وطنه الأم، وبذلك انتهت العصبة كما انتهت الرابطة القلميّة.

سبب التّسمية

تم اختيار اسم "العصبة الأندلسيّة" تيمّنًا بالتراث القيِّم الذي تركه العرب المسلمون في الأندلس، وفيه إشارة إلى الابتعاد عن التّطرف الذي وصفت به "الرابطة القلميّة".

وقد فسّر هذه التسمية رئيس تحرير مجلة "العصبة" حبيب مسعود قال: "إنّه لتيمّن بالتّراث الغالي الذي تركه العرب في الأندلس ... فقد دخلنا أرض كولومبس مسترزقين، طالبين عطفًا، وسائلين عدلاً، فلا يبرر تسمية بيتنا بالأندلس، إلاّ اعتبارنا أنّ نشر الأدب العربيّ في البلد الغريب، وفي الأميين من قومنا هو فتح مُبين ... فليس الفضل في أن تصون لغتك وأنت قابع في دارك بين عشيرتك كالفضل في أن تصونها، وتُحصنّها، وتشقى من أجلها في بلاد غريبة عنك لسانًا وعادة وعُرفًا"[2].

---

(1) ابن نقطة هو: محمد بن عبد الغني ، أبو بكر البغدادي ،المعروف بابن نقطة ، عاش ما بين (1183/579 و 1231/629-) ، كان عالمًا بالحديث ، والأنساب ، بارعًا في الخط العربيّ ، ولقبُ نقطة لحقه من اسم جارية ربّت جدّته لأبيه. انظر: الذهبي، سير أعلام، 347/22؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 133؛ الزركلي، الأعلام، 211/6.

(2) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص260.

دستور العصبة

لم يكتب أعضاء "العصبة الأندلسيّة" دستورًا لها، كما فعل أعضاء "الرابطة القلميّة"، لكن الأعضاء تعاهدوا، واتفقوا على الالتزام بأربعة مبادئ هي[1]:

1. الدفاع عن الأدب، ونشره، من حيث هو فن، من دون تحديد مذهب فني مُعيّن.
2. لكل أديب عضو في "العصبة" حرية اختيار المذهب الأدبيّ والفني الذي يتّبعه.
3. الحفاظ على اللّغة العربيّة الفصحى، والتّمسك بأساليبها، والتقيّد بقواعدها وأحكامها.
4. حظر البحث في موضوعي السياسة، والدّين على أعضاء العصبة.

أهداف العصبة

سعت العصبة إلى تحقيق أهداف عديدة، أهمها[2]:

1. جمع أدباء العربيّة في البرازيل والأرجنتين، وغيرهما من بلاد المهجر الجنوبي، والعمل على مؤاخاتهم.
2. تعزيز الأدب العربيّ، ونشره، والدفاع عنه باعتباره فنًا وجمالاً من دون الاهتمام بمصدره، أو فروعه.
3. تأسيس منتدى أدبيّ صرف، وإصدار مجلة تنطق بلسان العصبة.
4. العمل على إقامة صلات أدبيّة بين العصبة وسائر الجماعات، والنوادي، والروابط الأدبية في الوطن العربيّ، ما أمكن ذلك.
5. رفع مستوى العقل العربيّ، ومكافحة التعصب بكل مظاهره، ورفض أية صبغة سياسيّة، أو دينيّة، أو إقليمية يمكن أن تصطبغ بها العصبة.

---

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص180؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص28؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص260، أحمد قبش، تاريخ الشعر، ص312.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص181؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص27؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص260.

6. العمل على إطلاع الأدباء العرب والقرّاء في الوطن العربيّ عن طريق مجلة "العصبة" على إبداعات الفكر العربي في المهجر بعامة، والبرازيل بخاصة.
7. المحافظة على عمود الشعر، وأوزانه، وقوافيه، وبلاغته.
8. الأخذ بمعاني التجديد من دون فوضى.

نشاط العصبة

استطاعت "العصبة الأندلسية" تحقيق كثير من أهدافها من خلال قيامها بالنشاطات الآتية[1]:

1. توثيق الصلة بين العصبة والجماعات والأندية الأدبيّة العربيّة من خلال اتصال أدبائها بالعالم العربيّ في شعرهم الوطني والقومي.
2. قامت العصبة بنشر كثير من نتاج أعضائها الأدبي؛ شعرًا ونثرًا، مثل: نشر دواوين: الروافد، وزنابق الفجر لشكر الله الجرّ، وعبقر، ونداء المجاذيف، ولكلّ زهرة عبير لشفيق المعلوف، وأحلام الراعي لإلياس فرحات، وديوان الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) في مجلد ضخم ضم عدّة دواوين. كما نشرت أعداد المجلة التي صدرت طوال ثلاثة عشر عامًا في ثلاثة عشر مجلدًا، بكلّ ما فيها من قصائد ومقالات وقصص ونقد وغيرها.
3. أقامت العصبة حفلات أدبيّة، وقوميّة كثيرة في مناسبات متنوعة، كانت بمثابة أسواق أدبيّة ومن ذلك: إحياء ذكرى المتنبي، والشيخ محمد عبده، وفرح أنطون، وجبران خليل جبران، والشريف حسين بن علي شريف مكّة.

ميّزات شعر شعراء العصبة الأندلسيّة

اتّجه اهتمام شعراء العصبة الأندلسيّة نحو مضمون شعرهم ومحتواه، أكثر من اهتمامهم بشكل الشعر، وذلك انطلاقًا والتزامًا بالمبادئ الّتي التزموا بها، والأهداف الّتي سعوا إلى تحقيقها، ففي الشكل حافظوا على عمود الشعر، والأوزان، والقوافي، كما حافظوا على أساليب التعبير العربيّة، ونادرًا ما حاول بعضهم إحداث تغيير في أوزان الشعر الذي ينظمه؛ ولذلك سيتم الحديث عن مضمون شعر شعراء العصبة ومحتواه ضمن العناوين الثلاثة الآتية:

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص30؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص261.

1- الشعر القوميّ والوطنيّ

ارتبط أكثر شعراء العصبة الأندلسيّة بوطنهم الأم، وأمّتهم، وحرصوا على البقاء في تواصل دائم مع الأحداث في الوطن العربيّ، فنظموا في أغلب المناسبات القوميّة، والوطنيّة، وقد لُقّب الشاعر رشيد سليم الخوري (القروي) بلقب قدّيس الوطنية العربيّة، لكثرة ما نظمه في تراث العرب والمسلمين، وحثّ الأمة على: التآخي، والتعاون، والنهوض، ومن ذلك قوله على لسان الأمة العربيّة[1]:

أنا العروبةُ لي في كلّ مملكة إنجيل حب، ولي قرآن إنعام

سل عهد شامي وبغدادي وأندلسي عن عمق فلسفتي، عن عدل أحكامي

ما اخضوضر الشّرق إلاّ تحت أقدامي وازْهَوْهَر الطرب إلاّ تحت أعلامي

وقوله يفخر بتراث الأمة العربيّ الإسلاميّ[2]:

عِشْ للعروبة هاتفًا بحياتها ودوامها

انظر إلى آثارها تنبئكَ عن أيامها

هذا التراثُ يُمتُّ مُعْ ظَمُهُ إلى إسلامها

وكانَ لاحتلال فلسطين من قبل بريطانيا، ووعد بلفور، والثورات الفلسطينية المتتابعة ضد الاحتلال، أثر واضح في شعراء العصبة الأندلسيّة، حيث كانوا يقيمون الاحتفالات في المناسبات الفلسطينية وينظمون الشعر، ويلقون الخطب تعريفًا بالقضية، ودفاعًا عنها، ومن ذلك قول إلياس فرحات يخاطب فلسطين في إحدى المناسبات[3]:

لبيكِ لبيكِ يا ريحانة العرب يا بنت عدنان يا معصومة النّسب

إنّا اشترياكِ بالأرواح عاطلة فلن نبيعك بعد الحلي بالنّشب

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص262.
(2) رشيد سليم الخوري ، ديوانه ، ص363.
(3) إلياس فرحات، ديوانه ، ص62.

يفـديك كـلّ فتـى فـي قلبـه قـبس مـن نـور مجـدك تيّـاه علـى الشّـهب

ثم يُحرّض أبناء الأمة على السير على خطى صلاح الدّين، فلا سبيل غيره لتحريرها، قال:

لبّـى نـداء صـلاح الـدّين زأرتـه فـي القدس يسمعُها الصمّان فـي حلـب

النّيـل يزحـف والعاصـي ليشـتركا والرافـدين مـع الأردن فـي القلـب

وبعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، وانفراط عقد آخر دولة خلافة إسلاميّة، استكملت دول الغرب الاستعمارية احتلال الكثرة الكاثرة من بلدان العرب والمسلمين، فثارت ثائرة الشعوب ضد الاستعمار، وقد نظم شعراء العصبة في الثورات كلّها مُمجّدين وحاثّين على الكفاح والجهاد، وقد نظم إلياس فرحات قصيدة لامية عبّر فيها عن تضامن العرب، قال[1]:

إنّـا وإن تكـن الشـآم ديارنـا فقلوبنـا للعـرب بالإجمـال

نهـوى العـراق ورافديـه ومـا علـى أرض الجزيـرة مـن حصـى ورمـال

وإذا ذُكـرت لنـا الكنانـة خِلْتنـا نـروى بسـائغ نيلهـا السلسـال

بنّـا ومـا زلنـا نُشـاطر أهلهـا مُـرّ الأسـى وحـلاوة الآمـال

وبلغ من تفاني الشاعر رشيد سليم الخوري (القروي) في حبّ الأمة العربيّة، وتضامنه مع أحداثها أنه كتب في مقدّمة ديوانه: "أمتي أنا مكثرًا، ووطني أنا مكبرًا، إذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة، فكأنّما أكلوا جارحة من جوارحي، وإذا هدروا عربيًا في لبنان، أو تطوان، فكأنّما شربوا نغبة من دمي، وكأنّ كلّ بلد قوي من بلادي ساعدي مفتولاً، وكلّ شعب خامل فيها، زندي مشلولاً، بل ما أعدُّ ذاتي إلاّ خلّية في

(1) إلياس فرحات ، ديوانه ، ص203.

جسد أُمتي، أنا واحد من سبعين مليونًا من العرب، كلّ واحد منهم أنا، فينبغي أن أُحبّهم سبعين مليون ضعف حبّي لنفسي"[1].

2-الاغتراب والحنين للوطن

كما شعر شعراء "الرابطة القلميّة" بالاغتراب، فحنّوا لأوطانهم، كذلك فعل شعراء "العصبة الأندلسيّة"، لكنّهم اختلفوا عنهم في مضمون هذا الحنين، فشعر شعراء الرابطة كانَ رومانسيًا خالصًا، لا تجد فيه ألمًا وحرقة على حال الوطن وأهله، فيما شعر شعراء العصبة كانَ وطنيًا ممزوجًا بالحنين والشوق، لذلك يمكن اعتبار أجزاء منه ضمن الشعر الوطنيّ والقوميّ. وما يجعله حنينًا هو تعبير الشعراء عن الوطن من خلال العلاقات الإنسانيّة المرتبطة بالوطن من خلال: الأم، أو الطفولة، أو الحبيبة، أو من خلال الارتباط بأماكن الوطن من: منزل، أو قرية، أو مدينة، وما فيها من طبيعة. ومن ذلك قول رشيد سليم الخوري، وهو يشعر بغربتين[2]:

ما البرازيل مهجري ليس لبنان لي حمى

إنّ نفسي غريبة تشتكي البعد فيهما

أنا ما دُمتُ في الثرى بعيدًا عن السّما

مهجتي كلّها جوى كبدي كلّها حنين

أبدًا أشتكي النّوى دأبي النّوح والأنين

فالشاعر يشعر بغربتين مزدوجتين في مهجره البرازيل، ووطنه لبنان، لذلك فإنّه دائم الشكوى والحزن.

والشاعر نصر سمعان، ردّ على مَنْ كانَ لامه على حنينه إلى مدينته حمص، بقوله[3]:

قالوا أتصبو إلى حمص فقلت لهم قلبي بغير هواها غير خفّاق

(1) رشيد سليم الخوري ، ديوانه ، ص15.
(2) رسيد سليم الخوري ، ديوانه ، ص174.
(3) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص269.

تلـــك الخمائـــل جنّـــات منـــوّرة بكـــلّ زهـــرة ذكـــي الطيـــب عبّـــاق

والطّيـــر مـــا بـــين تغريـــد وزقزقـــة والمـــاء مـــا بـــين فـــوّار ورقـــراق

والـــرّيح تمـــرح فـــي الأرواح نـــاثرة حلـــى الطبيعـــة مـــن زهـــر وأوراق

وللنّـــواعير أنّـــات تبـــثُّ بهـــا شـــكوى صـــبابة مشـــتاق لمشـــتاق

3- الشعر الإنساني

نظم شعراء "العصبة الأندلسيّة" كثيرًا في الموضوع الإنساني، فتغنّوا فيه بعواطف الأمومة، والأبوة، والمعاني التي تتولّد عنهما، ومشاعر الآباء نحو الأبناء، والأحفاد، وهذا كلّه يظهر من خلال صدق العاطفة التي يتفنق عنها الشعر، ومن ذلك قول الشاعر توفيق بربر في ابنته الصغيرة (جزيلا)، مُعبّرًا عمّا يختزنه من عواطف لها، قال[1]:

صـــغيرة بيتـــي، وحبّـــة قلبـــي وزهـــرة عيشـــي، وثمـــرة حبّـــي

ومعنـــى وجـــودي، وكنـــه خلـــودي وبيـــت قصـــيدي، وآيـــة ربّـــي

كـــأنّ النّســـيم الحنـــون حباهـــا أدقّ المعـــاني لتســـبي وتصـــبي

تزقـــزق حـــولي، فتشـــرق شمســـي ويزهـــر قفـــري، وتـــورق دربـــي

وتغـــدو الحيـــاة ســـلامًا وبـــردًا وإن الحيـــاة لحـــرب بحـــرب

ونظم كثير من شعراء "العصبة الأندلسيّة" أشعارًا في أصحاب المهن البسيطة مثل: ساعي البريد، ومُنضّد الحروف الطباعية، وماسح الأحذية، والعتّال، والورّاق، والفلاح، والشرطي؛ لما يقدّمونه من خدمات مهمّة لعامة النّاس، ولأنّ الإنسانيّة في أبسط صورها تعني: احترام الإنسان حقوق أخيه الإنسان، وأن يُعامله

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص272.

بمحبّة وتقدير، وعليه فأصحاب تلك المهن البسيطة هم أجدر من غيرهم بالمحبّة والتقدير والاحترام[1].

وقد وصف شفيق معلوف ساعي البريد، مذكّرًا بفضله في زرع الفرح في قلوب مَنْ يُسلمهم الرسائل البريدية، فقال مخاطبًا له[2]:

يـــا ســـاعيًا بابتســـامات توزّعهـــا علـــى الشّـــفاه بـــلا مَـــنٍّ وترديـــد

كـم وجـه أُم عجـوزٍ إن بـررت لـه لـــم تبـــق مـــن أثـــر فيـــه لتجعيـــد

تُلقـــي إليهـــا كتابًـــا إن يُصِـــبْ يـــدها شـــدَّته باليـــدِ بـــين النَّحـــرِ والجيـــد

كـــأنّ كـــلّ غـــلاف منـــك ملتحـــف لابـــنٍ إلـــى صـــدرِ تلـــك الأُم مـــردودِ

واشترك شعراء "العصبة الأندلسيّة" مع شعراء "الرابطة القلميّة" في النظم الفلسفيّ عن الإنسان؛ مَنْ هو؟ ومن أين جاء؟ وإلى أن يسير؟ ودعوا إلى المحبّة والسلام، وبعضهم تحدّث عن الإنسانيّة على أنّها شبه عقيدة عندما دعا إلى التمسك بحقوق الإنسان ممثّلة بالحرية، والعدالة، والمساواة، ومن هؤلاء: إلياس فرحات في قصيدة "سلام الغاب"، وشفيق معلوف في أناشيد "عبقر"، ونعمة قازان في قصيدة "حرية" وغيرهم[3].

واعتبر بعض الدّارسين مضمون الشعر الوطنيّ، والقوميّ عن معاناة الإنسان العربيّ تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي اهتمامًا بالإنسان؛ لأنهم بذلك عالجوا مشكلات إنسانيّة، فتأثروا بأحداث وطنهم، ودعوا إلى محاربة الإستعمار[4].

الفرق بين شعر شعراء الرابطة القلميّة، والعصبة الأندلسيّة

على الرّغم من كثرة عناصر التوافق واللقاء بين شعراء ا"لرابطة القلميّة"، و"العصبة الأندلسيّة" إلاّ أنّ الممارسة العملية للأدب أظهرت وجود فروق مهمّة بين شعر شعراء الجماعتين الأدبيتين في المهجر الأمريكي، وأهم تلك الفروق هي[1]:

(1) انظر:عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص274.
(2) شفيق معلوف، سنابل راعوث: قصائد مختارة ، ص80.
(3) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص273.
(4) انظر: عزيزة مريدن ، حركات الشعر، ص275.

1. تمسّك شعراء "العصبة الأندلسيّة" بقواعد اللّغة العربيّة، وألفاظها السليمة، وأساليبها القوية الرزينة، فيما دعا شعراء "الرابطة القلميّة" إلى عدم الالتزام بقواعد اللّغة العربيّة، واستخدام العامية، والأساليب والألفاظ البسيطة الأقرب إلى العامية.

2. اهتم شعراء "العصبة الأندلسيّة" بالدعوة إلى التجديد في مضمون الشعر، ومحتواه، وحافظوا على أشكال الشعر من حيث الالتزام بالأوزان العروضية، والقافية، أما شعراء "الرابطة القلميّة" فقد دعوا إلى التجديد في مضمون الشعر ومحتواه وأشكاله، ونظموا على طريقة الشعر المنثور، والنثر الشعري، وظهر ذلك في شعر جبران خليل جبران، كما أحبّوا موسيقى الموشحات، لتنوّع أوزانها، وتعدّد قوافيها، فنظموا على منوالها كثيرًا، لا بل إن موسيقى كثير من أشعارهم جاءت قريبة من موسيقى الموشحات.

3. اهتم شعراء العصبة الأندلسيّة بموضوع الوطن والقوميّة أكثر من أي مضمون آخر، فيما اهتم شعراء "الرابطة القلميّة" بموضوع الوجدان، والطبيعة، فجاء شعرهم أقرب إلى الرومانسيّة.

4. كان لشعراء "الرابطة القلميّة" دستور مكتوب التزموا به، أما شعراء "العصبة الأندلسيّة" فلم يحتكموا إلى دستور مكتوب، لكنّهم التزموا بمبادئ عامة، فجاء شعرهم أقرب إلى الشعر العربيّ الأصيل في وطنهم الأم من حيث الشكل والمضمون.

5. اهتم شعراء "العصبة الأندلسيّة" بتوثيق الصّلات مع وطنهم العربيّ، ومتابعة أحوال وطنهم، فكانَ ما نظموه في القضايا الوطنيّة، والقوميّة في أقطارهم رافدًا مهمًّا لما نظمه الشعراء العرب في تلك القضايا، أما شعراء "الرابطة القلميّة، فيكاد موضوع الوطنيّة القوميّة يختفي من شعرهم.

ميّزات مدرسة شعراء المهجر

على الرّغم من الفوارق السابقة الواضحة الّتي تُميِّز بين شعراء "الرابطة القلميّة"، وشعراء "العصبة الأندلسيّة"، إلاّ أنّ بعض الدّارسين يرى جمع الجماعتين

---

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص83؛ قصة الأدب المهجري، ص147؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص564.عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص261؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر،ص53و69؛ مارون عبود، مجددون ومجترون،ص155-168.

الأدبيتين في إطار واحد، مع الجماعات الخمسة الأخرى، ويسمّي ذلك الإطار باسم مدرسة شعراء المهجر، أو الأدب المهجري، أو الأدب في المهجر، وغيرها من المسمّيات، التي تطلق على ما أبدعه الكتاب العرب المهاجرون إلى دول المهجر، في القارات الأمريكيّة الثلاثة، من ألون الأدب العربيّ، وصنوفه، وموضوعاته، سواء أكان كتب بالشعر أم بالنثر، ويرى أن هذا الأدب تميّز بميزات عديدة، لوّنت أدب أدباء المهجر بمقادير متفاوته من أديب إلى أديب، وليس فقط بين أدباء الجماعتين الأدبيتين الأبرز، ويمكن الحديث عن تلك الميّزات في محورين رئيسين، هما:

أوّلًا: الشكل

ويقصد به القالب التعبيري الذي يصوغ به الأديب أدبه، وهذا يتضمّن ميّزتين هما[1]:

1. **الدّعوة إلى الخروج على ما سُمّي قيود الأدب العربيّ القديم وأساليبه. وأوزانه، وقوافيه.** (ويقصد بالقديم كلّ ما قبل وجود الأدب في المهجر).

رأى المهجريون أنّ اللغة وسيلة نقل الأفكار والمعاني، وليست غاية في ذاتها، ولا يجوز تقييد معاني الحياة الجديدة، بألفاظ وأساليب الحياة القديمة التي لم يعشها أدباء المهجر، بل يجب التعبير عن الحياة الجديدة بألفاظ الحياة الجديدة نفسها، الحياة المتطوّرة باستمرار. وهذه الميزة ظهرت في شعر شعراء "الرابطة القلميّة"، وتكاد تختفي من شعر شعراء "العصبة الأندلسيّة"، واستخدم شعراء المهجر بعامة بعض غرائب الغرب من استعارات، وكنايات، وخيال، وأساطير.

كما جدّدوا في الأوزان الشعريّة، فنظموا على منوال الموشح لكثرة أوزانه، وحرّية تخيُّر قوافيه، وكتبوا الشعر المنثور (النثر الشعريّ)، والشعر المرسل، وأكثروا من النظم على الأوزان الصافية، والبحور المجزوءة.

2. **الدعوة إلى اختيار الأسلوب الفني التعبيري الخاص بالأديب.**

وجد أدباء مدرسة المهجر أنفسهم في بيئة جديدة من حيث: الطبيعة، والمجتمع، والثقافة وغيرها، وعندما أبدعوا أدبهم، دعا كثيرون منهم إلى خلق أدب يعبّر عن حاجاتهم الجديدة بكلّ ما فيها، مع رفض الصّلة الأدبية بحياة المجتمع الذي هاجروا منه، كما ظهر في أدب أعضاء "الرابطة القلميّة"، فيما مزج أعضاء

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص69؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص183، 188-189؛ قصة الأدب المهجري، ص147؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص355؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص565.

"العصبة الأندلسيّة" حاجاتهم الجديدة مع حياة مُجتمعهم الأم في موضوعات أدبهم، وحافظوا على أساليب اللّغة القوية في التعبير عن ذلك، إلّا أن الفريقين سعيا إلى إبداع أدب حرّ قويّ يحمل الأفكار والمعاني الّتي يؤمنون بها، ولم يطلب أي من أعضائه الالتزام بأسلوب محدّد للتعبير عن أفكاره، ومعانيه، وبذلك كانَ لكلّ أديب من أدباء المهجر طابعه الخاص، الّذي تظهر فيه خصائص شخصيته، إذ كلّ أديب كانَ يسعى إلى أن تعبّر ألفاظ أدبه وأساليبه عن المعنى الّذي يريده بدقة، وأن يكون أثر ذلك في نفس القارئ جميلاً، ولذلك يُقال: إن أدب جبران خليل جبران امتاز بالتمرّد والثورة على التقاليد كلّها، وأدب فوزي معلوف امتاز بجمال التشابيه، ولطف الخيال، وأدب ميخائيل نعيمة امتاز ببساطة اللّغة، والتفكير العاطفي، وأدب رشيد سليم الخوري (القروي) امتاز بدقة الإحساس في موضوع الحنين للوطن، وبالثورة في موضوع الشعر الوطنيّ والقوميّ.

وبذلك يمكن القول إنّ لكلّ أديب من أدباء المهجر أسلوبه الفني الخاص، المُعبّر عن شخصية صاحبه.

ثانيًا: المضمون والمحتوى

ويقصد به الموضوعات والمعاني الّتي تضمّنها أدب المهجر، فالمهجريون وجدوا أنفسهم في مجتمع جديد، ووطن جديد، ولمّا كانوا آمنوا بأن يكون الأدب معبّرًا عن معاني الحياة، فقد جعلوا مضامين أدبهم بعامة، وشعرهم بخاصة تمتاز بالآتي:

1-**الحنين إلى الوطن**

اصطدم أدباء المهجر في مهاجرهم بمجتمع مادي، ووطن جديد لم يألفوه في وطنهم الأم، فشعروا بالاغتراب، وعبّروا عنه بالحنين الجارف إلى الوطن، وقد أحسن الشاعر نعمة قازان كلّ الإحسان، في التعبير عن حالة الاغتراب الشاملة الّتي وجد نفسه فيها – ومثله كثيرون من أدباء المهجر-عندما قال في معلقته "الأرز"[1]:

وكنـــتُ مـــع الله فـــي قريتـــي فَصِـــرْتُ بـــلا الله فـــي غُربتـــي

وهو بذلك يعبّر عن السعادة، والطمأنينة المفقودتين – تقريبًا-في المهجر، الّذي على الرغم من تحقيقه فيه هدفًا مهمًا من أهداف هجرته، وهو المال والمجد والشهرة، إلّا أنّه فقد روحه وإيمانه الّذي يبثّ في نفسه السعادة والطمأنينة، قال:

هجـــرتُ وللـــنّفس أطماعُهـــا وإنّـــي مـــع الحـــظّ فـــي هجرتـــي

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص80 ؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص721-722.

فــلا المــالَ أشــبعَ مــن جــوعتي ولا المجــدَ أطفــأ مــن غلّتــي

ومنها:

هــي الــنّفسُ تحيــا بإحساســها ولــيس علــى الحــسّ مــن قــدرةِ

ومنها:

فــلا! لا أُحــبُّ ســوى قريتــي ولا، لا أُريــد ســوى أمتــي

وكانَ رشيد سليم الخوري (القروي)، أكثر شعراء المهجر حنينًا للوطن، وأقواهم في التعبير عن وطنيّته وقوميّته، فيكاد وطنه لا يُفارقه، فكلمّا رأى شيئًا في البرازيل، ظهر له فيه خيال وطنه، قال في قصيدة له بعنوان "أحيانًا"، وقد أظهر لوعة حارقة، ورغبة جارفة في العودة إلى وطنه[1]:

أحبابنــا! ســكتت علــى ال أغْصــان أصــوات البلابــلْ

وأتــى الرُّعــاة مــن الجبــا ل ولــم يعــد فــي الحقــل عامــلْ

قُومــوا نعــودُ إلــى الحِمَــى عــاد الجميــعُ إلــى المنــازلْ

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82.

وقد صوّر القروي نفسه حبّه للبنان، وفضّله على مهجره، فقال[1]:

غرســـتُ بلبنـــان وردَ الأمـــل ... فقُـــلْ للبرازيـــل أن تُمحـــلا

وجـــدتُ عليـــه بـــدمع المُقـــل ... فقُـــلْ للأمـــازون أن يـــبخلا

وحَلّيـــتُ قلبـــي بنبـــع العســـل ... فقُـــلْ لليـــالي: أمطـــري حَـــنْظلا

وكانَ شعراء المهجر، وبخاصة الجنوبي يرون وطنهم سوريا ولبنان معًا، وبعضهم يراه سوريا بمعناها الواسع، فهم يحنّون إليه وطنًا كبيرًا، ومن ذلك قول الشاعر القرويّ يُحقّر، ويزجر ابن وطنه السوري الّذي يذمُّ سوريا، ويمدح غيرها[2]:

عجبًـــا لســـوريٍّ يُحقّـــرُ أرضَـــهُ ... والخلْـــقُ يســـجد للتّـــراب الســـوري

ويقول إيليا أبو ماضي مفاخرًا بسوريا، ومفضلاً أهلها على غيرهم من البشر[3]:

الأرض: ســـوريا، أحَـــبُّ ربوعهـــا ... عنـــدي، ولبنـــان أعـــزُّ جبالهـــا

والنّـــاس أكـــرمهم علـــيَّ عشـــيُرها ... روحـــي الفـــداءُ لِرهطهـــا ولآلِهـــا

تشـتاقُ عينـي قبـل يُغمضـها الـرّدى ... لـــو أنّهـــا اكتَحلـــتْ ولـــو برمالهـــا

وصوّر مدى تعلّقه بوطنه سوريا ولبنان فقال[4]:

أنـــا فـــي نيويـــورك بالجســـم وبـــالر ... وح فـــي الشّـــرق علـــى تلـــك الهضـــاب

أنـــا فـــي الغوطـــة زهـــرٌ ونـــدى ... أنـــا فـــي لبنـــان نجـــوى وتصـــابى

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص85.
(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص85.
(3) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص86.
(4) محمد خفاجي، حركات التجديد، ص185.

لكنّ ما يمنعه من العودة هو سبب هجرته، إنّه الثروة، وخشية الفقر، فقد أدت حروب روسيا وأوروبا على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، والفتن التي أثارتها وغذّتها بين فئات المجتمع، وما أحدثته من دمار في مصادر الرزق، والحصار التجاري -إلى تدهور اقتصاد الدولة العثمانيّة، ما كانَ سببًا رئيسًا في الهجرة، قال[1]:

أروم إلى رُبى لبنان عودًا فيمنعُني عن العودِ افتقارُ

ولو خُيّرتُ لم أهجر بلادي ولكن ليس في العيشِ اختيارُ

2-التأمّل

أي التفكير في الكون، والإنسان وحياته، وما وراء الحياة، وعلاقتها بعضها ببعض، وقد امتاز بهذه الميزة شعر شعراء المهجر الشمالي، فغلبت على شعرهم؛ وذلك في رأيي لكون صدمتهم بمادية الحياة أكبر من صدمة شعراء المهجر الجنوبي، وتأثرهم القويّ بآداب الغرب ومعاييره الفنيّة، ما أدى إلى رفضهم الأدب العربيّ بكلّ ما فيه، فغلب التأمل على شعر: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي، وغيرهم من شعراء الرابطة القلميّة، أما شعراء المهجر الجنوبي فكانت صدمتهم الثقافية أقل تأثيرًا، لمحافظتهم على صلاتهم بآداب العرب وثقافتهم، وتمثّلهم لها في شعرهم، لكنّ التأمل ورد في شعر بعضهم، ومنهم: فوزي المعلوف في قصيدتيه "على بساط الريح"، و "شعلة العذاب"، والشاعر القروي في قصيدة "بين البقر والبشر"، والشاعر إلياس فرحات في قصيدة "بين الطفولة والشباب" وغيرهم.

ومن المهم ملاحظة ثلاثة أمور في موضوع التأمل هي: أنه موجود بكثرة في الأدب العربيّ، وبخاصة عند ذوي النزعات الفلسفيّة، والمتصوّفة، وفي الشعر الدينيّ، فظهر عند أبي العتاهية (ت 826/211)، وأبي العلاء المعرّي (ت1057/449)، وابن سينا (ت1035/427)، والإمام أبي حامد الغزالي، محمد بن محمد (ت1111/505)، والسُّهْرَوَرْديّ، يحيى بن حبش (ت 1191/587) وغيرهم. كما أنّه كانَ لدى شعراء المهجر الشمالي، فصبغ أغلب أدب أدباء المهجر شعرًا ونثرًا، فيما كان لدى أدباء المهجر الجنوبي يظهر في الشعر أكثر منه في النثر، وانحصر في قصائد بعينها، ثم إنّ تأمل شعراء المهجر الشمالي كانَ فيه مسّ بالعقائد الدّينيّة، وأحيانًا فيه كفر بواح، وإذا ما تأمّلناه بدقة نجد أنّه يخلو من المضمون الفكري السليم،

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر ، ص82.

ويظهر ذلك في المقطوعتين اللتين يتمثّل بهما كثير ممّن يدرسون الأدب المهجري، وهما:

قول جبران خليل جبران في قصيدته "المواكب"، وهي تتكوّن من (203) أبيات، ينفي وجود العدل في الغاب، وفي المدينة على حدّ سواء، قال على لسان فتى الغاب [1]:

لـــــيس فـــــي الغابـــــات عـــــدلٌ لا، ولا فيهـــــــــا العقـــــــــاب

فـــــإذا الصّقصـــــــافُ ألقـــــى ظِلّـــــــه فـــــــوقَ التّـــــــراب

لا يقـــــولُ السّـــــرْو: هـــــذي بدعـــــــةٌ ضـــــــد الكتـــــــاب

إنّ عـــــــدلَ النّـــــــاس ثلـــــــجٌ إنّ رأئـــــــــه الشّـــــــمس ذاب

وقول إيليا أبي ماضي في قصيدته "طلاسم" متسائلاً، ومُتشكّكًا ومُشكّكًا في خلق الإنسان، وحياته، ومصيره[2]:

جئـــــتُ لا أعلـــــم مـــــن أي ن ولكنّـــــــــــي أتيـــــــــتُ

ولقـــــــد أبصـــــــرتُ قُـــــدّا مـــــــي طريقًـــــــا فمشـــــــيتُ

وســـــــــأبقى ســـــــــائرًا إن شـــــــئتُ هـــــــذا أم أبيـــــــتُ

كيـــــفَ جئـــــتُ؟ كيـــــف أبصـــــر تُ طريقـــــــي؟ لســـــــت أدري

أما فوزي معلوف، فيظهر تأمّله في قصيدة "على بساط الريح"، وهو تأمل طبيعي، لا كفر فيه، ولا شك أو تشكيك، قال في نشيد "العبد" منها[3]:

أنـــا عبـــد الحيـــاة والمـــوت، أمشـــى مكرهًـــــا مـــــن مهودهـــــا لقبـــــورهْ

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص91.
(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص91.
(3) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص90.

عبـد مـا ضـمّت الشّـرائع مـن جـو ر يخـــطُّ القـــويُّ كـــلّ ســـطورهْ

بيـــراعٍ: دمُ الضـــعيف لـــه جـــد رٌ ونـــوحُ المظلـــوم وقـــعُ صـــريرهْ

أنـــا فـــي قبضـــة العبوديـــة العـــم يـــاء أعمـــى مُســـيّرٌ بغـــرورهْ

كـلّ مـا بـي فـي الكـون أعمـى ومنقـا دٌ علـــى رغمـــه لأعمـــى نظيـــرهْ

3-النزعة الإنسانيّة

يقصد بها: النظر إلى الحياة نظرة واسعة، النّظرة الّتي تجعل الإنسان أخًا للإنسان، ويسعى إلى إقامة مجتمع يسوده العدل والمساواة والأخوة، ومن أوضح الدّلائل على سيادة هذه النزعة في الأدب المهجري، وبخاصة لدى شعراء "الرابطة القلميّة"، الإكثار من استخدام عبارتي: يا أخي، يا رفيقي، وهو أسلوب نداء رقيق، يلمس شغاف القلب، فينعكس حنانًا وحبًّا كما أنّهم دعوا إلى التفاؤل في مواجهة الحياة وصِعابها.

وقد دفع عمق الإحساس الإنسانيّ شعراء المهجر إلى تحويل الشعور الإنسانيّ عندهم إلى نقمة على الاستعمار، فدعوا إلى تحرير أوطانهم، وشعوبهم، وكلّ الشعوب الضعيفة المستعمرة، وتمكينها من العيش بحرية، وسعادة، فتقوم بدورها في بناء الحضارة الإنسانيّة.

ويلاحظ أنّ هذه النزعة سادت بتأثير من مبادئ الرومانسيّة الّتي لا تواجه الحياة، بل تهرب منها إلى الطبيعة، والمُثل غير الموجودة على الأرض، وهو ما دعا إليه الاستعمار، وأشاعه بين الأدباء، فجعلهم يقفون موقفًا سلبيًّا من قضية التحرّر الوطنيّ، ومكافحة الاستعمار بالقوة، الّتي بها تمكّن الاستعمار نفسه من استعباد الشعوب الضعيفة، ونهب ثرواتها، وذلك خروج على مهمّة الأديب، ودوره في الحياة، الّتي ظهرت بوضوح زمن حروب الفرنجة، حيث وصف حال الأمة، ودعاها للتضامن والوحدة، ثم حرّضها على الجهاد، فكانت لها حرّيتها.

ومع شديد الأسف يواصل الاستعمار حتى يومنا هذا (2017/1439) إشاعة هذا الأسلوب الّذي يسمّى إنسانيًا لدى بعض مثقفي الأمّة، الذين يجعلون الجهاد ضد الاستعمار إرهابًا، فيما هو يواصل قهر الشعوب واستعبادها، ونهب ثرواتها، باسم القانون الدولي الّذي وضعه هو نفسه في الحربين الكونيتين الأولى والثانية، ولا زال يستخدمه لجلد الشعوب، وقهرها، ويحظر على المسلمين(الذين هم في نظره عبيد)

أخذ حرّيتهم إلّا بما يحلّه لهم من وسائل، وهو نفسه لا يستمع إلى تلك الوسائل، ولا يُعيرها أي اهتمام؛ لأنّه أساسًا لا يرى أنهم أهل للحريّة التي يفهمها. فالدول الاستعمارية المسيحيّة والصين تقهر الشعوب المسلمة، وتحتل أرضها، وتنهب ثرواتها بالقوة المسلحة، وهي تحرمهم من الدفاع عن أنفسهم، وأرضهم، وثرواتهم بالقوة الّتي لا تساوي شيئًا مقابل قوتهم، وتصفهم بالإرهاب والتطرّف، ثم هي تحتلهم اليوم باسم محاربة الإرهاب والتطّرّف، وتعمل على تنظيم حياتهم وفق ما تشاء، حيث تريدهم أن يقطعوا علاقتهم بدينهم، ولغتهم، وتراثهم، وحضارتهم.

ومن أمثلة النزعة الإنسانيّة ما يقوله إيليا أبو ماضي في قصيدة له بعنوان "ابتسم"[1]:

قال: السماء كئيبة! وتجهَّما قلتُ: ابتسم، يكفي التجهم في السّما

قال: الليالي جرّعتني عَلْقَما قلتُ: ابتسم، ولئن جرعت العَلْقما

فلعلّ غيرك إن رآكَ مُرنّما طرحَ الكآبة جانبًا وترنّما

4- حبُّ الطبيعة

اندمج شعراء المهجر كلّهم تقريبًا في الطبيعة، فأحسّوا بها إحساسًا عميقًا، فناجوها، واستلهموها وتمثّلوا بها، وحمّلوها آمالهم وآلامهم، وقد أوحت إليهم بالحنين إلى أوطانهم، ومَنْ يطالع نتاج شعراء المهجر يجد الغاب، وما فيه، وقد عبّروا عنه تعبيرًا صادقًا عن سعادتهم، باعتبار الغاب رمزًا للبساطة والجمال، واهتموا بالخريف وما يُحدثه في الطبيعة من قتل وتحطيم باعتباره رمزًا للآمال المحطمة، وطيبة الأمل، واهتموا بالرياح وترانيمها، فناجوها مناجاة الروح المحلّقة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في قصيدة "المواكب" لجبران خليل جبران، حيث يأتي فتى من الغابة، يعزف ألحانًا جميلة، فيلتقي شيخًا خارجًا من المدينة، وقد أثقلته همومها ومشاكلها، فيسائل الفتى الشيخ، مفضلاً حياته على حياة الشيخ، قال[2]:

هل تخِذْتَ الغابَ مثلي منزلاً دون القصورْ

فَتَتبّعت السّواقي وتسلّقتَ الصّخورْ

(1) إيليا أبو ماضي، ابتسم: ديوانه ، ص655.
(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص99.

هـــل جلســـتَ العصـــرَ مثلـــي بـــــينَ جفنـــــات العنـــــبْ

والعناقيـــــــــدُ تـــــــــدلّتْ كثُريّـــــــــاتِ الـــــــــدّهبْ

هـــل فرشـــتَ العشـــبَ لـــيلاً وتلحّفـــــــــتَ الفضـــــــــا

زاهـــــدًا فيمـــــا ســـــيأتي ناســـــيًا مـــــا قـــــد مضـــــى

وفي قصيدة "النهر المتجمد" يبثّ ميخائيل نعيمة النَّهر همومه، ثم يختمها بالتفاؤل، الذي جعله يقول[1]:

ســـــقفُ بيتـــــي حديـــــد ركـــــنُ بيتـــــي حجـــــرْ

فاعصـــــفي يـــــا ريـــــاح وانتحـــــبْ يـــــا شـــــجرْ

واقصـــــفي يـــــا رعـــــود لســـــتُ أخشـــــى خطـــــرْ

5- بساطة التعبير

آمن شعراء المهجر، وبخاصة الشمالي أنّ الشعر فنّ الحياة من دون تكلّف أو تقليد؛ فتخلّوا عمّا أسموه قيود القديم، وأسلوبه الفني؛ لذلك نظموا شعرهم بألفاظ بسيطة، وعبارات واضحة، وموسيقى عذبة غنائيّة، مهما كانَ الموضوع الشعريّ الذين ينظمون فيه؛ لذلك انتشر شعرهم بسرعة في المهجر والوطن العربيّ، ثم أخذ كثيرون من شعراء الوطن يسيرون على خطى شعراء المهجر، وقد ظهرت بساطة التعبير، والتحرّر في الأسلوب، والتنوّع في الموضوعات كثيرًا لدى: جبران خليل جبران (وعلى الرّغم من أنّه ليس لجبران من الشعر الموزون إلّا قصيدة " المواكب "، إلّا أنّ كثيرًا من الدّارسين يجعلونه في كل قضية شعرية يتحدّثون عنها) [2]، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة أكثر من غيرهم.

---

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص101.

(2) انظر: أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران،ص249، حيث قال إنها العمل الوحيد الذي تقيد فيه بالوزن والقافية. ؛ وفي: مارون عبود، مجددون ومجترون، ص163" إن جبران شاعر في منثوره لا في منظومه، أراد أن يُفلسف نظمًا فقال أشياء هي أفكار أكثر منها

ومثال بساطة التعبير، وعذوبة الموسيقى قصيدة "موكب الفؤاد" لنسيب عريضة، الّتي تحدّث فيها عن حيرة قلبه، ومنها[1]:

قلبي بلا شراع يطوفُ في البحار

قد قارب التداعي من كثرة الأسفار

سفينةٌ حقيرةٌ ليس لها ربّان

في ظلمات الحيرة منارها الإيمان

طاف البحارَ يرجو جزائر الخلود

لعلّه أن ينجو من لُجّة الوجود

وقصيدة "طمأنينة" لميخائيل نعيمة، ومنها قوله[2]:

بابُ قلبي حصينْ من صنوف الكدرْ

فاهجمي يا همومْ في المسا والسّحرْ

وانزلي بالألوف يا خطوبَ البشَرْ

6. الدّعوة إلى الإلحاد، والخروج على رجال الدّين

دعا عدد غير قليل من أدباء المهجر، وبخاصة أعضاء "الرابطة القلميّة" إلى عدم التسليم الأعمى بما يقوله رجال الدّين المسيحي في شروحهم للكتب الدينيّة وتفسيراتهم لها، وذلك بتأثير من الحياة الأمريكية (الولايات المتحدة) الّتي عاشوها حيث شعروا بحرية عامة، وانعدام الرقابة لرجال الدّين، فالحرية المبثوثة في شعرهم هي نتاج حرية الإنسان العامة، والإنسان المصلح لمجتمعه كما يقولون، وبعضهم

موسيقى". ثم يذكر أنّه تحوّل إلى الكتابة بلسان الدولار والشلين ، ولم يعد يكتب بالعربيّة بحثًا عنهما.

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص107.

(2) عيسى الناعوري ، أدب المهجر، ص111.

اعتبر ما يقوله بعض رجال الدّين ليس أكثر من شعوذات يحشونها في أذهان العامة، فشنّوا حملات عنيفة عليهم، ومن هؤلاء: جبران خليل جبران، وأمين الريحاني، وميخائيل نعيمة، حتى اتهم جبران والريحاني بالإلحاد، فأحرقت الكنيسة الكاثوليكيّة في بيروت أحد كتب جبران، كما وضعت كتبه وكتب أمين الريحاني في القائمة السوداء، التي يُحرم على الكاثوليك قراءتها؛ لمخالفتها تعاليم رجال الدّين الكاثوليك وتفسيراتهم للإنجيل. وقد ذكر مارون عبود أنّ جبران كان يعتقد أنّ الكتّاب هم قادة الإنسانيّة، ووصل الأمر به إلى الاعتقاد بأنه قريب من النبوة: "ثم تضخّمت هذه الفكرة في رأس جبران فخال أنّه فرخ نبيّ"[1].

وتبع جبران والريحاني الأديب ميخائيل نعيمة، فكرّر معانيهما في كتبه وشعره، وأحيانًا كانَ أشدّ منهما في حملاته على رجال الدّين حتى إنه دعا إلى ما أسماه تحرير الفكر من عبودية المذاهب، وإلى الارتفاع في الدّين، فوق الطائفية والمذاهب، وأن الإنسانيّة وحدة واحدة لا مذاهب فيها ولا طوائف؛ فهي خرجت كلّها من مذهب واحد، وتسير نحو مصب واحد. وقد غلب على المهجريين بعامة، وأعضا الرابطة بخاصة معالجة القضايا الدينيّة، وجنحوا في أدبهم "إلى إحياء مذاهب هرمة شائخة، قوامها وحدة الوجود، فقعدوا يجترّون ما عند القائلين بها من آراء، ويُنظّفون الأكفان الصوفيّة، ويكوونها لنا؛ فالدودة أُخت لنا ، والغراب ابن عمّنا...أمّا عمليًّا فنُصلي الوروار نارًا حامية إذا حام على خليّة نحلنا، ونقتل البقرة، والعنزة، والحمارة إذا اغتالت ورقة من اغصان جنينتنا ... أمّا الحصة الكبرى(من موضوعات أدب المهجر) فكانت لرجال الدين، كانت الثورة عليهم في كل مكان، وعلى أسلوب واحد... حتى جعلوهم مصدر شقاء البشر"[2].

وهذه في رأيي دعوة في ظاهرها سليمة، لكنّ جوهرها يقود إلى الخروج على الأديان كلّها، فيما الله، سبحانه، الّذي خلق الإنسان أرسل الرّسل لتبليغ الإنسان الدّين القويم، وهدايته إلى طريقه المستقيم، الّذي يؤدي به إلى ما فيه خيره في الدّنيا والآخرة، ثم ختم الرّسل بمحمد بن عبدالله، صلّى الله عليه وسلّم، ورسالته الإسلام الّذي جعله خاتم الديانات، فقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[3]، وقال:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [4]. والإسلام هو الدّين الّذي ارتضاه الله،

(1) مارون عبود، مجددون ومجترون، ص159.
(2) مارون عبود، مجددون ومجترون، ص158.
(3) آل عمران، 19/3.
(4) آل عمران، 85/3.

سبحانه، للأمة، فقال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)[1].

وقد عبّر جبران خليل جبران عن رأيه في الدّين في قصيدته "المواكب" إذ قال[2]:

والدّين في النّاس حقلٌ ليس يزرعه ... غيرُ الأولي لهمُ في زرعه وطرُ

من آملٍ بنعيم الخُلدِ مُبتشر ... ومن جهولٍ يخافُ النّارَ تستعرُ

كأنّما الدّين ضربٌ من متاجرهم ... إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

ليس في الغابات دينٌ ... لا ولا الكفرُ القبيحْ

فإذا البلبلُ غنّى ... لم يقُلْ: هذا صحيحْ

إنَّ دينَ النّاسِ يأتي ... مثل ظلٍّ وريحْ

لم يقُمْ في الأرضِ دينٌ ... بعد طه والمسيحْ

أما شعراء "العصبة الأندلسيّة" في المهجر الجنوبي، فقد هاجموا الدّين من خلال استبدالهم إياه بدين جديد هو العروبة، وهو الدّين الذي نشره الاستعمار الأوروبي والروسي القيصريّ؛ وغرّروا بالعرب المسلمين من خلال الدّعوة إلى الأخوة في العروبة، واللسان والموطن، ومجدّوا الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، لأنّه مفخرة للأمّة التي نشأوا فيها، ورأوا أنّ الدّين لا يجوز أن يُفرّق بينهم ما دامت تلك الرّوابط تربطهم، ولذلك رأيناهم يشاركون في بعض الاحتفالات الدينيّة الإسلاميّة، وبخاصة المولد النبويّ، وعيد الفطر، والأضحى، وغير ذلك من أعياد باعتبارها أعيادًا عربيّة، كما دعوا إلى ما أسموه التسامح الدّيني والأخوة الوطنيّة، وذلك كلّه لتسهيل ولوجهم إلى عقول، وقلوب كثير من أبناء الأمة.

---

(1) المائدة، 3/5.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص116.

ومن ذلك قول الشاعر القروي في عيد الفطر[1]:

أُكــرّم هــذا العيــدَ تكــريم شــاعرٍ يتيـــه بآيـــات النّبـــيّ المعظّـــم

ولكنّنـــي أصـــبو إلـــى عيـــد أُمّـــةٍ محـــرّرة الأعنـــاق مـــن رقٍّ أعجمـــي

إلــى علــمٍ مــن نســج عيســى وأحمــد وآمنـــةٌ فـــي ظلّـــه أخـــت مـــريم

فهو يدعو بجرأة إلى الثورة على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، والخروج عليها فيما الحرب كما كانت تُشنّ عليها باسم المسيحيّة.

ثم يدعو إلى الكفر الصريح فيقول:

ســلامٌ علــى كُفــرٍ يوحّــد بيننــا وأهـــلاً وســـهلاً بعـــده بجهـــنم

فمَنْ من المسلمين يسعى إلى جهنم، فليذهب وراء القروي، ويعتنق دينه القوميّ، الّذي يعيش في ظله العرب منذ أكثر من مائة سنة في جهنم الدّنيا تحت حكم الاستعمار الأوروبيّ، والروسيّ المسيحيّ، وذلك منذ سمعوا صيحات القوميّة من القروي وغيره، وما زالوا يعيشونها منذ سقوط الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة.

وسار على خطى القروي الشاعر إلياس فرحات في مهاجمة الدّين بعامة، والإسلام بخاصة من خلال ترجيح دين القوميّة، ومن ذلك قوله[2]:

مــا خطّــط الــدينُ التّخــومَ لأمّــة إلاّ وقـــد نخـــرَ الفســـادُ عظامهـــا

فهو يرى أنّ الدّين يُفسد أُمّة العرب، وكلّ أمة متديّنة، وهذا ما لا يعتقده الغرب المسيحيّ، الذي يُعامل المسلمين على أساس الدّين، والحقيقة هي أنّ الرابطة الدّينيّة هي المحرّك الرئيس للشعوب، وهذا ما زال كثير من زعماء العرب ومَنْ يُسمّون أنفسهم قادة الفكر في الوطن العربيّ يرفضون الاعتراف به. وقال[3]:

فلـــو أوصـــى بكـــره العـــربِ ديـــنٌ لكنـــــتُ إذن إمـــــامَ الملحـــــدينا

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص120.
(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص121.
(3) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص121.

والحقيقة الّتي تغيب عن القوميين هي أنّ الله، سبحانه وتعالى، كرّم العرب أفضل تكريم من خلال اختياره آخر الأنبياء، وخاتمهم منهم، وجعله لغتهم لغة القرآن الكريم، الّذي هو رسالة هدى للبشرية كلّها حتى يوم القيامة، وهي – أيضًا-لغة أهل الجنة. وبذلك على دعاة القوميّة الكفر باليهودية والمسيحيّة، والإيمان بالإسلام.

وقال في قصيدة يعنّف فيها أهل لبنان؛ لوقوفهم إلى جانب فرنسا ضد الثورة السورية الكبرى سنة (1344/1925-1346/1927)، وأغلبهم كانوا من النصارى المرتبطين كليًا بفرنسا، الّتي أصلاً سلخت لهم هذا الجزء من سوريا وسمّته لبنان، قال [1]:

أبنـــاءُ يعـــربَ إخـــوانٌ إذا قعـــدوا للحادثـــــاتِ، وإخـــــوانٌ إذا قـــــاموا

إخـــوانكم وذووكـــم لـــيس يفصـــلهم عـــنكم لـــدى غِيَـــر الأيـــام إســـلامُ

إن كـــانَ يـــأمرُ ديـــنٌ بالعـــداء لهـــم فـــــالكفرُ بالـــــدّين للـــــدّيان إعظـــــامُ

وعندما استقلّت سوريا، وأعلنت في دستورها سنة (1370/1950)أنّ دين الدولة هو الإسلام، ضج شعراء المهجر، وطالبوا بصراحة بمبدأ لا زال يردّده حتى اليوم (1439/2017) كثير من زعماء العرب والمسلمين الّذين يحكمون شعوبهم لصالح الاستعمار المسيحيّ، حتى بدأوا يبطلون – بدعم أسيادهم- أحكام الإسلام واحدًا تلو الآخر، وليس أدلّ على ذلك من دعوة رئيس تونس "الباجي قائد السبي" إلى إلغاء أحكام الميراث، الوارد فيها نصوص قرآنيّة لا لبس فيها، والمساواة بين المرأة والرّجل فيها، وإلى إلغاء أحكام الزواج، الوارد –أيضًا- فيها نصوص قرآنيّة واضحة وصريحة، والسماح للمسلمة بالزواج من أهل الدّمة والكفار – ذلك المبدأ شعاره: الدّين لله والوطن للجميع، وهو شعار وضعه الاستعمار المسيحيّ.

نسي أولئك المهجريون، وتلاميذهم في الوطن العربيّ والإسلاميّ اليوم أنّ هذا المبدأ حتى في بلاد أسيادهم لا يُطبّق، فأوروبا وروسيا وأمريكا يريدون إسلامًا جديدًا، تُفصِّله على مزاجها، وهواها؛ إسلامًا يلغي الإسلام الّذي ارتضاه الله لأمة الإسلام بعامة، والعرب منهم بخاصة.

(1) عيسى الناعوري ، أدب المهجر ، ص121.

ومن ذلك قصيدة "دين الدولة في دستور سوريا" للشاعر جورج صيدح، ومنها، قوله[1]:

تُحاسِبُنى دمشقُ على ضميري ... فيا ليتَ الحساب على الأيادي

وتحسبني دخيلاً في حماها ... كأنّ الضاد فيها غير ضادي

ذريني يا دمشقُ أعدُّ لحدي ... بأرض المُلحِدين من العبادِ

فديني غير دينك لم يفرّق ... وليدًا عن وليد في المهادِ

ولم يشرك بحبّك أعجميًّا ... وينبذ نسل غسان وعادِ

ذريني أعبد الوطنَ المفدّى ... على شرع التضامن والتفادي

خيالًا صورة الفيحاء فيه ... وألوان الحواضر والبوادي

أُحَدّق لا أرى فيه جراحًا ... يُضمّدها الأساةُ على فسادِ

ولا أثر الصليب على يديه ... ولا أثر الهلال عليه بادِ

ذريني أبعث الذكرى نذيرًا ... لشعب من خلائقه التمادي

بنى أركانَ عزّته اتحادٌ ... ويأبى أن يعيش على اتحادِ

وما استسلامه للدّين إلّا ... كتسليم السّلاح إلى الأعادي

إذا نزلت بساحته عوادٍ ... أيَعْصمه الكتابُ من العوادي؟

دعوا سنّ الشرائع والفتاوي ... وسنّوها سيوفًا للجلادِ

أقلُّ الدّين فقهٌ واجتهادٌ ... وأكثره استباقٌ للجهادِ

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص122.

7-الوصف والتصوير

الوصف عند ابن رشيق القيرواني هو أصل موضوعات الشعر كلّها، فلا يوجد موضوع شعريّ من دون وصف، وقد أجاد كثير من شعراء العربيّة منذ العصر الجاهلي، وحتى اليوم (2017/1439) في وصف ما يعجبهم، ويثير إحساسهم، وبثّ بعضهم فيما وصفوه الحياة، وناجوه مناجاة النّساك للباري، سبحانه وتعالى، والعاشقين، والمتصوّفة، وغيرهم.

وعلى الرّغم من ذلك رأى بعض الدّارسين _ من غير دليل _ أنّ هذه ميزة اختصّ بها الأدب المهجريّ؛ شعرًا ونثرًا، باعتبار أنّه " قدّم منها ألوانًا عجابًا في مختلف صور الحياة، ونوازع النّفس البشرية، والفكر الإنسانيّ"(1). ومن ذلك قول ميخائيل نعيمة في مقالة بعنوان " الصُّخور"، في كتابه "البيادر": " ومن صخور السّفوح ما عبّد به صِنّين الطُّرق التي يسلكها حبيبه البحر عند عودته من زياراته العديدة له، فما إخالكم تجهلون ما بين صِنّين والبحر من محبّة لا تُضاهيها محبّة قطُّ، ففي الصيف ما ينفك البحر يغمر بأنفاسه وجه صِنّين: فأنّا سحاب، وآونة ضباب، وآنًا ندى، ما أظنُّ جنّة عدن عرفت ألطف أو أخفّ منه. أمّا في الخريف، وقد راح صِنّين يستعدُّ لغفوة الشتاء، فيصعد إليه البحر مرارًا، ويغسله من أم رأسه حتى أخمصيه كأنّه العروس تُعَدّ للزّفاف. ويأتي الشتاء، فيطير البحر إلى صِنّين، ليغفو وإيّاه غفوتهما الطويلة البيضاء. ويجيء الرّبيع، فيستفيق العروسان، ويعود أحدهما إلى شواطئه في الطريق التي رصفها له الآخر بفلذات من كبده"(2).

وقول جورج صيدح في وصف ناطحات السحاب في نيويورك: (3)

كُـوىً تُطـلّ علـى الأكـوان أعينهـا وأذنهـا تسـتقى أخبـار باريهـا

أنوارهـا تكشـفُ الآفـاق معلنـةً عـن سـلعة ربمـا الأمـلاك تشـريها!

وقول إلياس فرحات في وصف "الراهبة: (4)

أطلّـت مـن الـدبر عنـد الضُّـحى وفـي ناظريهـا بريـقُ الأسـى

(1) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص124.
(2) ميخائيل نعيمة، الصخور: البيادر، ص206.
(3) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص129.
(4) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص129.

فتـــــاة كـــــانَّ الإلـــــه براهـــــا ليجعلهـــــا فتنـــــةً للنُّهـــــى

ولكنّهـــا فـــي صـــباح الحيـــاة عـــرا وجنتَيْهـــا شـــحوبُ المســـا

رماهـــا الزَّمـــانُ بهجـــر الحبيـــب فـــداوت ضـــلالَ الهـــوى بالهـــدى

تصـــــلّى فتحســـــبها دميـــــةً مـــــن العـــــاج ســـــاجدةً للـــــدّمى

وتلـــثم تلـــك الـــدّمى بخشـــوع فيوشـــكن يلثمنهـــا مـــن جـــوى

8. ظهور ما سمي" الشعر المهموس" في بعض شعر شعراء المهجر رأى بعض دراسي الأدب العربي في المهجر أنّ أكثر شعر شعراء المهجر كان مناجاة للحياة، وتصويرًا صادقًا لكل ما فيها، وأنّ هذا التصوير كان بعبارات شعريّة رقيقة. وقد سمّى محمد مندور هذا الشعر " الشعر المهموس"؛ إذ رأى أنّ الشاعر القوي "هو الّذي يهمس فتحسّ صوته خارجًا من أعماق نفسه في نغمات حارة"[1].
9. كثرت في شعرهم الرحلات الخيالية إلى السماء والعالم الآخر تأثرًا بالمعرّي في "رسالة الغفران"، وابن شهيد الأندلسي في "التوابع والزوابع"، وعباس العقاد في "ترجمة الشيطان"، وجميل صدقي الزهاوي في "ثورة الجحيم" وغيرهم، فنظم فوزي المعلوف ملحمة "على بساط الريح"، وشفيق المعلوف ملحمة "عبقر".

(1) محمد مندور، في الميزان الجديد، ص48.

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا الكتاب، أمكنني الوصول إلى النتائج، والتوصيات الآتية:

أوّلًا: النتائج

توصلت في هذا الكتاب إلى نتائج عديدة أهمها:

1- أن حملة نابليون على مصر لم تكن أبدًا بداية للنهضة العربيّة لا في الأدب ولا في غيره، بل هي محاولة ثانية لاستئناف الحروب الصليبية، والثأر لهزيمة ملك فرنسا "لويس التاسع" في معركة المنصورة سنة(1250/648)، على يد الدولة الأيوبيّة الإسلاميّة. فكانت الحملة بداية الغزو العسكريّ، والثقافيّ المستمرّ حتى يومنا هذا (2018/1439)، والهادف إلى تحقيق ما ورد في خطاب "صموئيل زويمر" في مؤتمر المبشّرين الذي عقد بالقدس الشّريف سنة (1935/1354). وقد سار الأدب العربيّ بعدها في طريق التغريب شوطًا كبيرًا.

2- حركات التغريب، التي سُمّيت ب" المدارس أو المذاهب" ظهرت في مصر في المركز الأوّل لِما لها من دور في الوطن العربيّ، وفي المهجر، وتسرّب بعضها؛ جزئيًّا أو كلّيًّا إلى هذا القطر العربيّ أو ذاك، ولم تنتشر في الأقطار العربيّة كلّها، وعليه لا يجوز، ولا يصحّ أن نَدرُس الأدب العربيّ الحديث من خلال تلك الحركات مهما كانت مُسمّياتها، وليس أدلّ على ذلك من النّظر في قائمة الشّعراء الذين قيل إنّهم انتسبوا لتلك الحركات، وقائمة الشّعراء في مصر وغيرها من الأقطار العربيّة، فالفرق شاسع بين القائمتين.

3- إنّ حركات التّغريب، وعلى الرّغم من الدّعم الذي تلقّته في حينه من وسائل الإعلام، ومن الاستعمارين البريطانيّ والفرنسيّ، وعلى الرّغم من الدّراسات التي حظيت بها تلك الحركات، وما تزال من قبل مؤيّديها إلّا أنّها لم تُعمِّر طويلًا، فأطولها عمرًا عاش عقودًا معدودة، ثم توقّف فجأة عن الحياة، ولم يعد شيئًا مذكورًا.

4- سعت حركات التغريب باسم الحداثة والتجديد إلى إفساد عقول النّاشئة، وتزهيدهم في الثقافة، والحضارة، والتراث العربيّ الإسلاميّ، وعملت على الحطّ من قيمة العرب والمسلمين، ورفع قيمة الأمم الغربيّة، والمسيحيّة، حتى

قال المستشرق الفرنسيّ شارل بيلا(ت1992/1413): إنّ الأدب العربيّ أدب غربيّ مكتوب بحروف عربيّة، وهو غربيّ مع ما فيه من فكر هابط.

5- الأدب الذي أنتجه أغلب الأدباء الذين انتموا لحركات التغريب، لا يُمثّل حياة العرب والمسلمين، ولا ثقافتهم، ولا حضارتهم، ولذلك أسهم في تغريب كثير من النّاشئة. وعلى الرّغم من بدء تراجع دور ذلك الأدب منذ عقدين ونيّف إلّا أنّ دوره ما زال قائمًا بفعل دعاته الذين تشرّبوه-بسبب المناصب المهمّة التي يشغلونها في أنظمة الحكم بعامة، والتربية والتعليم بخاصّة-ويرفضون إعادة قراءة النتاج الأدبي العربيّ في العصور التي وُصفت بالانحطاط والتّخلف من غير وجه حقّ.

6- أُصيب دُعاة التغريب في مضامين الشّعر العربيّ، ومَنْ تبعهم، بانفصام معرفي عن الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وذلك من خلال اعتمادهم الإبهام والغموض، والأساطير، والرّموز، والشخصيات والحوادث التاريخيّة غير العربيّة الإسلاميّة، فاضطر كثيرون منهم إلى شرح مُبهماتهم، ورموزهم، وأساطيرهم لعلّهم يقتربون من القرّاء، أمّا استخدامهم الكلمات الأجنبية فكان دليل انهزامهم الثقافيّ لا دليل تقدّم وتحضّر، وقد صدق فيهم قول ابن خلدون" والمغلوب أبدًا مولعٌ بتقليد الغالب". وأما استخدامهم العاميّة، فأوقعهم في غموض وإبهام ما بين منطقة جغرافية وأخرى في القطر العربيّ الواحد، وأكثر من ذلك بكثير بين الأقطار العربية.

7- استطاع الشعر العربيّ الأصيل أن يواصل جريانه، وتجاوز الصُّخور التي ألقيت في مجراه التاريخيّ من دون أن يوقف ذلك المجرى أو يُحوّله، وسرعان ما اختفت تلك الصُّخور، أو أُلقيت إلى حيث أتت في بحار الغرب. وقد ظهر ذلك بعودة أغلب كبار الشعراء إلى الشّعر الموزون، وإلى النّظم في الأغراض الشّعريّة التي كانوا اعتبروها تقليديّة ومتخلّفة؛ ذلك أن أغراض القول الإنسانيّة واحدة منذ وُجد آدم، عليه السلام، وإلى أن يرث الله، سبحانه وتعالى، الأرض وما عليها، لا جديد فيها إلّا المخترعات الحديثة.

8- لا صحّة البتّة في الأوصاف التي أُلصقت بالأدب العربيّ طوال قرون عديدة من: جمود، وركاكة، وجدب فكريّ، وتلاعب بالألفاظ، وسيطرة البديع، والتقوقع في أغراض ذاتية. ولا صحّة في الأوصاف التي أُلصقت بالعصور التي مرّ فيها الأدب من مثل: عصور الجدب الثقافي، والتخلّف السياسيّ، وانعدام الحرية.

9- سيطر على أنصار التغريب (التجديد)، ودعاته آراء غريبة في القديم والحديث، من دون النظر إلى حقيقة القديم والحديث؛ فالقديم عندهم سخيف، لا أحد يستخدم ألفاظه؛ لأنّ الدّهر أكل عليها وشرب. والألفاظ ذاتها يُصبح المعنى فيها جميلًا وحديثًا، وثائرًا على التّقوقع إذا ما استخدمها شاعر مُسْتَغرب، فيما التّقدم عندهم يعني الخروج من إطار الحضارة العربيّة الإسلاميّة، والولوج إلى الحضارة الغربيّة المسيحيّة، وغيرها حتى لو كانت أسخف الحضارات، فالمهم هو الانسلاخ عن الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

10- الأغراض الشّعرية التي ادّعوا أنّها جديدة، وروّجوا لها، ودعوا إليها، هي كلّها موجودة في مجرى الشعر العربيّ الأصيل، إلّا المخترعات الحديثة، والدّعوة إلى الذاتية، والحزن، والانغماس في وصف الطبيعة زمن الاحتلال الاستعماريّ للدول العربيّة، حيث كانت هذه الدّعوة خدمة مجّانيّة للاحتلال، وانحرافًا عن الواجب الذي كان على الشاعر أن يقوم به في زمن العدوان على الأمة واغتصابها، وذلك كما فعل شعراء العربيّة في زمن المواجهة مع الفرنجة(الصليبيين)، والمغول، حيث استنهضوا الأمّة، وحثّوها على المواجهة، ثمّ حرّضوها على الجهاد، فكان لهم الخلود، وللأمّة النّصر، لكن مع الأسف أسقط المستشرقون وتلاميذهم هذه الحقبة من مناهج التعليم المدرسيّ، والجامعيّ في أغلب البلاد العربيّة والإسلاميّة، وذلك بهدف تمكين الاستعمار من الأمّة وثقافتها، وتاريخها.

ثانيا- التوصية

أهم ما أوصي به هو: ضرورة إعادة قراءة المصادر الأدبيّة، والتاريخيّة، والثقافيّة العربيّة الإسلاميّة من أجل إعادة كتابة أدبنا، وتاريخنا، وثقافتنا وفهمها.

والتوقّف عن اجترار أقوال المستشرقين وتلاميذهم. وهذا يتطلب من جامعاتنا وحكوماتنا الإنفاق اللّازم على البحث العلميّ، وتشجيعه، والتوقّف عن إيجاد عمادات للبحث العلميّ في الجامعات، أو وزارات في الحكومات من دون موازنات كافية، أو بانتظار هبات من هذه الدولة أو تلك، فتلك الدّول لن تدعم بحثًا علميًّا لا يخدمها، ويؤدّي إلى نهوض الأمّة، واستقلالها، وتفوّقها، فيقود إلى وحدتها التي تُرهب الأعداء، بل هم يدعمون الأدب الذي يُغذّي الإقليميّة، والطائفيّة، وكل ما فيه خروج على قيم الأمّة ومعتقداتها، والحفاظ عليها مُتفرّقة، ومُتناحرة، ومُتخلّفة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولًا: المصادر

1- إبراهيم، حافظ، **ديوانه**، ضبط وتصحيح وشرح وترتيب أحمد أمين وزميليه، ط3، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.

2- أيوب، رشيد، **ديوان الأيوبيات**، مدونة لسان العرب، 1916.

http://Lisaanularab.blogspot.com

3- البارودي باشا، محمود سامي، **ديوانه**، تحقيق وضبط وشرح علي الجارم وزميله، بيروت: دار العودة، 1998.

4- جبران، خليل جبران، **المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران: نصوص خارج المجموعة**، جمع وتقديم أنطوان القوّال، ط1، بيروت: دار الجيل، 1994/1414.

5- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت1241ه)،

أ. **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدّين، القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت. (صفحات من تاريخ مصر، 4/37).

ب. **مظهر التّقديس بزوال دول الفرنسيس**، اختصار وتعليق وفهرسة موضوعيّة محمد بن حسن الشريف، مراجعة وتقديم عبد الستار سعيد، ط1، جدّة: دار الأندلس الخضراء، 1999/1419.

6- الحكيم، يوسف، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ط4، بيروت: دار النهار للنشر، 1991. (ذكريات:11).

7- الخفاجيّ، أحمد بن محمد، شهاب الدّين(ت1069ه)،

أ- **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدّنيا**، تحقيق محمد عبد الفتاح الحلو، ط1، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، 1967/1386.

ب- **شفاء الغليل فيما في اللغة العربيّة من الدّخيل**، تقديم، وتصحيح، وتوثيق، وشرح محمد كشّاش، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998/1418.

8- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808ه)، **المقدّمة**، تحقيق وتقديم وتعليق عبد السلام الشدادي، ط1 [طبعة خاصة في خمسة مجلدات]، الدار البيضاء: خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005.

9- ابن خلّكان، أحمد بن محمد(ت681ه)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1977-1968.

10- الخوري، رشيد سليم، **الأعاصير**، مطبعة مجلة الشرق، د.ت.

11- الريحاني، أمين، **الريحانيات**، القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

12- ابن سلّام الجمحي، محمد بن سلام(ت232ه)، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود محمد شاكر، جدّة: دار المدنيّ،1974.

13- ابن سناء الملك، هبة بن جعفر (ت606ه)، **دار الطّراز في عمل الموشّحات**، تحقيق ونشر جودة الرّكابي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1368/ 1949.

14- السّهرورديّ، يحيى بن حبش(ت587ه)، **ديوانه**، دراسة وتحقيق مشهور الحبازي، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1437ه.

15- أبو شادي، أحمد زكي، **الأعمال الشعريّة الكاملة**، بيروت: دار العودة، 2005.

16- شكري، عبد الرحمن، **ديوانه**، جمع وتحقيق نقولا يوسف، وشارك في الجمع محمد رجب البيومي، مراجعة وتقديم فاروق شوشة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

17- شوقي، أحمد،

أ. **أسواق الذهب**، مصر: مطبعة الهلال، 1932.

ب. **دول العرب وعظماء الإسلام**، بيروت: دار الكتاب العربي، 1970.

ج. **الشوقيات،** ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت. (أربعة أجزاء).

18- شيخو، لويس، **الآداب العربيّة في الرّبع الأوّل من القرن العشرين، الجزء الأول** 1800-1870م، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1910.

19- طوقان، إبراهيم، **الأعمال الشعريّة الكاملة،** ط2، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1993.

20- طه، علي محمود، **ديوانه،** القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

21- العقاد، عباس محمود، **هدية الكروان،** القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.

22- ابن العماد الحنبليّ، عبد الحيّ(ت1089ه)، **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب،** بيروت: دار الآفاق الجديدة، د. ت.، (ذخائر التراث العربيّ).

23- القزويني، محمد (ت1335ه)، **طروس الإنشاء وسطور الإملاء: الأدب العراقي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين،** تحقيق جودت القزويني، ط1، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، 1998/1418.

24- أبو ماضي، إيليا،

أ. **ديوانه،** بيروت: دار العودة، د. ت.

ب. **من أعمال الشاعر إيليا أبو ماضي: الجداول، الخمائل، تبر وتراب،** بيروت: دار كاتب وكتاب، 1988.

25- المحبّيّ، محمد أمين بن فضل الله(ت1111ه)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر،** القاهرة: المطبعة الوهبيّة، 1284ه.

26- المرصفي، حسين، **الوسيلة الأدبيّة إلى العلوم العربيّة،** تحقيق وتقديم عبد العزيز الدّسوقي، القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1982.

27- مطران، خليل، **ديوان الخليل،** القاهرة: طبع دار الهلال، نشر دار المعارف، ط2، 1949.

28- ابـن معصـوم، علـي بـن أحمـد(ت1119ه)، **سـلافة العصـر فـي محاسـن الشعراء بكل مصر**، ط2، الدّوحة: مطابع علي بن علي، 1382ه.

29- ابن المعمار البغدادي، محمد (ت 642ه)، **الفتوة**، تحقيق ونشر مصطفى جواد وزملائه، تقديم مصطفى جواد، ط1، بغداد: مكتبة المثنى، 1958.

30- المقريزيّ، أحمد بن علي (ت 845ه)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق محمد زينهم وزميلته، مراجعة أحمد زيادة، ط1، القاهرة: مكتبة مدبوليّ، 1998،(صفحات من تاريخ مصر: 3/39).

31- الملائكة، نازك، **الدّيوان**، بيروت: دار العودة، 1997. مجلّدان.

32- ابـن منظـور، محمـد بـن مكـرم(ت711ه)، **لسـان العـرب**، بيـروت: دار صادر، 1995/1388.

33- ابـن منيـر الطرابلسـيّ، أحمـد(ت548ه)، **شـعره**، جمعـه، وحقّقـه، وقدّم لـه سعود عبد الجابر، ط1، الكويت: دار القلم، 1982/1402.

34- **الموسوعة العربيّة العالميّة**، ط2، الرّياض: مؤسّسة أعمال الموسوعة للنّشر والتوزيع، 1999/1419.

35- **الموسوعة العربيّة الميسّرة**، طبعة جديدة، بيروت، القاهرة، تونس: دار الجيل، الجمعية المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، 2003-2004.

36- نعيمة، ميخائيل،

أ-الغربال، ط15، بيروت: نوفل، 1991.

ب-البيادر، ط12، بيروت: نوفل، 1996.

ت-همس الجفون، ط6، بيروت: نوفل، 1996.

37- ياقوت الحمويّ، ياقوت بن عبد الله(ت626ه)، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، د. ت.

ثانيًا: المراجع

1- الأثري، محمد بهجة، **أعلام العراق: كتاب تاريخي أدبي انتقادي يتضمن سيرة الإمام الألوسي الكبير، وتأبين العلماء والأدباء وتراجم نوابغ الألوسيين**، القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبة الحصري ،1345ه.

2- الأحمد، نجيب، **فلسطين: تأريخا ونضالا**، ط2 (مزيدة ومنقحة)، عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 2004.

3- إسماعيل، عزّ الدّين، **الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنوية**، بيروت: دار الثقافة، د.ت.

4- الباقر، محمد وزملاؤه، **البعثة العلمية إلى دار الخلافة الإسلاميّة**، بيروت: المطبعة العلمية، 1916/1334.

5- الجندي، أنور، **صفحات مجهولة من الأدب العربيّ المعاصر**، ط1، القاهرة: المكتبة الأنجلو المصريّة، 1979.

6- جوهرية، واصف، **القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الثاني في مذكرات الموسيقي واصف جوهرية 1918-1948**، تحرير وتقديم عصام نصّار وسليم تماري، القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2005.

7- الحاوي، إيليا، **خليل مطران طليعة الشعراء المحدثين**، ط2، بيروت: دار الكتاب اللبنانيّ ،1981.

8- حتّي، فيليب، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد وزميله، أشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور، بيروت: دار الثقافة، د.ت.

9- حسّون، علي، **تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية**، ط3، بيروت: المكتب الإسلامي، 1994/1415.

10- حسين، محمد محمد، **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر؛ الجزء الأول: من الثورة العربية إلى قيام الحرب العالمية الأولى، الجزء الثاني، من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية**، ط3، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1972/1392.

11- خفاجي، محمد عبد المنعم،

أ. **حركات التجديد في الشعر الحديث،** الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2001.

ب. **دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه،** ط1، بيروت: دار الجيل، 1992/1412، جزآن.

ج. **قصّة الأدب في مصر،** ط1، القاهرة: المطبعة المنيريّة بالأزهر، 1375/ 1956.

د. **قصّة الأدب المهجريّ،** بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1986.

ه. **مع الشعراء المعاصرين،** القاهرة: المطبعة المنيرية، 1956.

18- خليل، إبراهيم، **مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث،** ط4، عمّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2011/1432.

12- داغر، يوسف أسعد، **مصادر الدراسة الأدبية: الجزء الثاني: الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، القسم الأول: الراحلون (1800-1955)،** بيروت: منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، 1955.

13- الدّهان، سامي،

و. **الشعر الحديث في الإقليم السوري،** مصر: معهد الدراسات العربية، 1960.

ز. **قدماء ومعاصرون،** مصر: دار المعارف، 1961.

14- الرّمادي، جمال الدين، **من أعلام الأدب المعاصر،** القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.

14-الزركلي، خير الدّين، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،** ط11، بيروت: دار العلم للملايين، 1988.

15- السّحرتي، مصطفى، **الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث،** ط2، جدّة: تهامة للنشر والمكتبات، 1984/1404.

16- أبو سعد، أحمد، **الشعر والشعراء في العراق (1900-1958)،** بيروت: دار المعارف، 1959 (تاريخ الشعر العربي المعاصر: 2).

17- سعيد، إدوارد، **خارج المكان: مذكّرات**، ترجمة فوّاز طرابلسيّ، ط1، بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، 2000.

18- شاكر، محمود محمد، **رسالة إلى ثقافتنا**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأعمال الفكرية، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 1997.

19- شرارة، حياة، **صفحات من حياة نازك الملائكة**، ط1، لندن: رياض الريّس للكتب والنّشر، 1994. (حكايات مع الأدباء).

20- الصاوي، أحمد حسين، **المعلّم يعقوب: بين الأسطورة والحقيقة**، ط2، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2009.

21- صبري، محمد، **الشوقيات المجهولة: آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها، دراسات وأضواء جديدة على حياة الشاعر، وعصره، وأدبه**، ط2، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003/1423، (ذاكرة الكتابة، 40).

22- ضيف، شوقي، **الأدب العربي المعاصر في مصر**، ط5[مزيدة موسّعة]، مصر: دار المعارف، 1974 (مكتبة الدراسات الأدبية: 24).

23- طوقان، فدوى، **أخي إبراهيم**: الأعمال الشّعريّة الكاملة لإبراهيم طوقان، ط2، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1993.

24- العالم، جلال، **قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام، أبيدوا أهله**، ط2، طرابلس الشام: د. ن.، 1974/1395.

25- عباس، إحسان، **نظرة في شعره**: الأعمال الشعريّة الكاملة لإبراهيم طوقان، ط2، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1993.

26- عبد النّور، جبّور، **المعجم الأدبيّ**، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1979.

27- عبود، مارون،

ح. **رواد النهضة الحديثة**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2015.

ط. **الرؤوس**، ط2، بيروت: دار المكشوف، 1959.

ت.**مجدّدون ومُجترّون**، القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.

28- عزّ الدّين، يوسف، **التجديد في الشعر الحديث: بواعثه النّفسيّة وجذوره الفكرية**، ط2، دمشق: دار المدى للثقافة والنّشر، 2007.

29- العطوي، مسعد بن عيد، **الأدب العربي الحديث**، ط1، تبوك: شبكة الألوكة، 2009/1430.

30- عمارة، محمد، **السجل الأسود لحملة نابليون: تلاميذ المعلم يعقوب يحتفلون بذكرى (200) عام على الحملة الفرنسيّة على مصر**، مجلة المجتمع، العدد (1297)، غرة محرم 28/4/1419، 1998، ص20-28.

31- فروخ، عمر،

ي. **هذا الشعر الحديث...**، ط1، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1980/1400.

ك. **شاعران معاصران: إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي**، ط1، بيروت: المكتبة العلمية ومطبعتها، 1954/1374.

32- القط، عبد القادر، **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر**، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1981/1401.

33- قوبعة، محمد، **الرومنطيقيّة ومنابع الحداثة في الشعر العربيّ: الرابطة القلميّة أنموذجًا**، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة، تونس (1)، كلية الآداب، منوبة، 2000. (سلسلة: آداب م40، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التونسيّة).

34- كشك، محمد جلال، **ودخلت الخيل الأزهر**، ط3، القاهرة: الزهراء للإعلام العربين 1990/1410.

35- الكيالي، سامي، **الأدب العربي المعاصر في سورية (1850-1950)**، مصر: دار المعارف، 1959.

36- محمد، نظمي عبد البديع، **أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب: دراسة تحليلية نقدية موازنة**، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.

37- مصطفى، إبراهيم، وزملاؤه، **المعجم الوسيط**، القاهرة: مجمع اللغة العربيّة، د. ت.

38- الناعوري، عيسى، **أدب المهجر**، ط3، مصر: دار المعارف، 1977 (مكتبة الدراسات الأدبية:14).

39- نصّار، حسين، **في الأدب المصري**، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422/2002.

40- نعيمة، ميخائيل، **جبران خليل جبران**، ط13، بيروت: نوفل، 2009.

41- النويهيّ، محمد، **قضية الشعر الجديد**، ط2[مزيدة ومنقّحة]، القاهرة: دار الفكر، مكتبة الخانجيّ،1971.

42- هدارة، محمد مصطفى، **دراسات في الأدب العربي الحديث**، ط1، بيروت: دار العلوم العربية للطباعة والنشر، 1410/1990.

43- هيكل، أحمد، **موجز الأدب الحديث في مصر**، مصر: مكتبة الشباب، 1993.